



**أصول
الدعوة الإسلامية**

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

أصول الدعوة الإسلامية

(ξ)

(٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

ويعد ،،

فمنذ أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالإسلام ، وللدعوة إليه أمر لازم وواجب ضروري ، قياماً بالمسئولية ، وأداءً للأمانة ، ونشراً لدين الله بين الناس أجمعين .

وقد قام رسول الله ﷺ بهذا الواجب ، وعلم أصحابه ﷺ القيام به ، وتركوا لمن بعدهم رصيلاً هائلاً ، يستفيدون به في مجال الدعوة إلى الله تعالى . وقد نهض السلف الصالح بهذا الواجب ، فدعوا إلى الإسلام ، وبلغوه للعالم كله ، متحملين الكثير من أجل أمانة الدعوة إلى الله تعالى ، والوصول بالإسلام إلى كل مكان في الوجود .

لقد اتخذ المسلمون -الأول- القرآن- الكريم ، وللسنة النبوية سنداً لهم ، واستفادوا بجهود سلفهم الصالح ، وتتبعوا تجاربهم العملية ، وهم يبلغون دين الله تعالى للناس . وكانوا ﷺ صورة كاملة للإسلام ، يحيطون به علماً ، ويطبقونه عملاً ، وينشرونه بلاغاً وإرشاداً ، ولم يكتفوا بواجب محدد مع القرآن الكريم ، أو مع السنة الشريفة ، كأن يفسروا ، أو يستخرجوا حكماً عقدياً ، أو فقهياً ، أو تنظيمياً ، أو يعملوا فقط ، وإنما استشعروا ﷺ المسئولية بتمامها ، فكان كل واحد منهم دائرة للمعارف الإسلامية تجدهم مفسراً ، ومحدثاً وفقهياً ، وأديباً ، ومجاهداً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، وتلقاه في سائر

(٨)

المجالات. عاملاً بعلمه ، متمسكاً بالحق وللرشاد .، ملتزماً بكل ما أمر الله به إصلاحاً لنفسه ، ولأهله ، وللناس أجمعين .

ومن هنا بقيت آثارهم جامعة وبارك الله في كل ما تركوه ، من علوم نافعة ، وأعمال مضيئة ، وأخلاق عالية كريمة .

إن من يرجع إلى تاريخ سلف الأمة الإسلامية يرى حياة مليئة بالحيوية ، والقوة ، والعظمة ... تعد مرجعاً للخلف ، ومصدراً من مصادر الهدى . وللرشاد ، في كل مجال ، ومع سائر الفنون .

ولم تدم هذه الصورة الجامعة في شخصية عالم ولحد ، وبخاصة بعد أن تعددت العلوم ، وتنوعت الفنون ، وأصبح العلم الواحد عدداً ، وانقسم التخصص الواحد إلى تخصصات فرعية عديدة .

لقد حتم التوسع الحضارى ، والتقدم العمرانى ، والتعمق العلمى إلى ضرورة أن يتخصص العلماء ليسيروا كل فريق مع وجهته ، ولتعمق كل طائفة فيما اختارت من فروع العلم ، وجزئياته .

وللمسلمين فى التخصص العلمى دليل من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية ، حيث يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

فقد أفادت الآية أنه لا يصح أن يتجه المسلمون جميعاً لعمل ولحد ، ويتركوا ما عداه ، ولو كان هو الجهاد . لأنهم بحاجة إلى كافة الأعمال التى يحتاجون إليها فى مسيرة الحياة .

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

(٩)

وتشير الآية إلى ضرورة تفرغ طائفة من المسلمين للتفقه في الدين ، وتفهم تعاليم الإسلام ، سواء بقوا في المدينة ، أو خرجوا مع المجاهدين ، ليقوموا بدعوة غيرهم إلى الله تعالى حينما يلتقون بهم ، ونشر تعاليم الله بينهم وبين غيرهم من الناس .

ومن أقواله ﷺ الدالة على التخصص : **أفضاكم على** .

ويقول ﷺ : **أعلمكم بالفرائض زيد** .

ويقول ﷺ : **أقروكم للقرآن أبي** .

وخالد هو سيف الله المسلول وهكذا .

لقد أصبح التخصص ضرورة علمية ، وضرورة حياتية لا بد منها .

أما كونه ضرورة علمية فلحاجة العلوم إلى التعمق والتحليل ، وللمقارنة
وأما أنه ضرورة حياتية فلأن حياة الناس ملئت بالحركة ، وانشغل الناس بالدنيا ، ولم يعد مقبولاً أن يقدم لهم كل شئ في وقت واحد ، وإنما المقبول أن يقدم لهم ما يحتاجون إليه بصورة موجزة ، وواضحة ، في وقته الملائم ، وظروفه المناسبة .

إن على المؤمنين أن يوزعوا أنفسهم على الأنشطة الاجتماعية المختلفة ، فبعضهم يخرج للجهاد ، والقتال ، والبعض الآخر يخرج للتعليم ، وبعضهم يقوم على الإنذار والبلاغ ، وبعض آخر يشرف على القاعدين والضعفاء ، وللباقون يقومون بالتجارة والعمل .

بل إن على الفرقة الواحدة أن توزع أفرادها على أعمال مختلفة في إطار عمل الفرقة كلها ، فالمجاهدون . مثلاً . بعضهم يرمى ، وبعضهم يوزع الأسلحة ، وبعضهم يداوى وبعضهم يطعم ، ويسقى ، وهكذا ، وكان رسول الله ﷺ يكلف بعض أصحابه بالقضاء ، وبعضهم بحمل الرسائل والكتب ، وبعضهم بقيادة

الجيش ، وبعضهم بتولى أمر المدينة أثناء الغزوات . ، وذلك نوع من مراعاة الاستعداد والتخصص .

لقد حتمت هذه الضرورة أن تظهر علوم الدعوة ، خاصة بها .
فبعد أن كانت الدعوة تقدم في إطار علوم الإسلام ، مثل التفسير ،
والحديث والفقهاء ... وللعقيدة صارت. علماً مستقلاً بموضوعها ، وخصائصها ،
وهدفها .

ولجئنا علماء الدعوة في تأصيل تخصصهم، ولبرازهم في أطر علمية ،
واضحة ، حتى أصبحت أبحاث الدعوة علوماً متعددة ، تتميز عن بعضها ،
وصار لكل منها موضوعه ، ومنهجه ، وغايته .
وتناولت علوم الدعوة الجانب التطبيقي مع الناحية النظرية ، لشدة صلتها
بالناس . ، ولأهميتها في إيصال المعارف الإسلامية إلى العقول ، وللقلوب ،
وتحويلها في حياة الناس إلى عمل ، وسلوك .

إن أهمية العلوم تكمن في موضوعها ، ووسيلتها ، وهدفها . وعلوم الدعوة
تشرف بكل هذا ، لأن موضوعها هو الإسلام بكماله ، وتمامه ، وهدفها نشر
المصلحة ، وإسعاد الناس بالإسلام ، ووسيلتها التوجه إلى الناس بما يناسبهم
من حكمه ، وموعظة ، وحوار على نحو ما قام به رسول الله ﷺ .

ولعل في تتبع الدعوة لخطى رسول الله ﷺ في البلاغ ، والإرشاد خير شاهد
على شرف علوم الدعوة ، وعلو هامتها ... وصدق الله تعالى وهو يقول: ﴿ وَمَنْ

أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

إن الدعوة إلى الله تعالى تعتمد على سائر العلوم الإسلامية ، وتتحرك بها

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .

(١١)

وتحولها فى الناس ، حياة للقلوب ، وعملاً فى الجوارح ، وخلقاً مع السلوك ، ولذلك كانت كافة العلوم الإسلامية إعداداً عاماً للدعاة ، يحتاجون بعده إلى علوم الدعوة التخصصية لتعينهم على النجاح ، وتمكنهم من إيصال هذه العلوم للناس .

إن منهج الدعوة يعد إطاراً يحدد كافة أركان الدعوة ، وبخاصة بعدما صار كل ركن منها علماً مستقلاً ، يقوم على دراسات عديدة ، تحتاج إليها أركان الدعوة ويمكن إجمال أركان الدعوة ، والإشارة إليها فى نقاط هى :

(أ) مضمون فكرى هو الإسلام بما حوى من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق وهو الذى يعرف بأصول الدعوة .

(ب) أسلوب يحتوى على الفكرة ، ويتحرك بها ، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس ، وقد يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة ، أو غير ذلك ، وهو الذى يعرف بأساليب الدعوة .

(ج) أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه ، وهى المعروفة بوسائل الدعوة .

(د) شخصية عاقلة ، عالمة ، تفهم الفكرة المذكورة ، وتصوغها فى صورة حسنة لتصل بها إلى المدعوين ، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم ، وهذه الشخصية هى الدعاة .

(هـ) أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة ، ولضحة ، مقنعة ، بأسلوب مناسب وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم ، وهم المدعوون .

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله ، ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع القواعد وإعداد الدراسات التى يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذى يحدد الإطار لكل هذه الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتتربط وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذى يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة ، وينسق بينها، لتتكامل ، وتحقق للدعوة ما يراد منها ، على وجه صحيح . إن الدعوة فى أمس الحاجة لمعرفة نظريات الاتصال الحديثة ، وكافة الدراسات المتصلة بالنفس والجماعة ، ومختلف الأديان والمذاهب ، لتتم معرفة الإسلام بوعى ، ويتحقق النجاح بأمان ، ويعيش الناس دينهم علماً ، وعملاً . إن هذه الدراسات قد تقدم لغير المتخصصين فى الدعوة ، لكنها تقدم لهم بلون آخر يتفق مع تخصصهم ، وحاجتهم من دين الله تعالى .

إن هذه الدراسات تقدم لغير الدعاة بعيدة عن التحليل الفلسفى ، وخالية من المقارنات الفكرية ، وبلا تركيز على الجدل والحوار ، لأن الدعاة يحتاجون إلى التعمق ، ومعرفة العلوم الحديثة مع تأصيلها بمصادر الإسلام . ، بالقدر الذى يمكنهم من مخاطبة الجماهير العريضة ، ورد الشبه التى تثار بين الحين والحين ، ولذلك كانت حاجتهم إلى التعمق ، وللتحليل ، وربط علوم العصر بعلم الدعوة لأن العصر هو مجال عملهم ، وفيه ، ومعه يكون نجاحهم .

إن صراع اليوم أساسه الفكرة ، وعلى المسلمين أن يعدوا الدعاة مسلحين بالعلم الذى يمكنهم من الانتصار لدينهم ، وسط هذا الصراع الرهيب . وهذه الدراسة عن أصول الدعوة أقدمها فى الإطار الذى أتصوره للدعاة وهو ربط الحديث فى أى قضية بدليلها من القرآن الكريم ، وللسنة النبوية كلما أمكن ، مع بيان اتحاد الأصول فى الأديان جميعاً ، ونسخ الأديان بمجئ الإسلام دين الله الخاتم الذى بعث به محمد ﷺ .

وأملى أن يستفيد الدعاة من هذه الدراسة ، ويعلموا أن الغاية من ورائها أن تظهر فى حركتهم ، وأثناء عملهم مع الناس .

والأمل كله فى الله تعالى الذى أسأله التوفيق ، وللسداد ، ولأرجوه ، ولأن يبارك فيما أملت فيه ولأن يجعل قصى خالصاً له سبحانه وتعالى ، ولأن

(١٣)

يكون سعيى فى الدنيا نوراً بين يدي فى الآخرة ، فى يوم لا ينفع فيه مالٌ . ، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وعلى الله قصد السبيل ، إنه نعم المولى ونعم النصير ،،،

المؤلف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر فى ١/١/ ١٤٢٥ هـ

٢١/٢/ ٢٠٠٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

ويعد ،،

فمنذ أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالإسلام ، وللدعوة إليه أمر لازم وواجب ضروري ، قياماً بالمسئولية ، وأداءً للأمانة ، ونشراً لدين الله بين الناس أجمعين .

وقد قام رسول الله ﷺ بهذا الواجب ، وعلم أصحابه ﷺ القيام به ، وتركوا لمن بعدهم رصيلاً هائلاً ، يستفيدون به في مجال الدعوة إلى الله تعالى . وقد نهض السلف الصالح بهذا الواجب ، فدعوا إلى الإسلام ، وبلغوه للعالم كله ، متحملين الكثير من أجل أمانة الدعوة إلى الله تعالى ، والوصول بالإسلام إلى كل مكان في الوجود .

لقد اتخذ المسلمون -الأول- القرآن- الكريم ، وللسنة النبوية سنداً لهم ، واستفادوا بجهود سلفهم الصالح ، وتتبعوا تجاربهم العملية ، وهم يبلغون دين الله تعالى للناس ، وكانوا ﷺ صورة كاملة للإسلام ، يحيطون به علماً ، ويطبقونه عملاً ، وينشرونه بلاغاً وإرشاداً ، ولم يكتفوا بواجب محدد مع القرآن الكريم ، أو مع السنة الشريفة ، كأن يفسروا ، أو يستخرجوا حكماً عقدياً ، أو فقهيّاً ، أو تنظيمياً ، أو يعملوا فقط ، وإنما استشعروا ﷺ المسئولية بتمامها ، فكان كل واحد منهم دائرة للمعارف الإسلامية تجدهم مفسراً ، ومحدثاً وفقهيّاً ، وأديباً ، ومجاهداً ، وداعياً إلى الله بإنه ، وسراجاً منيراً ، وتلقاه في سائر

المجالات. عاملاً بعلمه ، متمسكاً بالحق وللرشاد .، ملتزماً بكل ما أمر الله به إصلاحاً لنفسه ، ولأهله ، وللناس أجمعين .

ومن هنا بقيت آثارهم جامعة وبارك الله في كل ما تركوه ، من علوم نافعة ، وأعمال مضيئة ، وأخلاق عالية كريمة .

إن من يرجع إلى تاريخ سلف الأمة الإسلامية يرى حياة مليئة بالحيوية ، والقوة ، والعظمة ... تعد مرجعاً للخلف ، ومصدراً من مصادر الهدى . وللرشاد ، في كل مجال ، ومع سائر الفنون .

ولم تدم هذه الصورة الجامعة في شخصية عالم ولحد ، وبخاصة بعد أن تعددت العلوم ، وتنوعت الفنون ، وأصبح العلم الواحد عدداً ، وانقسم التخصص الواحد إلى تخصصات فرعية عديدة .

لقد حتم التوسع الحضارى ، والتقدم العمرانى ، والتعمق العلمى إلى ضرورة أن يتخصص العلماء ليسير كل فريق مع وجهته . ولتعمق كل طائفة فيما اختارت من فروع العلم ، وجزئياته .

وللمسلمين فى التخصص العلمى دليل من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية ، حيث يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

فقد أفادت الآية أنه لا يصح أن يتجه المسلمون جميعاً لعمل ولحد ، ويتركوا ما عداه ، ولو كان هو الجهاد . لأنهم بحاجة إلى كافة الأعمال التى يحتاجون إليها فى مسيرة الحياة .

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

وتشير الآية إلى ضرورة تفرغ طائفة من المسلمين للتفقه في الدين ، وتفهم تعاليم الإسلام ، سواء بقوا في المدينة ، أو خرجوا مع المجاهدين ، ليقوموا بدعوة غيرهم إلى الله تعالى حينما يلتقون بهم ، ونشر تعاليم الله بينهم وبين غيرهم من الناس .

ومن أقواله ﷺ الدالة على التخصص : **أفضاكم على** .

ويقول ﷺ : **أعلمكم بالفرائض زيد** .

ويقول ﷺ : **أقروكم للقرآن أبي** .

وخالد هو سيف الله المسلول وهكذا .

لقد أصبح التخصص ضرورة علمية ، وضرورة حياتية لا بد منها .

أما كونه ضرورة علمية فلحاجة العلوم إلى التعمق والتحليل ، وللمقارنة وأما أنه ضرورة حياتية فلأن حياة الناس ملئت بالحركة ، وانشغل الناس بالدنيا ، ولم يعد مقبولاً أن يقدم لهم كل شئ في وقت واحد ، وإنما المقبول أن يقدم لهم ما يحتاجون- إليه بصورة موجزة ، وواضحة ، في وقته الملائم ، وظروفه المناسبة .

إن على المؤمنين أن يوزعوا أنفسهم على الأنشطة الاجتماعية المختلفة ، فبعضهم يخرج للجهاد ، والقتال ، والبعض الآخر يخرج للتعليم ، وبعضهم يقوم على الإنذار والبلاغ ، وبعض آخر يشرف على القاعدين والضعفاء ، وللباقون يقومون بالتجارة والعمل .

بل إن على الفرقة الواحدة أن توزع أفرادها على أعمال مختلفة في إطار عمل الفرقة كلها ، فالمجاهدون . مثلاً . بعضهم يرمى ، وبعضهم يوزع الأسلحة ، وبعضهم يداوى وبعضهم يطعم ، ويسقى ، وهكذا ، وكان رسول الله ﷺ يكلف بعض أصحابه بالقضاء ، وبعضهم بحمل الرسائل والكتب ، وبعضهم بقيادة

الجيش ، وبعضهم بتولى أمر المدينة أثناء الغزوات . ، وذلك نوع من مراعاة الاستعداد والتخصص .

لقد حتمت هذه الضرورة أن تظهر علوم الدعوة ، خاصة بها . فبعد أن كانت الدعوة تقدم فى إطار علوم الإسلام ، مثل التفسير ، والحديث والفقہ ... وللعقيدة صارت. علماً مستقلاً بموضوعها ، وخصائصها ، وهدفها .

ولجئنا علماء الدعوة فى تأصيل تخصصهم، ولبرازهم فى أطر علمية ، واضحة ، حتى أصبحت أبحاث الدعوة علوماً متعددة ، تتميز عن بعضها ، وصار لكل منها موضوعه ، ومنهجه ، وغايته . وتناولت علوم الدعوة الجانب التطبيقى مع الناحية النظرية ، لشدة صلتها بالناس . ولأهميتها فى إيصال المعارف الإسلامية إلى العقول، وللقلوب ، وتحويلها فى حياة الناس إلى عمل ، وسلوك .

إن أهمية العلوم تكمن فى موضوعها ، ووسيلتها ، وهدفها . وعلوم الدعوة تشرف بكل هذا ، لأن موضوعها هو الإسلام بكماله ، وتامه ، وهدفها نشر المصلحة ، وإسعاد الناس بالإسلام ، ووسيلتها التوجه إلى الناس بما يناسبهم من حكمه ، وموعظة ، وحوار على نحو ما قام به رسول الله ﷺ .

ولعل فى تتبع الدعوة لخطى رسول الله ﷺ فى البلاغ ، والإرشاد خير شاهد على شرف علوم الدعوة ، وعلو هامتها ... وصدق الله تعالى وهو يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .

إن الدعوة إلى الله تعالى تعتمد على سائر العلوم الإسلامية، وتتحرك بها وتحولها في الناس، حياة للقلوب، وعملاً في الجوارح، وخلقاً مع السلوك، ولذلك كانت كافة العلوم الإسلامية إعداداً عاماً للدعاة، يحتاجون بعده إلى علوم الدعوة التخصصية لتعينهم على النجاح، وتمكنهم من إيصال هذه العلوم للناس.

إن منهج الدعوة يعد إطاراً يحدد كافة أركان الدعوة، وبخاصة بعدما صار كل ركن منها علماً مستقلاً، يقوم على دراسات عديدة، تحتاج إليها أركان الدعوة ويمكن إجمال أركان الدعوة، والإشارة إليها في نقاط هي :

(و) مضمون فكرى هو الإسلام بما حوى من عقيدة، وشريعة، وأخلاق وهو الذى يعرف بأصول الدعوة .

(ز) أسلوب يحتوى على الفكرة، ويتحرك بها، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس، وقد يكون الأسلوب قولاً، أو عملاً، أو حالة معبرة، أو غير ذلك، وهو الذى يعرف بأساليب الدعوة .

(ح) أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه، ومحتواه، وهى المعروفة بوسائل الدعوة .

(ط) شخصية عاقلة، عالمة، تفهم الفكرة المذكورة، وتصوغها فى صورة حسنة لتصل بها إلى المدعوين، رجاء إيمانهم، وهدايتهم، وهذه الشخصية هى الدعاة .

(ي) أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة، ولضحة، مقنعة، بأسلوب مناسب وأدوات ملائمة، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم، وهم المدعوون .

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله، ويجب أن يهتم العلماء بها، بوضع القواعد وإعداد الدراسات التى يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية، والنظام العام الذى يحدد الإطار لكل هذه الجوانب، ولكل هذه العلوم لتتربط وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذى يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة ، وينسق بينها، لتتكامل ، وتحقق للدعوة ما يراد منها ، على وجه صحيح إن الدعوة فى أمس الحاجة لمعرفة نظريات الاتصال الحديثة ، وكافة الدراسات المتصلة بالنفس والجماعة ، ومختلف الأديان والمذاهب ، لتتم معرفة الإسلام بوعى ، ويتحقق النجاح بأمان ، ويعيش الناس دينهم علماً ، وعملاً . إن هذه الدراسات قد تقدم لغير المتخصصين فى الدعوة ، لكنها تقدم لهم بلون آخر يتفق مع تخصصهم ، وحاجتهم من دين الله تعالى .

إن هذه الدراسات تقدم لغير الدعاة بعيدة عن التحليل الفلسفى ، وخالية من المقارنات الفكرية ، وبلا تركيز على الجدل والحوار ، لأن الدعاة يحتاجون إلى التعمق ، ومعرفة العلوم الحديثة مع تأصيلها بمصادر الإسلام . ، بالقدر الذى يمكنهم من مخاطبة الجماهير العريضة ، ورد الشبه التى تثار بين الحين والحين ، ولذلك كانت حاجتهم إلى التعمق ، وللتحليل ، وربط علوم العصر بعلوم الدعوة لأن العصر هو مجال عملهم ، وفيه ، ومعه يكون نجاحهم .

إن صراع اليوم أساسه الفكرة ، وعلى المسلمين أن يعدوا الدعاة مسلحين بالعلم الذى يمكنهم من الانتصار لدينهم ، وسط هذا الصراع الرهيب . وهذه الدراسة عن أصول الدعوة أقدمها فى الإطار الذى أتصوره للدعاة وهو ربط الحديث فى أى قضية بدليلها من القرآن الكريم ، وللسنة النبوية كلما أمكن ، مع بيان اتحاد الأصول فى الأديان جميعاً ، ونسخ الأديان بمجئ الإسلام دين الله الخاتم الذى بعث به محمد ﷺ .

وأملى أن يستفيد الدعاة من هذه الدراسة ، ويعلموا أن الغاية من ورائها أن تظهر فى حركتهم ، وأثناء عملهم مع الناس .

والأمل كله فى الله تعالى الذى أسأله التوفيق ، وللسداد ، ولأرجوه ، ولأن يبارك فيما أملت فيه ولن يجعل قصى خالصاً له سبحانه وتعالى ، ولن

(٢٠)

يكون سعيى فى الدنيا نوراً بين يدي فى الآخرة ، فى يوم لا ينفع فيه مالٌ . ، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وعلى الله قصد السبيل ، إنه نعم المولى ونعم النصير ،،،

المؤلف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر فى ١/١/ ١٤٢٥ هـ

٢١/٢/ ٢٠٠٤ م

الفصل الأول تحديد المفاهيم

ويتكون من :

- التمهيد .
- المبحث الأول : التعريف اللغوي للدعوة .
- المبحث الثاني :
- التعريف الاصطلاحي للدعوة الإسلامية
(بمعنى الدين - بمعنى التبليغ)
- المبحث الثالث : المفهوم المراد من كلمة أصل
- المبحث الرابع :
- التعريف الإصطلاحي لأصول الدعوة الإسلامية
(بمعنى الدين - بمعنى التبليغ)

تمهيد :

ينطلق العلم دائماً من تصور ثابت ، وينمو على أسس لا بد من البدء بها ... وقد درج العلماء على هذه القاعدة في كافة العلوم حيث تجدهم يبدأون. دراستهم ببيان المفهوم العام للعلم ، مع تحديد موضوعه ، وبيان هدفه ، ليقفوا. مع المدارس. على الغاية من الدراسة ، وأهميتها ، وخصائصها .

ولعل علوم الدعوة أكثر العلوم حاجة لهذا. التحديد لجديتها ، وشدة صلتها بغيرها من العلوم ، وضرورة تمييزها حتى لا تختلط بغيرها ، وحتى لا يتوه معنى التخصص حينما يغيب هذا التحديد .

إن أصول الدعوة الإسلامية ، مفهوم مركب من ثلاث. كلمات. ، لكل منها معنى خاص. بها ، وثلاثتها يتعاون. في إعطاء معنى لعلم " أصول. المدعوة الإسلامية " ، ومن أجل تحديد المفهوم الاصطلاحي لـ " أصول الدعوة الإسلامية " سآبين بإذن الله تعالى تعريف الدعوة ، والأصل ، والإسلام ، لأنتهى بعد ذلك إلى تعريف للمركب من الكلمات الثلاث ، وهو علم " أصول الدعوة الإسلامية " ولذلك سيأتى هذا الفصل مكوناً من المباحث التالية :

- **المبحث الأول :** التعريف اللغوي للدعوة .
- **المبحث الثاني :** التعريف الاصطلاحي للدعوة بمعنى الدين .
- **المبحث الثالث :** التعريف الاصطلاحي للدعوة بمعنى التبليغ .
- **المبحث الرابع :** المفهوم المراد من كلمة " أصل " .
- **المبحث الخامس :**

تحديد المفهوم الاصطلاحي لعلم " أصول الدعوة الإسلامية " .

المبحث الأول

التعريف اللغوي للدعوة

للدعوة معان عديدة في لغة العرب ، وقد ذكرها العلماء تمهيداً لبيان معنى الدعوة ، وأصولها ، ومنهجها ، وهكذا وذلك لأن المعانى اللغوية أساس. تقوم عليه المفاهيم الاصطلاحية ، ومن هنا سأورد بمشيئة الله تعالى أهم المعانى اللغوية لكلمة الدعوة لنتمكن من تعريف الدعوة اصطلاحاً ، ونقف بعد ذلك على معنى ما يتصل بالدعوة من معارف ، وعلوم ، ومنها أصول الدعوة .

جاء فى معجم مقاييس اللغة : أن الدال ، والعين ، وللحرف المعتل أصل واحد .

ومعناه أن تميل الشئ إليك بصوت ، وكلام يكون منك ، أو بغير ذلك ، تقول دعوت أدعو دعاء ، قمت بمحاولة الإمالة .

والدَّعوة إلى الطعام تكون بالفتح ، والدَّعوة إلى النسب بالكسر ، ومنه داعية اللبن ، وهو ما يترك فى الضرع ليطلب ما بعده ، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد ، وآخر بعده ، فكأن الأول يدعو الثانى .

ودواعى الدهر صروفه ، لأنها تأتى متعاقبة ، وكأن الأول يدعو الثانى فيميله ... وهكذا^(١) .

وجاء فى المصباح المنير : دعوت الله أدعو دعاء ، ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤمن الناس إلى الصلاة فهو داعى الله ، والجمع دعاة وداعون ، وللنبي داعى الخلق إلى التوحيد^(٢) .

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة "دعا" ج٢ ص٢٣٩

(٢) المصباح المنير ، مادة "دعا" .

وجاء في أساس البلاغة : ودعوت فلانا ناديته ، والنبي داعى الله . وهم دعاة الحق ، ودعاة الباطل ، ودعاة الضلال^(١).

ويفهم مما ذكر أن الدعوة تعنى فى اللغة إمالة شئ لشيئ . وربطه به ، مادياً كان الربط أو معنوياً ، يتم بجهد أو بطريقة تلقائية .

وجاء فى لسان العرب : الدعوة المرة الواحدة من الدعاء . ومنه الحديث : فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، أى تحوطهم ، وتكتنفهم ، وتحفظهم .
والدعاء : واحد الأدعية ، وأصله دعو ، لأنه من دعوت ، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت .

وتقول للمرأة : أنت تدعين ، وفيه لغة ثانية : أنت تدعوين ، وفيه لغة ثالثة أنت تدعين ، بإشمام العين الضمة ، والجماعة أنتن تدعون ، مثل الرجال سواء ، قال ابن برى : قوله فى اللغة الثانية أنت تدعوين لغة غير معروفة ، أى شاذة .

والدعاء : الأنملة يدعى بها . كقولهم السبابة . كأنها هى التى تدعو ، كما أن السبابة هى التى ترفع حين المخاصمة كأنها تسب .
وقوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾^(٢) أى الإسلام لله .

قال الزجاج : جاء فى التفسير أنها شهادة أن لا إله إلا الله . وجائز أن يكون المراد من دعوة الحق دعاء العبد لله خاصة . لأن من دعا الله موحداً استجيب له دعائه .

وفى كتابه ﷺ إلى هرقل : أدعوك بدعاية الإسلام^(٣) . أى بدعوته . وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة ، وفى رواية : بدعاية الإسلام

(١) أساس البلاغة ، مادة " دعا "

(٢) سورة الرعد الآية ١٤ .

(٣) صحيح مسلم ك الجهاد باب كتاب النبى بدعوة الإسلام جـ ص ١٦٥

(٢٦)

وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة .

ومنه حديث عمير بن أفصى : ليس فى الخيل داعية لعامل ، أى لادعوى لعامل الزكاة فيها ، ولا حق يدعو إلى قضائه ، لأنها لا تجب فيها الزكاة .
ودعا الرجل دعواً ودعاءً : ناداه . وللاسـم الدعوة . ودعوتـه فلاناً أى صحت به واستدعيته .

وكان عمر بن الخطاب ؓ ، يقدم الناس فى أعطياتهم على سابقتهم ، فإذا انتهت الدعوة إليه كبر ، أى وصله النداء والتسمية ، وتداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا .

ودعاه إلى الأمير : ساقه ، وقوله تعالى : ﴿ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾^(١) أى منادياً لدين الله ، و داعياً إلى توحيد الله ، وما يقرب منه ، ودعاه الماء والكلاء كذلك على المثل ، والعرب تقول : دعانا غيث وقع ببلد فأمرع ، أى كان ذلك سبباً لانتجاعنا إياه .

والدعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ، ولحدهم داع ، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة .
والنبي ﷺ داعى الله تعالى ، وكذلك المؤذن ، وفى التهذيب : المؤذن داعى الله ، والنبي ﷺ داعى الأمة إلى توحيد الله وطاعته ، قال الله عز وجل مخبراً عن الجن الذين استمعوا القرآن حين ﴿ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾^(٢) قالوا ما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ يَنْقَوْمَتَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾^(٣) .

ويقال لكل من مات : دعى فأجاب ، ويقال : دعانى إلى الإحسان إليك

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .

إحسانك إلى ، وفي الحديث : الخلافة في قريش ، وللحكم في الأنصار . ،
والدعوة في الحبشة ، أراد بالدعوة الأذان ، جعله فيهم تفضيلاً لمؤذنه بلال .

والداعية : صريخ الخيل في الحروب .، لدعائه من يستصرخه . يقال :
أجيبوا داعية الخيل

وداعية اللب : ما يترك في الضرع ، ليدعو ما بعده . ودعى في المزرع :
أبقى فيه داعية اللب (١) .

وقد وردت كلمة الدعوة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ، ومعانٍ متعددة
كذلك ، فقد جاءت فعلاً ماضياً :

. يقول الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ (٢) .

. ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ (٣) .

. ويقول سبحانه : ﴿ وَتَحِيزُ الْجِبَالُ مَثَاجِدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (٤) .

. ويقول سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ (٥) .

. ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ

فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي ﴾ (٦) .

وجاءت فعلاً مضارعاً :

. يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

(١) لسان العرب مادة " دعا "

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٨

(٣) سورة فصلت الآية ٣٣

(٤) سورة مريم الآية ٩١

(٥) سورة نوح الآية ٥

(٦) سورة إبراهيم الآية ٢٢

أَتَّبِعْنِي ^ط وَسُبِّحْنَ اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ .

. ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿٢﴾ .

. ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ ﴿٣﴾ .

وجاء فعل أمر :

. يقول الله تعالى : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^ط

وَجِدْ لَهُم بِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿٤﴾ .

. ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿٥﴾ .

وجاءت مصدرًا :

. يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ ﴿٦﴾ .

. ويقول سبحانه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا

فِي الْآخِرَةِ ﴾ ﴿٧﴾ .

وبالنظر في دلالات اللغة ، وللفاظ القرآن الكريم نرى أن معاني الدعوة اللغوية تنحصر في بذل محاولات حسية ، أو معنوية ، لربط شئ بشئ ، وإلحاق أمر بأمر ، لتحقيق غاية ، في خير أو في شر ، تساوى الطرفين أو لم يتساويا ، ولا فرق أن يتم هذا الإلحاق بجهد ، أو بصورة تلقائية .

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨

(٢) سورة الجن الآية ١٨

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٤

(٤) سورة النحل الآية ١٢٥

(٥) سورة غافر الآية ٦٠

(٦) سورة الرعد الآية ١٤

(٧) سورة غافر الآية ٤٣

فتداعى الأحداث ، والأفكار . ، وللمعاني جزئيات. تترايط ، ودعوة النسب إلهاق الفرع بأصله ، وداعية اللبى وللتوالد جذب. يقوم به الموجود. لما سىوجد بعده ، والدعوة إلى الدين ربط العابد بالمعبود ، وإلهاق الناس. بدين الله تعالى ... والاستغاثة ، والطلب ، والرجاء تعنى تعلق العبد بالرب ليحقق له ما يتمنى ، ويرجو ... وفى كل هذا المعنوى والمحسوس ، والقائم على جهد وتعب ، وللذى يحدث بصورة تلقائية عادية .

وللدعوة حين تطلق فى الإطار. العلمى والعملى تنصرف. إلى المدعوة الإسلامية وهى المصطلح الذى يحتاج إلى تعريف لأنه أساس الدراسة وللبحث فى علم أصول الدعوة .

المبحث الثانى

المعنى الاصطلاحى للدعوة

حينما نرجع إلى دلالات. اللغة ، وألفاظ القرآن. الكريم ، وكلمات. السنة النبوية ولستعمالات. العلماء. لمصطلح الدعوة الإسلامية ، نرى. أنها تأخذ مسارين مختلفين وهما :

المسار الأول :

يعنى هذا. المسار. أن. الدعوة الإسلامية هي الإسلام .، دين الله تعالى بما حوى من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق .

يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾^(١) .

أى لله دينه ، وهو الإسلام .

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾^(٢)

أى تعبدون .

فالدعوة هي العبادة ، والعبادة هي الدين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾^(٣) يقول. مجاهد أى. يصلون. المصلوات. خضوعاً،

واستسلاماً لله تعالى^(٤) .

(١) سورة الرعد الآية ١٤

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٤

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) تفسير مجاهد

(٣١)

ويقول النبي ﷺ : أدعوك بدعاية الإسلام^(١) ، أى لدينه ... ويقول ﷺ :
الدعاء هو العبادة^(٢) .

ومن استعمالات الناس قولهم ... أمنت بالدعوة ، أى صدقت بدين الله تعالى .

المسار الثانى :

يعنى هذا المسار أن الدعوة الإسلامية ، هى طرق تبليغ الإسلام ، ونشره بين الناس ، والتذكير به ، والدفاع عنه ، وللعمل على أن يكون منهج الحياة لكافة الأفراد وسائر المجتمعات يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾^(٣) أى بلغ وأرشد .

ويقول سبحانه : ﴿ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾^(٤) أى مبلغ الدين ، وحامله للناس ومن استعمالات الناس قولهم : أنا من رجال الدعوة ، أى من الدعوة الذين يحملون الإسلام ، ويبلغونه للناس .
و المسار الثانى هو الوعاء الحامل للمسار الأول ، وللغاية من المسار الثانى خدمة الإسلام ، وتبليغه للناس .

ويلاحظ أن بين المسار الأول ، والمسار الثانى ترابط من جهة ملازمة كل منهما للإسلام ، واتباع تعاليمه ... ويختلفان فيما عدا هذا ، لأن المسار الثانى عملية توجيهية فنية ، تحمل الفكرة ، وتوصلها لأناس يحتاجون إليها على وجه مقبول ، ومفهوم ، لتكون دستور العمل ، ومنهج الحركة ... بينما المسار الأول

(١) صحيح مسلم ك الجهاد باب كتب النبي ج ٥ ص ١٦٥

(٢) فيض القدير ج ٣ ص ٥٤٠ وأسنده إلى الترمذى وقال حسن صحيح

(٣) سورة فصلت الآية ٣٣

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٠

(٣٢)

هو الفكرة نفسها ، وهو المنهج ، وهو الدستور ويختلفان. كذلك في مناط
مسئولية الناس إزاءهما ، فالمسار .الأول. مسئولية كل إنسان. عاقل مكلف
والمسار الثانى مسئولية أولى الأمر والخاصة .، وكل قادر. على القيام به ، أو
المساهمة فى القيام به .. فالمسار الأول واجب عيني ، والمسار الثانى ولجب
على الكفاية .

وعلى هذا فإن الدعوة تعرف بتعريفين اصطلاحيين ، تبعاً للمراد بها :

التعريف الأول

الدعوة بمعنى الإسلام

يمكن وضع تعاريف متعددة للدعوة الإسلامية ، بمعنى الإسلام نذكر منها :

- ١ . الدعوة الإسلامية : هي الخضوع لله ، والانقياد لتعاليمه بلا قيد ، ولا شرط ، ومن المعلوم أن الانقياد لله دليل الخضوع له ، ولذا اشترط العلماء في هذا الخضوع الاختيار الحر ليتحقق الانقياد والاستسلام .
 - ٢ . الدعوة الإسلامية : هي الدين الذى ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ ، وحفظها فى القرآن الكريم ، وبينها فى السنة النبوية .
 - ٣ . الدعوة الإسلامية : هي النظام العام وللقانون. الشامل لأمر. الحياة ، ومناهج السلوك التى جاء بها محمد ﷺ وحياً من ربه ، وأمره الله بتبليغها إلى الناس ، وبيان ما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب فى الآخرة .
 - ٤ . الدعوة الإسلامية : هي الصراط المستقيم الذى أنزله الله تعالى لتحقيق السعادة للناس فى الدنيا والآخرة .
 - ٥ . الدعوة الإسلامية : هي الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، وختم به سائر الأديان .
- وهذه التعاريف ليست متعارضة ، بل إنها تتعاون فى إعطاء صورة الإسلام الذى هو الدعوة الإسلامية ويمكن لكل مسلم فاهم أن يضع تعريفاً للدعوة الإسلامية اعتماداً على تصوره المستمد من المصادر الإسلامية .
- والإسلام بهذه التعاريف ، وبغيرها يتكون من أصول ، وفروع كأي دين

أو مذهب ، لأن الأصل هو أساس الشئ ، ومبدؤه ، ولا بد منه لتحقيق الدين ووجوده ، أما الفرع فهو جزئيات تؤكد الأصل ، وتدلل عليه ، وليس للفرع أهمية فى الدين كالأصل ، ولكل منهما دوره ، وحكمه فى شرع الله تعالى .

وتتفق أصول الدعوة الإسلامية مع أصول سائر الدعوات الإلهية السابقة يقول الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .
ويقول تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

ففى هذه الآيات يوضح الله تعالى أن الدين الذى شرعه ، وأنزله وحياً

(١) سورة الشورى الآية ١٣

(٢) سورة النساء الآية ١٦٣

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٤) سورة آل عمران الآية ٨٤

على رسوله محمد ﷺ هو نفسه الدين الموحى به إلى الأنبياء السابقين ، والآيتين الأخيرتان. تتضمنان. أمراً. وإخباراً. بأن. على المسلمين أن. يؤمنوا. بما آمن به السابقون .

يذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره أن الآيات التى تدل على التباين بين الرسالات كما فى قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ ﴾^(١) تشير إلى الفروع الخاصة بكل دين ، أما الآيات. التى تدل على عدم التباين فهى تتعلق بالأصول فقط^(٢).

ومن الواضح أن الأصول الواحدة فى سائر الأديان. هى التوحيد ، ولإثبات الرسالة ، ولإيمان. بالملائكة ، وللكتب المنزلة ، ولإثبات. البعث ، ولأصول العبادات ، ومكارم الأخلاق ... وأن الفروع هى الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة .

إن الإسلام يحتم تعانق العقيدة وللشريعة ، بحيث لا. تنفرد. إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلاً يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة ، فمن آمن بالعقيدة ولغى الشريعة ، أو. أخذ الشريعة وأهدر العقيدة لا يكون مسلماً عند الله ، ولا سالكاً فى حكم الإسلام طريق النجاة. ولا بد للعقيدة وللشريعة من أخلاق. تبرزهما فى صورتها الحسنة ، الجميلة تحقيقاً للسعادة ، والأمان .

(١) سورة المائدة الآية ٤٨

(٢) تفسير الرازى ج ٣ ص ٦٠٨ ط . الحلبي

التعريف الثانى

الدعوة بمعنى النشر والبلاغ

إن عملية تبليغ الإسلام تحتاج إلى جملة من العناصر التى لا بد منها لتم على الوجه المطلوب ، وتحقق الغايات المقصودة منها .
فلا بد لها من جهود تبذل ، قائمة على أدلة الإقناع ، وقادرة على إثارة داعية النظر ، والتفكير .

ولا بد لها من طرف يقوم بها سواء كان فرداً ، أو جماعة ... أو غير ذلك .
ولا بد لها من التجديد ، لتستفيد من مخترعات العصر ، وتطورات المدنية فى إطار المبادئ الإسلامية .

ولا بد فيها من التنوع ، لتتلاءم الدعوة مع تنوع الناس الذين تتوجه إليهم .
ولا بد لها من الارتباط بمبادئ الإسلام ، وتوجيهاته فى مجال التبليغ والإرشاد وبمراعاة هذه الضرورات. يمكن أن نضع تعريفاً للدعوة بمعنى النشر والبلاغ يكون جامعاً مانعاً فنقول :

الدعوة الإسلامية هي :

" العلم الذى به تعرف أسس وتطبيقات كافة العمليات الفنية ، المتنوعة ،
القادرة على تبليغ الإسلام للناس على الوجه المشروع " .
وبالنظر فى هذا التعريف نلاحظ فيه ما يلى :

أولاً : الدعوة بمعنى النشر علم مستقل له موضوعه ، وخصائصه ، وهدفه

ثانياً : يتضمن هذا العلم الأسس ، والمبادئ النظرية للدعوة ، كما يحدد الطرق العملية للتبليغ ، والإرشاد .

ثالثاً : يتضمن هذا العلم كافة العمليات التى يستفاد بها فى التبليغ سواء

كانت قولاً ، أو فعلاً ، أو حالاً ، أو صورة ، أو غير ذلك .

رابعاً : يشير التعريف إلى أن هذه العمليات تعتمد على فنية التأثير ، وبلاغة الخطاب ، لإيصال الإسلام إلى كافة الناس كاملاً ، تاماً .

خامساً : يتضمن هذا التعريف ضرورة تنوع عمليات التبليغ لتناسب الناس جميعاً ، وتلتقى مع كل منهم حيث تتجه إلى العقل ، وإلى العاطفة ، وإلى الوجدان **سادساً** : يحدد التعريف هدف علم الدعوة بأنه تبليغ الإسلام للناس . مع المحافظة على الأسس الشرعية ، وتجنب كل ما يتعارض مع هذه المشروعية .

وعلى هذا فإن المفهوم الإصطلاحي للدعوة الإسلامية بمعنى التبليغ تشمل كل ما يمكن تصوره طرفاً **للدعوة والبلاغ** ... مثل الخطبة ، وللندوة والمحاضرة والصحيفة والإذاعة ، والملصقات ، والكتاب ، والرسائل الهاتفية والبريدية كما يشمل الدراسات المتصلة بتكوين الداعية ، وحركته في التبليغ ، ومدى إحاطته بالدعوة ، وصلته بالله تعالى .

وتتضمن كذلك معرفة الصور الفنية للأسلوب المؤثر المفيد ، الذي يتلاءم مع المدعوين ، بعد التعرف عليهم ومخاطبتهم بما يناسب أحوالهم ، وواقعهم . ويشتمل على الدراسات التي تمكن الدعاة من معرفة من توجه إليهم الدعوة من ناحية مذاهبهم ، وثقافتهم ، واتجاهاتهم العامة وللخاصة ، وعاداتهم وكافة المؤثرات في حياتهم ليتم التعامل معهم بذكاء ، ودعوتهم بما يؤدي إلى المنفع ، والفلاح .

وبهذا يلاحظ أن تبليغ الدعوة ، يقوم على أركان عدة . يتضمنها ما جاء في التعريف من أنه يشمل " كافة العمليات " . ولذا ما استقل كل ركن بالدراسة وصار علماً مستقلاً (وهو ما يجب أن يكون) . فإن التعريف ينطبق على كل ركن منها ، بعد قصر التعريف على عمليات هذا الركن ليكون دالاً عليه . لأن قولنا في التعريف " كافة العمليات " . شامل لكل أركان البلاغ وللتوجيه ، وقد

يحتاج التعريف إلى تغيير في بعض عبارته ليتفق مع ما سبق له ، وبذلك تكون
تعريف العلوم ، الدعوية كالاتى :

١ . **تعريف العلم المتصل بالدعاة** : هو العلم الذى تعرف به عملية تكوين
الدعاة ليبلغوا الإسلام للناس، بكافة الوسائل، والأساليب، الفنية، على الوجه
المشروع والإحاطة بسيرهم ، وأخبارهم فى الماضى ، والحاضر .

٢ . **تعريف العلم المتصل بالوسائل** : هو العلم الذى تعرف به كافة الطرق
التي يبلغ بها الإسلام قديمة ، وحديثة ، على الوجه المشروع .

٣ . **تعريف العلم المتصل بالأساليب** : هو العلم الذى تعرف به الأساليب الفنية
، المتنوعة ، القادرة على إيصال الإسلام للناس ، على الوجه المشروع .

٤ . **العلم المتصل بالمدعويين** : هو العلم المتصل بمعرفة من يوجه إليهم
الإسلام للتأثير فيهم ، وإقناعهم على الوجه المشروع .

٥ . **العلم المتصل بتاريخ الدعوة** : هو العلم الذى يبحث فى الوقائع ،
والأحداث . ، وللمناقشات. التي حدثت فى الأمم حين دعوتهم . وللوقوف
على العبر ، والدروس المستفادة من هذه الوقائع .

وهناك دراسات. عديدة يحتاجها العاملون- للدعوة يجب الموقف عليها ،
ودراستها مع التركيز على مناط الاستفادة منها فى حركة الدعوة .، مثل علوم
الأعلام ، والسياسة ، والنفوس ، والاجتماع ، والخدمة الاجتماعية .

وهذه التعاريف ، كل فى موضوعها ، تعد تعاريف جامعة . كما أن ربطها
بالتزام المبادئ الإسلامية يجعلها مانعة من إدخال غيرها فيها .

وقد يقال : إن هذا تشقيق مبالغ فيه ، أو تجزئة لما لا يقبل التجزئة .

وأقول : الأمر ليس بهذا التصور ، ولا مبالغة فيه البتة ، فإذا. نشط علماء
الدعوة فى البحث والدراسة ، واهتموا بصنع أبحاثهم بما استجد من نظريات علوم
الاتصال ، والسياسة ، والنفوس ، والاجتماع ، والمجتمع ، والخدمة الاجتماعية ،

فإنهم سيصلون بإذن الله إلى إظهار علوم الدعوة المذكورة في صورة كاملة ،
يسلم بها الجميع ، ويستفيدون بها .

ونحن في هذا التصور لعلوم الدعوة نتبع عمل من سبقنا من العلماء الكرام ،
فعلماء التفسير مثلاً جعلوا من التفسير علوماً متعددة مثل التفسير التحليلي ،
والتفسير الموضوعي ، والتفسير الإجمالي ، والتفسير اللغوي ، وللتفسير الفقهي ،
والتفسير العقدي ، ومناهج المفسرين ، وتاريخ التفسير . وللتفسير المقارن .
والدخيل ... إلخ .

وعلماء الحديث قديماً وحديثاً أبدعوا في علوم الحديث فظهر علم الحديث
رواية ، وعلم الحديث دراية ، ومناهج المحدثين ، وطبقات المحدثين ، والمؤتلف
والمختلف ... إلخ .

وعلماء العقيدة ، أوجدوا علم الفرق .، وللملأ .، وللمذاهب المعاصرة وعلم
الكلام ... والفلسفة القديمة ، والحديثة ... وغيرها .

وغير هؤلاء من المتخصصين في العلوم النظرية والتجريبية . كونوا
باجتهادهم وبحوثهم علوماً عديدة للتخصص الواحد ... مما يدفعنا إلى الأمل ،
وبيت فينا الاطمئنان لما نتمناه لعلوم الدعوة من تعمق ، وازدهار .

ولعلها لمسة رقيقة أمام عزائم علماء الدعوة . ليضاعفوا العمل . ويوحدوا
الهمم حتى تصير علوم الدعوة مؤلفات ، ومراجع أمام الدارسين ، والدعاة .

المبحث الثالث

المفهوم المراد من كلمة أصول

الأصول. جمع أصل ولأصل أساس. كل شئ . ومبدؤه . ولايد منه فى وجود هذا الشئ ، ولا يتصور عاقل قيام أمر ما إلا على أصل له . ولذلك شبه الله تعالى الكلمة الطيبة بشجرة طيبة . مثمرة . يراها من ينظر إليها يانعة ، مزهرة ، لقيامها على أصلها الثابت فى باطن الأرض ، أما الشجرة الخبيثة التى لا أصل لها فإنها تنقطع . ولا تدوم . ولا تفيد . لأنه لا أصل لها يقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ومن الآيات. ندرك. أن. هذه الشجرة اليانعة المثمرة تبدو فروعها ، وأوراقها ، وثمارها ، يانعة جميلة لأنها تعتمد على أساس متين ، هو أصلها المخبوء فى الأرض . وهو الذى يمددها بالنماء. وهو سبب وجودها ، وبقائها ، أما الخبيثة فإنها تتخلع من الأرض ، وتسقط حيث لا جذور لها ، ولا أصل ترتبط به .

جاء فى لسان العرب أن الأصل أسفل كل شئ ، يقال : استأصلت الشجرة أى. ثبت أصلها ويقال. أصّل المشئ أى. قتله علماً حتى وصل لأساسه ، وأصله ورجل أصيل أى. له أصل متين . وعقل ثابت . وفكر راجح ... ورأى أصيل أى له أصل يعتمد عليه ، ويقوم به^(٢) .

(١) سورة إبراهيم الآيات من ٢٤ إلى ٢٦

(٢) لسان العرب ، مادة "أصل" ج١ ص٨٩ طدار المعارف

ومن هذا المعنى اللغوي نرى الصلة بين علمى الفقه ، وأصول الفقه ، حيث يعتمد الفقه على أصوله ، وتتخذ الأحكام التكليفية ، العملية من الأدلة الأصولية ولا تستقيم الأحكام إلا بهذه الأصول ، ولا يعتد بها شرعاً ، إلا إذا بنيت على أسس الدين ، ومبادئه .

يقول الرهاوى : والأصل فى اللغة ما يبنى عليه الشئ ، ويكون أساساً لهذا الشئ ، وللأصل عند الأصوليين معان كثيرة ... فقد قالوا : الأصل هو القاعدة الكلية ، وهو الدليل ، وهو الحقيقة ، وهو العلة ، وحجتهم فى هذا أن القاعدة الكلية تبنى عليها الفروع الجزئية ، والدليل أساس للحكم المدلول عليه ، والحقيقة أساس للمجاز ، والعلة أساس للمطول .

وأكد العلماء رأيهم هذا بأن الصلة بين الأساس وما قام عليه تكون حسية كابتناء السقف على الجدار ، وتكون معنوية كابتناء الحكم على الدليل ، وتكون جامعة للحسى والعقلى معاً كابتناء الفكرة على النص ، واستنباط الحكم بالاستقراء التجريبي^(١) .

وجاء فى المنجد أن الأصل هو أسفل الشئ ، وبدايته ، والوالد أصل لولده ويراد بأصل الإنسان حسبه ونسبه^(٢) .

ويرى علماء اللغة أن الأصل وللأساس- بمعنى واحد ولذلك يقولون- : الأساس هو الأصل لكل شئ ، يقال : أساس البناء أى قاعدته ، وأصله الذى يقوم عليه .

كما قالوا : الأصل هو الأساس ، يقول ابن منظور- : الأساس أصل كل شئ ، وأس الإنسان قلبه ، لأنه أصل الصلاح والهدى ، وهو أول ما يتكون

(١)- حاشية يحي المهرلوى المصرى- على شرح المنار- ج ١ ص ١٩ ط دار- سعادت- سنة

١٩١٥م

(٢) المنجد مادة أصل ص ١٠

في الرحم^(١) .

وقد يكون للأصل أصل آخر يسبقه ، . وحينئذ يكون الأصل الثاني فرع للأول ، وأصل لما بعده ، كالوحي فإن أصله من الله ، والوحي أصل للدين كله والتوحيد أصل للأركان بعده ، والأركان أصل للفروع .

ويلاحظ أن كلمة "الأصل" مفردة أو جمعاً لا بد لها من أن تأتي مضافة إلى ما يبتنى عليها ، لتكوّن جملة مفيدة ، وتؤدي معنى مقصوداً ، . كما يقال أصول المفقّة وأصل البناء ، . وأصل الفكرة وهكذا ، . ومنه قولنا "أصول الدعوة" والمراد به أساس الدعوة ، وقاعدتها التي تنبنى عليها فروع الإسلام من شريعة ، وخلق ، ونظم ، وحياة .

وبهذا فالأصول هي العقيدة ، والفروع هي التشريعة ، والأخلاق ، . وسائر الأحكام الفقهية المنظمة لكافة جوانب الحياة .

ويمكن اعتبار الأسس التي يقوم عليها تبليغ الإسلام ، وإيصاله إلى الناس أصولاً لذلك ... لأن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ، والنطق بها ، والعمل بمقتضاها ، . كمسائل التوحيد ، . وللصفات ، . وللقدرة ، . وللنبوة ، . والمعاد وإما أن تكون أدلة بيان هذه المسائل ، وإثباتها .

وقد وضع النبي ﷺ ، القسمين ، وبينهما بياناً شافياً ، قاطعاً للعدر ، وجاءه الوحي بهما ، فبلغ الإسلام كله ، وتركه في الناس حجة ، وبرهاناً ، وأودعه فيما أوحى إليه ، ليبقى في العالمين إلى يوم القيامة ، . وصدق الله تعالى في قوله ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٢) .

(١) لسان العرب مادة "أس" ج ١ ص ٧٨

(٢) سورة الجمعة الآية ٢

المبحث الرابع التعريف الاصطلاحي

لعلم " أصول الدعوة الإسلامية "

سبق أن ذكرت أن الدعوة الإسلامية تفيد من الناحية الاصطلاحية إحدى معنيين هما :

الأول : الدعوة بمعنى الإسلام ، دين الله تعالى .

الثاني : الدعوة بمعنى تبليغ الإسلام .

وعرفت كلاً منهما ، وبينت ما بينهما من اتفاق ، ولخلاف . ووضحت معنى " الأصل " وذلك كله لنقف على تعريف لعلم " أصول الدعوة الإسلامية " .
وحيث أن لكل معنى من معنيي الدعوة المذكورين أصولاً ، وأساساً ، فإننا نحتاج إلى تحديد تعريف لأصول كلا المعنيين ، لتمييز كل منهما عن الثاني ، وبخاصة أنهما صارا علمين على علمين من علوم الدعوة إلى الله تعالى .

التعريف الأول

التعريف الاصطلاحي

لعلم " أصول الدعوة الإسلامية "

بمعنى الإسلام

يراد. بمعنى علم أصول. الدعوة الإسلامية حين يراد. بالدعوة الإسلامية الإسلام بيان القواعد الأساسية التي تتبنى عليها فروع الدين ، وجزئياته .
ومن الضروري أن تكون هذه القواعد متمكنة في قلب المؤمن ، وسابقة على ما عداها عنده .

ولابد من وجودها المستمر ليصبح وجود ما يبتنى عليها قائماً ، لأن ذهابها ذهاب لما أتت به ، وبقاءها دعامة ضرورية لما يتبعها .

ولابد لهذه القواعد من شواهد تؤيدها ، وأعمال تؤكدتها ، وتدل على وجودها

يقول الرهاوى : " وأصول الدين هي العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية " (١) .

ومن هنا يمكن تعريف " علم أصول الدعوة " حين يراد بالدعوة المدين الإسلامي بأنه : العلم الذي يحدد الأسس الشرعية الاعتقادية ، الثابتة بأدلتها القطعية التي يجب الإيمان بها ، مع ربط هذه الأسس بما ينبى عليها من أعمال شرعها الله تعالى .

وهذا التعريف يقوم على العناصر التالية :

- ١ . أصول الدعوة علم متميز بموضوعه ، وخصائص تفهيمه ، ووضوح هدفه ، لأن موضوعه هو أركان الإيمان التي تقوم على التصديق المقلبي والإيمان العقلي ، ولتفهيمه طرق فنية تحدد ما يجب تعلمه ، وما يجوز ، وما لا يجوز وهدفه إيمان الناس واقتناعهم بدين الله تعالى .
- ٢ . أسس العلم ، وأصوله هي أركان الإيمان القائمة على التصديق الباطني الثابتة بدليل قطعي .
- ٣ . أسس هذا العلم ترتبط بما يدل عليها قولاً وعملاً ، ولذا كان الإيمان هو التصديق بالقلب ، والشهادة باللسان ، والعمل بالجوارح ، وعلماء أهل السنة مجمعون على أن الإيمان يتكون من هذه العناصر الثلاثة فمن أقر بلسانه ، وعمل بجوارحه ، بلا تصديق القلب لا يكون مؤمناً ، ولذلك كان الإيمان هو مجموع الثلاثة .

(١) شرح المنار وحواشيه ، حاشية الرهاوى ص ٢٠ .

٤ . الأسس الاعتقادية التي يتضمنها علم أصول الدعوة لا يبد من ثبوتها بأدلة شرعية قطعية ، يقينية .

٥ . يدل هذا التعريف على أن أركان الإيمان مرتبطة بفروع الإسلام ، ولا بد من الفروع مع الأصول . لأن الفروع تشهد للأصول . وتدل عليها . كما أن الأصول المتينة تحقق تمام البناء ، وكماله .

و حين ننظر في الإسلام نرى أنه يتكون من العقيدة المشتملة على أركان الدين ، ومن الشريعة التي تعد فروعاً للإسلام ، مرتبطة به ، ومن الأخلاق التي تعد تحسيناً للعقيدة ، والشريعة ، وهي فروع لهما معاً .

وأركان العقيدة هي :

١ . الإيمان بالله تعالى ، وبكل كمال يليق به ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن كل نقص ، وتصديق ما جاء في القرآن الكريم ، والسنة النبوية من أسماء الله وصفاته ، وأفعاله ، بلا تأويل ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل .

٢ . الإيمان بالملائكة كما جاء الوحي بهم . وعرفهم لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لمن جاء ذكرهم مجملاً ، وعلى وجه التفصيل لمن فصل القرآن عنهم من ناحية الأسماء ، والأعمال والعدد .

٣ . الإيمان بالكتب المنزلة على رسله ﷺ على وجه الإجمال . مع الإيمان التفصيلي بما فصل القرآن الكريم عنهم .

٤ . الإيمان برسول الله الذين أرسلهم لعبادة ، وأنزل عليهم كتبه . ولوحي إليهم والإيمان بالرسول يكون مجملاً في رسل لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى ، ويكون مفصلاً فيمن ذكرهم القرآن الكريم ، وعددهم خمسة وعشرون رسولاً

٥ . الإيمان بيوم القيامة بكل مشاهدته ، وصوره بدءاً من البعث حتى دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

٦ . الإيمان بالقدر خيره ، وشره ، حلوه ، ومره ، وهذا الإيمان يكون متصلاً بالركن الأول ، وهو الإيمان بالله ، لأن القضاء ، والقدر في الكون يجريه الله تعالى وفق علمه ، وإرادته ، وتبعاً لحكمة يراها سبحانه وتعالى .
 إن الإيمان بالله تعالى : يقوم على أدلة الشرع التي يخاطب بها العقل الذي لا بد له من الاقتناع ، واليقين ، ويسمى العلماء هذا الركن بـ " الإلهيات " وبقية الأركان تعتمد على ما جاء الوحي به ، وأدلتها ثابتة قطعية ، ويسمونها العلماء بـ " السمعيات " .

يورد الرازي في تفسيره بعض المواقف المؤكدة لوجود الله تعالى ، وثبوت قدرته ، وتحكمه في الكون كله ، وهي أدلة عقلية مأخوذة من آيات الله الكونية فيقول : هجم بعض الكفار ، على أبي حنيفة رضي الله عنه يريدون قتله ، فقال لهم : أجيئوني عن مسألة ، ثم افعلوا معي ما شئتم .
 فقالوا له : هات .

فقال : ما تقولون- في رجل يقول لكم :، إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال ، وقد احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟
 قالوا : هذا شئ لا يقبله العقل .

فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متعهد ، ولا ملاح ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكفافها من غير صانع وحافظ ؟
 فبكوا جميعاً ، وتابوا وقالوا له : صدقت .

وسأل بعض الملاحدة الإمام المشافعي رضي الله عنه عن الدليل على وجود الله تعالى ؟

فقال لهم : ورقة الفرصاد "التوت" طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها واحد عندكم ؟

فقالوا : نعم .

فقال : فتأكلها دودة القر فيخرج منها الإبرسيم ، ويأكلها النحل فيخرج منها العسل ، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الطباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك ، وأسلموا^(١) .

والقرآن الكريم يقدم عديداً من الآيات الكونية ، ويبرز. ولقها شاهداً على وجود الله تعالى ، ودافعاً للإنسان لكى يراها ، وإليك بعضها :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .
ويقول تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣١ ط الحلبي

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٤

(٣) سورة الذاريات الآية ٢١

(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٠

ويقول تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٢﴾ يَخْرُجُ

مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٣﴾ (١) .

وأصول الإسلام المذكورة هي أساس الدين ، ولابد معها من التصديق المتام ، واليقين الكامل ليظهر الإيمان في اللسان. نطقاً ، وفي الجوارح عملاً ، وفي كل جوانب الحياة خلقاً وسلوكاً ... لأن الإسلام كل متكامل يقوم بأجزائه جميعاً يروى البخارى بسنده عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل ، وقال له ما الإيمان ؟

قال ﷺ : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث .

فقال جبريل ؑ : ما الإسلام ؟

قال ﷺ : أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال جبريل ؑ : ما الإحسان ؟

قال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال جبريل ؑ : متى الساعة ؟

قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراتها :

إذا ولدت الأمة ربتها ، وإذا تناول رعاة الإبل البهم في البنيان (٢) في خمس لا

(١) سورة الطارق الآيات من ٥ إلى ٨

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل ط الأوقاف . ومعنى (إذا ولدت الأمة ربتها) أى يعق الولد أمه فيتحكم فيها كأنه سيدها ، ورواية (إذا ولدت الأمة بعلمها) واضحة فى ذلك وهناك معان أخرى ، إلا أن ما أوردناه أرجحها .

يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَبِيرٌ ﴾ (١) .

ثم أدير فقال : ردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم (٢) .

وبالنظر فى هذا الحديث نرى أنه يتضمن الدين كله ، لأن كل ما سأل عنه جبريل ﷺ كان هو الدين الإسلامى بأصوله ، وفروعه ، ولذلك قال ﷺ جاء يعلمكم دينكم .

وقد أنزل كثير من المحدثين هذا الحديث بالنسبة للسنة النبوية منزلة سورة الفاتحة بالنسبة للقرآن .

يقول القرطبى : هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة .

ويقول القاضى عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة وللباطنة من عقود الإيمان ابتداءً ، وحالاً ، ومآلاً ، ومن أعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن

== ومعنى (إذا تطاول رعاة الإبل البهيم فى البنيان) أى يسيطر أهل الفاقة على المدن ، وينشرون الإسلام فيها ، ويقيمون البنيات الشاهقة ، وهو إشارة إلى اتساع دين الإسلام ، لأن حملة الإسلام هم الفقراء فى البداية . وقد ظهر جبريل بصورة دحية الكلبي ، وجلس أمام النبي ﷺ ، وسأله الأسئلة المذكورة ، يقول ابن الصلاح : ما فى هذا الحديث بيان لأصل الإيمان ، وهو التصديق الباطنى ، وأصل الإسلام وهو الاستسلام ، والانقياد الظاهرى ، وثم بيان اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام ، وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطنى ، واسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطنى لأن الاستسلام لا يتم إلا به (عمدة القارى ج ١ ص ٢٧٩ ، ٢٩١) .

(١) سورة لقمان الآية ٣٤

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٥٠)

علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومنتشبة منه فهو لها أصل ، وأساس .
وجميع ما ورد في هذا الحديث راجع إلى العقيدة ، أو إلى الشريعة ، أو
إليهما معاً ، ذلك أن الإيمان بالله ، وملائكته ، وبلغائه ، وبرسله ، وبالبعث راجع
إلى العقيدة .

وعبادة الله وحده ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان راجع إلى
الشريعة .

والإحسان يكون في العقيدة والشريعة معاً ، وبالإحسان توجد الأخلاق
المثالية عند المسلم ، فهي أثر لازم وضروري للعقيدة والشريعة ، فكأن
العقيدة أصل للشريعة ، والشريعة مع العقيدة أصل للأخلاق .
وعلى هذا فإن أركان الإيمان . هي أصول الدعوة وهي أصول الدين ،
وجوانب الشريعة والأخلاق هي فروعها .

التعريف الثانى

تعريف علم " أصول الدعوة الإسلامية "

بمعنى التبليغ

أدى التطور العمرانى ، وتقدم المدنية ، إلى اختراع صور. عديدة للاتصال والإعلام ، وتعددت جوانب الدراسة والبحث فى هذا الجانب الحيوى الهام ، فبعد ما كان الصحيفة مثلا تصدر شاملة للأخبار والإعلانات والحوادث. ، وللرياضة ، والفن ... وغيرها أصبحت تصدر متخصصة. ، فهناك الصحف الإخبارية ، والاقتصادية ، والدعائية ، والفنية ، والعسكرية ، والرياضية ... وهكذا .

وعملية تبليغ الإسلام يجب أن تندرج فى إطار. هذا التخصص المنهجي لنجد دراسات تتصل بالدعاة حملة الإسلام ، ومبلغوه للناس .

ودراسات. أخرى تتعلق بالوسائل على اختلاف صورها ، وأحوالها

ودراسات ثالثة عن الأسلوب ، وعوامل التأثير به .

ودراسات رابعة عن المدعويين لتوضيح أوضاعهم النفسية ، والاجتماعية والفكرية ، والثقافية ، والمذهبية ، والسكانية إلى غير ذلك مما له أثر فى الاتجاه ، وتكوين الرأى العام .

وليس هناك ما يمنع من الاستفادة بالدراسات. الحديثة فى علوم. الاتصال ونظرياته للتشابه القريب بين الدعوة والاتصال. ، فكل منهما يقوم على فكرة ما يحملها طرف ما ، لينقلها إلى غيره ، من أجل إحداث غاية مقصودة .

يرى بعض العلماء أن عملية تبليغ الإسلام ، بمختلف أركانها تمثل أركاناً متكاملة تتحرك فى إطار منهج شامل يجمعها ، ويذهب إلى أن منهج الدعوة خطة كاملة ، ونظرية تامة ، تحدد الدعوة ، ومسارها ، وطرق الإقناع بها ، وأسلوب الخطاب لها ، وتحقيق أهدافها فى كافة جوانب الحياة .

ويرى هؤلاء أن منهج الدعوة كمصطلح علمي يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها ، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب ، أو على الوسيلة ، أو على الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا على وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل ، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة رباني كله ، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه ، لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة ، وغايتها ، ثابتة مفصلة . أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، ولأساليب ، وصفات. القائم بالدعوة وأحوال المدعوين ، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس ، وللشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة ، لأن الحركة تعنى الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل، والدعاة، بتبليغ دين الله للناس، والمنهج أعم من ذلك .

وعلى أساس التسليم بهذا الفهم نجد أنفسنا أمام عدد من علوم تبليغ الإسلام ، ولكل منها تعريف يوضحها ، ويحدد المراد منها ، وكلها تندرج في أن أصول كل منها تعنى دراسة الأسس ، والمبادئ التي تؤدي إلى قيام الدعاة والوسائل ، والأساليب بدورهم في نشر الإسلام ، وإيصاله للناس على وجهه المشروع بعد الوقوف على أحوال الناس من كافة الوجوه ليتعامل الدعاة مع واقع المدعوين ، ويستفيدوا به .

وعلى هذا ...

نرى أن أصول علم الدعاة يحدد أسس اختيارهم ، ولهم الصفات الواجبة لهم ، والمعارف التي يحتاجون إليها ، وكيفية حركتهم بالدعوة ، ومخاطبة الناس ، والاهتمام بدورهم الديني بين المدعوين .

وأصول علم الوسائل تغنى ببيان مشروعية الاستفادة بكل وسيلة اتصالية قديمة أو حديثة فى إطار المشروعية الدينية ، وتحقيق المراد من الدعوة .
وأصول علم الأساليب تتضمن بمعرفة الأسس الرئيسية للخطاب الدينى القائم على الحكمة ، وللحسن فى الموعظة وللحوار . ، وللتركيز على الأدلة الإقناعية ، والمثيرات الوجدانية ، مع الاستفادة بعلوم البلاغة ، وللبيان وغيرها من سائر علوم العصر ومستحدثاته .

وأصول علم المدعوين تذهب إلى معرفة الأسس التى تساعد على فهم الناس ، وما هم فيه من اتجاهات ، ومعارف ، ومذاهب لإتيانهم من حيث يقبلون ويؤمنون وهذه الأسس تحتاج إلى دراسة أصول علم النفس الاجتماعى ، وفن قيادة الجماهير ، وعملية توجيه الرأى العام ، وعلوم الخدمة الاجتماعية .

وأصول علم تاريخ الدعوة : يحدد معالم هذا العلم ، ومصادره ، وطرق تمحيص الحق ، وتمييزه عما عداه ، وتجليه المتاريخ الإسلامى فى مختلف العصور .

وهكذا تتعدد أصول عملية التبليغ تبعاً لتعدد علومه ، وأركانه .
 إن الدعوة فى العصر الحديث تحتاج إلى هذه الدراسات المتعددة ، لتصل إلى إنسان العصر معبرة عن دين الله تعالى بمنهج قويم ، وخطة متكاملة ، ولو أجاد المسئولون عن الدعوة ، وللمشرفون على حركتها العمل فى توضيح هذه الأسس وإيجادها فى عالم الواقع التطبيقى لتحقيق خير كثير للناس ، ولوصلت الدعوة بوضوحها ، وصفائها ، وحجيتها للعالم كله .

وحينئذ نقول مطمئنين : لقد وصل الخطاب الصحيح الصادق إلى مستقره بنجاح ، وأمان ، وبلغ الإسلام إلى كل إنسان فى هذا الوجود .

إن العالم المعاصر يموج بالفكر ، وتتعارض فيه المصالح ، وللكل يدافع عن نفسه ، ويثبت حقه بحجج المنطق ، وطول الحوار وكثيراً ما تعقد

(٥٤)

المؤتمرات والندوات ، وجلسات الخبراء ، والعلماء ، للدراسة ، والبحث ، وسندهم هو الكلمة ، والحجة .

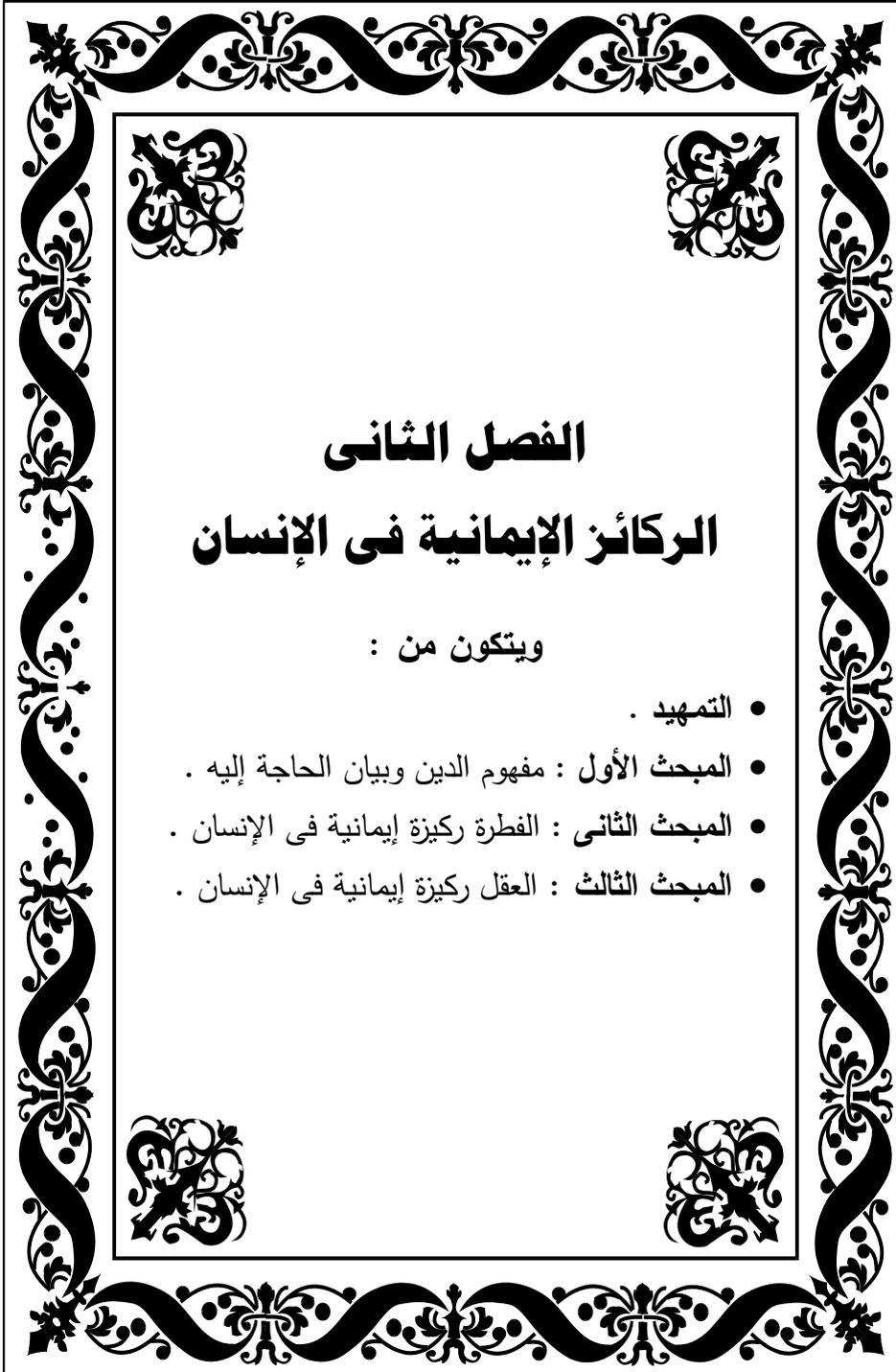
ولذلك اهتم العالم بعلو الاتصال ، وتطوير مؤسساته ، وتطبيق النظريات العلمية فى عملية التوجه للغير ، ومخاطبته فى القضايا التى يراد الوصول بها إلى غاية معينة .

ولم يعد فى العالم ما هو مستور عن الناس ، فكل ما يحدث ينتشر ، وما يقرر يذاع ، حتى صار العالم مثل قرية صغيرة ، يعلم ساكنوها كل ما فيها ، والدعوة الإسلامية ، يجب أن تستفيد من هذا. الفكر المعاصر ، وتمشى إلى العالم كله بأسلوبها به لتصل بقضيتها إليه .

ولن يتم للدعوة ذلك إلا إذا استعدت ، وتأصلت .

والدعامة الأساسية للتأهيل هو العلم بكل الجوانب التى لا بد منها للدعوة

وعلمها .



الفصل الثانى

الركائز الإيمانية فى الإنسان

ويتكون من :

- التمهيد .
- المبحث الأول : مفهوم الدين وبيان الحاجة إليه .
- المبحث الثانى : الفطرة ركنة إيمانية فى الإنسان .
- المبحث الثالث : العقل ركنة إيمانية فى الإنسان .

تمهيد :

خلق الله الإنسان ، وأودع فيه عدداً من الطاقات ، والملكات ، وقدر لها أن تعمل وفق منهج خاص- بها ، فالغرائز طاقات حيوية تبحث عن حاجاتها لترضى وتسعى لتشبع .

والعقل قوة تخيل ، وإدراك ، وتحليل ، لا يعرف المصمت ، ولا يمكنه أن يتوقف .

والجسد مادي شهواني فى نشاطه ، وإخلاقه ، كل هذه ملكات وطاقات خلق الله الإنسان بها .

وبواسطة طاقان الإنسان وملكاته تمضى مسيرة الحياة ، وتستمر العلاقة بين الإنسان والكون تأثيراً وتأثراً .

وقضت حكمة الله تعالى أن- يكون- الإسلام متناسقاً مع الإنسان- بكافة عناصره ، وقواه ، فلم يجعل فى الدين ما ينفر ، أو ما لا يستساغ ، أو ما يشق ، أو ما لا يفهم ، وإنما جعل الله كل ما فى الدين سهلاً ، مقنعاً ، معقولاً واضح الوسيلة والغاية ، يجلب السعادة والسلام لمن يؤمن به ، ويخضع لتعاليمه ، وقد أوجد الله فى طبيعة الإنسان ما يجعله يتوافق مع الدين ويسعد به . وهذه العوامل هى ركائز الإيمان فى الإنسان ، وهى التى تدفعه إلى الدين ، وتعينه عليه وتهيئه ليكون من المؤمنين الصادقين .

وأوضح دليل على وجود هذه الركائز فى الإنسان . ما ذكره ابن طفيل ، وهو يروى قصة طفل ، أُلقت به الأمواج بعد مولده . بين الحيوانات . فعاش وحيداً معها فى غاباتها ، فلما شب ، ونظر فى الحيوانات ، واختلافها ، وللغابة وتنوع أشجارها ، والغذاء وكيف تتعدد مصادره ، والهواء وكيف يأتى ويتحرك ، والكون وكيف يسير بنظام وهدف ، والموت ولأثره على حركة الجسد . وللتوالد بين الحيوانات المختلفة ، وبين الزروع ، والأشجار .

نظر الغلام "حي بن يقظان". إلى هذا. وغيره فوصل بفكره إلى ضرورة وجود خالق لهذا الكون. ، وإلى ضرورة أن تستمر عناية الخالق بما خلق ، فصادف تفكيره العقلي هذا ما في نفسه من ميل ، وتصور. فاستنتج ابن طفيل من ذلك وجود ركائز في داخل الإنسان تدفعه إلى الإيمان بالله تعالى .

وقصة ابن طفيل "حي بن يقظان" من قصص الخيال الواقعي ، لأننا لو وضعنا العقل مكان الغلام ، ووضعنا مكان الغابة وللحيوانات الكون كله ، لو فعلنا ذلك وتأملنا فيه، لوصلنا إلى ما وصل إليه " ابن طفيل " من وجود مرتكزات تهدي الإنسان إلى الله تعالى ، وهي التي نسميها بـ " ركائز الإيمان." وأهمها ركيزتان هما :

١ . الفطرة .

٢ . العقل .

وفي هذا الفصل سأتناول بالدراسة هاتين الركيزتين ، على أن أسبقهما ببيان مفهوم الدين ، وبيان الحاجة إليه ، وأهم عناصره التي تجعله يلتقى مع الركائز الموجودة في الإنسان وذلك في المباحث التالية :

- المبحث الأول : مفهوم الدين ، وبيان الحاجة إليه .
- المبحث الثاني : الفطرة ركيزة إيمانية في الإنسان .
- المبحث الثالث : العقل ركيزة إيمانية في الإنسان .

وذلك فيما يلي :

المبحث الأول

التعريف بالدين

وبيان مدى الحاجة إليه

" الدين " مصدر فعله دان ، ومشتقاته دان ، يدين ، وللدائن ، وللمدين ، والمديون ، والديان .

وكلمة " الدين " عند اللغويين تفيد عدة معان :

فهي تفيد معنى الجزاء والحساب ، ومنها قوله تعالى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾^(١) أى مالك يوم الحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ... ومن هذا جاء قول النبي ﷺ : **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** ^(٢) .

ومعنى دان نفسه . حاسبها وقدر جزاءها ... ومنه وصف الله بـ " الديان " أى المحاسب المجازى على الأعمال يوم القيامة ، ومنه قول العرب عن على ابن أبى طالب ؓ كان على ديان العرب ، أى قاضيها ، وحاكمها ، ومنه المثل المضروب " كما تدين تدان " أى كما تُجْزَى تُجْزَى .

ومن معان الدين الطاعة والانقياد ، تقول دان فلان لفلان أى انقاد له ، وأطاعه ... ومنه قول النبي ﷺ لعنه أبى طالب : " أريد من العرب كلمة تدين لهم بها العرب " أى تنقاد وتطيع^(٣) .

ومن معانى الدين المعادة والنشأن وللحال تقول العرب : ما زال ذلك دينى وديدى ، أى عادتى ، وشأنى ، وحالى .

(١) سورة الفاتحة الآية ٤

(٢) فيض القدير ج ٥ ص ٦٧

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٦

يقول ابن الأعرابي : دان الرجل إذا عز ، ودان إذا ذل . ، ودان إذا أطاع ودان إذا عصى ، ودان إذا اعتاد خيراً أو شراً ، ودان إذا أصابه المدين ، وهو دائن ، ومدين وقوله تعالى : ﴿ أَوْنَانًا لَمَدِينُونَ ﴾^(١) أى مملوكون . ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾^(٢) قال الفراء : غير مدينين أى غير مملوكين ، ودنته أدينه ديناً ، سسته .

ودنت الرجل : حملته على ما يكره . وديننت الرجل تدينناً إذا . واكلته إلى دينه ، والدين : الحال ، قال النضر بن شميل ، سألت أعرابياً عن شئ فقال : لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك أى على حالة ، والدين : ما يتدين به الرجل والدين : السلطان . ، وللدين : المورج . ، وللدين : المقهر . ، وللدين : المعصية ، والدين : الطاعة^(٣) .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : والواقع أننا إذا نظرنا فى اشتقاق هذه الكلمة ، ووجوه تصريفها ، نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً ، بل صلة تامة فى جوهر المعنى ، إذ نجد أن هذه المعانى الكثيرة تعود فى نهاية الأمر إلى ثلاثة معان ، تكاد تكون متلازمة . ، بل نجد أن التفاوت الميسر بين هذه المعانى الثلاثة مرده فى الحقيقة إلى أن الكلمة التى يراد شرحها ليست كلمة واحدة ، بل ثلاث كلمات ، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب .

وبيانه أن كلمة (الدين) تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه ، (دانه يدينه) .

وتارة من فعل متعد باللام (دان له) .

وتارة من فعل متعد بالياء (دان به) .

(١) سورة الصافات الآية ٥٣

(٢) سورة الواقعة الآية ٨٦

(٣) لسان العرب مادة "دان" ج ٢ ص ١٤٦٩ ط دار المعارف

- وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة :
- ١ . فإذا قلنا (دانه ديناً) عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه وساسه ، ودبره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى في شأنه وجازاه ، وكافأه ، فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك، والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسة ، والتدبير ، والحكم ، والقهر ، والمحاسبة ، وللمجازاة ، ومن ذلك ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(١) أى يوم المحاسبة والجزاء ، وفى الحديث " الكيس من دان نفسه " أى حكمها وضبطها ، و " الديان " الحكم القاضى .
 - ٢ . وإذا قلنا " دان له " . أردنا أنه أطاعة وخضع له فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة ، والمورج ، وكلمة (الدين لله) . يصح أن يفهم منها كلا المعنيين ، الحكم لله ، أو الخضوع لله .
وواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ومطواع له (دانه فدان له) . أى قهره على الطاعة فخضع وأطاع .
 - ٣ . وإذا قلنا "دان بالشئ " . كان معناه أنه اتخذهم ديناً ومذهباً أى . اعتقدم ، أو اعتاده ، أو تخلق به ، فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظرياً أو عملياً ، فالمذهب العملى لكل امرئ هو عادته وسيرته كما يقال " هذا دينى ودينى " . وللمذهب النظرى عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ، ومن ذلك قولهم " دينت الرجل " . أى وكلته إلى دينه ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً فى اعتقاده .
ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضاً للاستعمالين قبله ، لأن

العادة أو العقيدة التي يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم اتباعها^(١) .

ويستفاد من المعانى اللغوية التي ذكرها العلماء أن الدين يفيد وجود علاقة بين طرفين ، أحدهما قوى- قاهر ، وللتانى ضعيف عاجز ، على أن يعظم الضعيف القوى ويخضع له ... فإذا ما وصف بالدين الطرف الأقوى كان معنى الدين السلطان ، والحكم ، والإلزام ، وإن وصف به الطرف الأضعف كان معنى الدين الخضوع ، والانقياد والطاعة ... ولذا. أريد بالدين العلاقة الموجودة بين الطرفين كان المراد بالدين الدين المعظم لتلك العلاقة ، أو الذى يعبر عنها . والمعانى الثلاثة تدور حول الانقياد. إلزاماً ، أو التزاماً ، أو تنظيمياً لهذا الالتزام وحينما ننظر إلى الدين فى واقع الحياة ، وبين المؤمنين ، نرى أنه الدين يتضمن العناصر التالية :

- . الإحساس بوجود ذات علوية لها تأثير فى غيرها .
 - . تملك هذه الذات عدداً من الصفات التى تمكنها من التحكم فى غيرها وفق ما تريد ، ولأساس هذه الصفات العلم التام ، ولالإرادة المطلقة ، وللقدره اللانهائية .
 - . حاجة سائر الكائنات الموجودة إلى عطاء هذه الذات العلوية بصورة دائمة.
 - . تملك هذه الذات العلوية محاسبة ما عداها على أعمالهم التى يؤدونها ، ومجازاتهم عليها خيراً ، أو شراً .
 - . تمد الذات العليا ما عداها بمنهج تعيش به ، وتسير على هديه .
- وقد تضمن تعريف د/دراز للدين هذه العناصر ... وفيه يعرف الدين

(١) دراسات فى العقيدة ص ٩٠ ، ٩١

بأنه : الاعتقاد بوجود ذات ، علوية ، غيبية ، لها علم واختيار ، وقدرة ، وتدبير ، لشئون الآخرين ، ومن شأن هذا الاعتقاد أن يبعث على مناجاة هذه الذات الإلهية في رغبة ، ورهبة ، وفي خضوع ، وتمجيد^(١) .

وهذا التعريف خاص بالاعتقاد بالذات الإلهية ، مع أن الإيمان بها ركن من أصول المدين وأصول المدين ركن من أركان الإسلام ، الذى يتكون من الأصول ، والفروع .

ولعل قصر الدين فى هذا التعريف على الاعتقاد بوجود الله تعالى متصفاً بكل ما يليق به ، لا يغفل سائر الأركان ، والفروع ، لأن من يؤمن بالله بيقين يصدق بكل ما أخبر الله به ويلتزم بكل ما أمر به ، وقد أمر الله تعالى بسائر الأركان ، وجميع الفروع ، ومكارم الأخلاق فكأن الإيمان بالله تعالى يعنى الإيمان بالإسلام كله ، ويتضمنه .

يقول ابن حجر : اكتفى الفقهاء بإطلاق الإيمان على من آمن بالله ، ورسوله ، ولا اختلاف ، لأن الإيمان برسول الله يعنى الإيمان بوجوده ، وبما جاء به عن ربه ، فيدخل جميع الأركان تحت ذلك الإيمان^(٢) .

وقد اشتغل العلماء المسلمون بإثبات ألوهية الله تعالى ، وفصلوا فيما يجب له وجاعوا فى أبحاثهم بأدلة تقنع العقل ، وتشبع المروج ، ليتم الإيمان بصدق ويقين ، واطمئنان .

يوضح الأستاذ / محمد فريد وجدى بعض هذه الدراسة فى بحث مطول ، ويبين أن الكون مادى ، وروحى ، بهما يترقى ، وينمو ، ويدرك ، ويقوم بوظائفه ، ولا يتصور عاقل قيامه بوظائفه تلك إلا بقوة بعيدة عنه تلهمه ، وتحركه .

(١) الدين ص ٢٨

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى ج ١ ص ١١٩

انظر إلى الزهرة كيف نبتت فى أرض- مية ، ولنتجت ألواناً زاهية ، وأخرجت رياحاً طيبة .

وانظر إلى الماء كيف يتكون ؟ وكيف يتحرك ؟ وكيف يفيد ؟
وانظر إلى الطيور ، كيف تبنى عشها ؟ وكيف تربي صغارها ؟. وكيف تغدوا خماساً ، وتروح بطاناً .

وانظر إلى النحل ، وللنمل ، كيف صنعت مملكتها ؟. وأخرجت رحيقها ، وجمعت طعامها .

وانظر إلى الكائنات ذات. الخلية الواحدة التى لا. شكل لها ، المجردة من الأعضاء ، ومن الأجزاء ، ومن عناصر التركيب ، ومع ذلك فهى تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة ، حتى أنها لتستطيع أن. تبتنى لنفسها قواقع ، ذات تراكيب معقدة أحياناً ، وعلى غاية ما يمكن من الجمال .

هل هذا الترتيب المحكم ، والتكوين المنظم ، ولأسباب. الموجدة للكائنات وللعلل الحافظة لها ، وللعوامل المدافعة لترقيتها ، وللنواميس العاملة لتكميلها وجدت بلا موجد لها ؟

وهل كل هذه المجموعة الضخمة من الأسباب ، وللعلل ، وللنواميس ، وللعوامل ، فى كون- يزخر بالأحياء ، ويفيض بالكائنات ، قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق ، أم أنها تدل على وجود إله واحد قادر حكيم^(١) .

إن الحقيقة ظاهرة ، والشواهد ناطقة بأن. كل ذلك من تقدير العزيز العليم وهو الله رب العالمين .

يقول الأستاذ / سعيد حوى : لو كانت قشرة الأرض. أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثانى أكسيد الكربون . ، ولأكسجين ، ولما أمكن وجود الحياة .

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح صه بتصرف كبير .

ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه ، فإن بعض الشهاب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجى ، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شئ قابل للإحتراق .
ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى لكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رماداً منذ زمن بعيد .

ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها .
ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة .
ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة .
ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .
ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ، ولا ماء ولا شجر ، ولا حيوان ، ولا نبات .

ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كان مثل هذه القشرة الصالحة للحياة^(١)

إن الذى صنع كل ذلك هو الله ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٦٨﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ ﴾^(٣) .

(١) تبسيط العقائد الإسلامية ص ٢٨

(٢) سورة الرعد الآية ٨

(٣) سورة الحجر الآيات من ١٩ إلى ٢٢

ويقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَهْبَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْبِحَمِيمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ .

إن الإسلام دين الله تعالى يتكون من العقيدة بأركانها ، ومن التشريعة بنظمها ، وأعمالها ، ومن الأخلاق بمكارمه ، ومحاسنه ، وقد حفظ الله تعالى الإسلام بحفظ مصدره ، وهما القرآن الكريم ، وللسنة النبوية ولأى اجتهاد بعدهما يأخذ منهما الحكم ، وينبني عليهما .

والإنسانية في كافة عصورها ، ومختلف أماكنها في حاجة ماسة لدين الله تعالى لأسباب متعددة من أهمها :

- ١ . العقل البشرى عاجز عن اكتشاف الغيب بكل صوره ، فهو عاجز عن فهم وعلم غيب الماضي ، ولذلك لا يمكنه إدراك ما مضى إلا بخبر يأتيه ، أو راو يحكيه ، وما عدا ذلك لا يمكن لعاقل أن يتصوره .
- والعقل كذلك عاجز عن إدراك غيب الحاضر فهو يدرك ما يحسه ، أما البعيد عنه فهو خارج عن إدراكه ، وبعيد عن نطاق عقله .

وعجز العقل عن إدراك المستقبل أمر مسلم لا يدعيه أحد ، وكل ما يتصوره العقل هو التوقع ، والأمانى .
 وسبب هذا العجز أن العقل محدود بالزمان ، والمكان ، والثقافة ، والاعتقاد ولا يمكنه أن يخرق هذه الحجب إلا بعامل خارجي . وقد دلت تجارب الناس أن آفة الأخبار رواتها ، وأن أغلب الناس يعملون لمصلحتهم ، ولين تناقضت مع الآخرين ، ومن هنا كان العجز عن اكتشاف الأمور البعيدة على وجهها الصحيح ، وحاجة الإنسان لاكتشاف هذا الغيب من الأمور الهامة النافعة ، ولذلك كانت حاجته إلى الدين ، ليكشف الله له كثيراً من الغيب .

فبواسطة القصص الموحى به ، يعلم الإنسان غيب الماضي .
 وبواسطة التشريعات ، وللنظم والتوجيهات الخلقية يمكنه أن ينظم حياته ويتصل بالناس سواء كانوا معه ، أو كانوا بعيدين عنه .
 وبالنسبة للمستقبل يجده الإنسان صفحة مكشوفة بسبب الوحي الذي أرشد إلى العمل وربطه بنتائجه ... وهكذا يحتاج الإنسان إلى الدين لينكشف له الغيب في حدود ما يصلحه ، ويفيده .

٢ . نظم الحياة تحتاج إلى تشريعات ، وقوانين تحدد مسارها ، وتبين ما يفيد وما لا يفيد وحين يترك هذا المنتظم للعقل البشرى يحدث المخل والاضطراب .

وسبب هذا المخل أن العقل المحدود يشرع بمفهومه القاصر ، ولا تتسع أفكاره لغير بيئته ... ولذلك تتعدد النظم ، وتتناقض ، ويصير الصالح في الشرق ضاراً في الغرب ، وما هو صالح اليوم لا يصلح غداً وما يعده البعض حرية وكرامة ، يراه الآخرون ذلاً ، ولهانة ومن هنا كانت ضرورة وضع النظم من مصدر عالم بالأكوان كلها ، لا يتأثر بفريق دون

فريق ، ويضع ما يحقق المصلحة الدقيقة للكافة ... ويشمل علم الزمن كله فيصنع التشريع الصالح لكل زمان ، ولكل مكان ، ولكل مخلوق .
 إن من الحقائق العلمية أنه لا يقدر على وضع الخطة الدقيقة ، الموصلة إلى الفوز ، والفلاح إلا عالم بالواقع الحقيقي للحياة ، ولأحياء ، وللخبير بسبل الفوز ، والنجاح ، والمحيط بالغاية الموجودة ، والعقل البشرى يعجز عن ذلك تماماً .

ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى الذى أوحى دينه للناس بواسطة رسول يبعثه فيهم ... ومن هنا كانت ضرورة الدين .

٣ . يتمنى الإنسان لنفسه أن يكون حراً ، لأن الحرية أساس الكرامة ، وقد جرت عادة الناس أن يعلو الغنى الفقير ، ويستذل القوى الضعيف وتنوع الناس فى كل مجتمع أمر حتمى ، وحين يترك الأمر للناس يحدث إذلال الكثير من العباد لغير سبب معقول ... والخلص من هذا هو اتباع دين الله تعالى لأن الله تعالى هو رب الجميع ، والخلق عنده سواسية ، وأكرمهم عنده أتقاهم ، والكل عبيد له سبحانه وتعالى ... وحينما يلتزم الناس بدين الله تعالى يجدون أنفسهم فى خط متساو . يعملون لله ، ويخافون منه ، ويرجون منه ما يريدون ، والاتصال بالله أمر يسعد النفس لأنه مصدرها ، والعبودية لله حرية للإنسان ، و اللجوء إليه سبحانه وتعالى . هو المكرامة فى الحقيقة .

وإذا شعر أفراد المجتمع بهذه المساواة فإنهم يعيشون أعزة متعاونين ، وأخوة متحابين ، ومن هنا كان التدين أمراً ضرورياً لتحقيق حرية وكرامة الناس .

٤ . الحياة مليئة بالمواقف الصعبة التى تولد الحيرة فى القلوب ، وتصيب الإنسان باليأس والقنوط ... ويشتد هذا اليأس كلما بعد الإنسان عن الله ، وضعف تدينه ... وحينئذ يلجأ إلى العقل فيزداد حيرة ، واضطراباً .

يصاب الإنسان بالمرض ، أو يناله مكروه ... أو تبور تجارته ، أو يموت ولده أو يفشل فى أمر سعى إليه ، وتمناه ... وحينئذ يعيش قلقاً محتاراً ، وتتناوشه أمراض النفس ، وتتكالب عليه الأزمات. ويلجأ لعقله فلا يجد مخرجاً وتزداد عقده ، الأمر الذى يؤدى إلى الانتحار. ، أو اعتزال الحياة ، والهروب إلى المعاصى والمنكرات ليبتعد عن وضعه الكئيب .

ولو لجأ الإنسان فى مصائبه إلى الدين ، وعلم أن كل شئ بقدر الله ، وأن من البلاء ما هو اختبار ، وامتحان ، وأن كل ما فى الدنيا لا يساوى شيئاً من نعيم الآخرة ... وعلم أنه مكلف بالصبر والرضى ، والتوجه إلى الله ، والالتزام بكل ما أمر به ... لو فعل ذلك يعود إليه الأمل ، ويرضيه الله ، ويملاً حياته بالرضى والهدوء .

ومن هنا كانت ضرورة الدين ليتغلب الإنسان على متاعب الحياة الدنيا .

وكلما اقترب الإنسان من ربه ، والتزم منهاجه ، ولجأ إلى رحابه ، واعتصم بحبله ، هداه ، وأرشده ، وصانعه ، وحماه ، وأعزه ، وكفاه ، يؤكد هذا قوله .

تبارك وتعالى . فى محكم كتابه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ وَتُحَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۙ ﴾^(١) ، فمن اتصل بالله ، وتوكل عليه ، وجعله أمله وعمله هداه، ونجاه ، ونصره على كل من يعاديه .

إن الغرور بالعقل يجلب الضرر ، والأذى ... وأول ما يأتى الضرر يكون للعقل أولاً فيصاب بالحيرة ، وعدم الفهم ، والبعد عن الإدراك السليم .

(١) سورة الزمر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٧٠)

إن كل شئ يعيش فى مجاله ، ويتلاءم معه ومجال العقل محدد بطاقاته ، وقدراته ... ومسئوليته أن يفهم الوحي ، ويدرك الآيات التى خلقها الله فى الكون ، والحياة ، ويعيش عبداً مطيعاً لخالقه سبحانه وتعالى .
والإنسان إذا تعهد نفسه بالحياة الدينية وللمسير على ضوء ما جاءت به القواعد الشرعية كان دائم السعادة ، غنياً بالله ، عزيز الجانب ، نقى السريرة محباً للخير ، يعمل لصالح نفسه ، ولإخوانه ، وللإنسانية كلها على ضوء دينه الحنيف ، فينجو من شقوة الدنيا ، وعذاب الآخرة .

المبحث الثانى

الفطرة ركنة إيمانية فى الإنسان

الفطرة طبيعة الإنسان الأصلية ، مجردة عن ما يلحقها من شوائب المادة وسوءات الهوى ، وظلمات الجهل ، والتقصير ، وهى الصورة النقية التى يولد الإنسان بها ، وتأخذ فى النمو بنمائه ما عاش فى خط الإنسانية المستقيم . والذاتية الإنسانية تتجه بفطرتها إلى الخير ، وتسعد بالقيم الطيبة ، وتتواءم مع دين الله تعالى ببسر ، وتلقائية ... لأن الإسلام دين الفطرة التى خلق الله الناس عليها

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَقْرُبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١)

فالفطرة عبارة عن ملكات المحس ، والفكر ، وللوجدان فى الإنسان . وهى مستودع اليقين بل إنها باحثة عن الحق المؤكد لا ترضى بغيره بديلاً . وقد جعلت الآية الفطرة مضافة لله تعالى تشريفاً لها ، وبينت أنها الإسلام . ولأنها فطرة الناس ، أفراداً وأجناساً ، وجماعات ، وأمماً ، وشعوباً ... فهى ثوب جميل يبرز فيه الإنسان والإسلام معاً .

إن الإنسان ساعة أن يؤمن إيماناً حقيقياً يشعر بحلاوة الإيمان . ، وبلذة الرضى ، وسعادة المعرفة والوصول ، لأنه وصل إلى حاجات فطرته الصحيحة ، أما غير المؤمن فإنه قلق متألم ، مريض ، لا يشعر إلا بالأمن ، ولا بالسعادة ، وإن استجمع شرائطها المادية ، وسبب ذلك ، أنه بعدم الإيمان يعاند الفطرة ، ويبعد عن منهج سعادتها الذى لا يمكن تبديله ، أو تغيير أثره فى فطرة الناس

(١) سورة الروم الآية ٣٠

وانظر إلى الآية تجدها تعبر بلفظ " الناس " على الجمع ، لإفادة أن الناس على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، وبيئاتهم ، وأزمانهم ، تتحد فطرتهم مع دين الله تعالى " الإسلام " ، والآية تشير إلى أن الإسلام هو الفطرة بعينها .
وقد وضحت الآية أن الفطرة هي الأصل الإنساني الثابت ، الخالي من العقد ، الصافي في التفكير ، الهادئ في التصور ، الدقيق في الحكم المتناسق مع الإسلام ، دين الله ، ذى العقيدة السهلة ، والشريعة الميسرة ، والخلق الكريم وكأن الإنسان فطرة جزئية ، ولالإسلام فطرة كلية ، فإذا ما التقيا تجاذبا ، وذاب الجزء في الكل ، وصار الإنسان السوى مسلماً ، ربانياً ، سعيداً ، آمناً برضوان الله تعالى .

إن الإسلام فطرة الله ، وقد خلق الله الناس على الفطرة فهما معاً شئ واحد ، وإن اختلفا جوهرًا ، وحقيقة^(١) .

ولكن ما هي الفطرة التي جعلها الله تعالى أداة استقبال وترحيب للإسلام في الإنسان ؟

تقول كتب اللغة : الفطرة لها معان كثيرة ، منها : البدء ، ومنها الخلق ، ومنها الدين ، جاء في القاموس المحيط : الفطرة هي الخليقة التي خلق عليها المولود في رحم أمه ، وفطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ، وفطر الأمر : ابتدأه وأنشأه ، والفطرة أيضاً هي الدين^(٢) .

وجاء في تاج العروس : فطر الله يفطرحهم فطراً ، خلقهم وبدأهم ، وفطر الأمر ابتدأه ، وأنشأه ، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنه : ما كنت أدرى ما فاطر

(١) أصول الدعوة ص ١٤٤

(٢) القاموس المحيط ج ٢ ص ١١٠ مادة " فطر "

السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى ابتدأت حفرها ، والفطرة بمعنى الخلق^(١) .

وجاء في لسان العرب : والفطرة : ما فطر الله عليه المخلوق من المعرفة به ، وقد فطره يفطره ، بالضم فطراً أى خلقه .

وقول النبي ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة . يعنى الخلق الذى فطر عليها فى الرحم من سعادة أو شقاوة ، فإذا ولد يهوديان- هوداه فى حكم الدنيا أو نصرانيين نصره فى الحكم ، أو مجوسيان- مجسام فى الحكم ، وكان حكمه حكم أبيه حتى يعبر عنه لسانه ، فإن مات قبل بلوغه مات على ما سبق له من الفطرة التى فطر عليها ، فهذه فطرة المولود ، وفطرة ثانية وهى الكلمة التى يصير بها العبد مسلماً ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله . ولأن محمداً رسول الله ، جاء بالحق من عنده ، فتلك الفطرة هى الدين ، والدليل على ذلك حديث البراء بن عازب رضي الله عنه^(٢) الذى رواه البخارى بسنده أنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنيبك الذى أرسلت ، فإن مات من ليلتك فأنت على المفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به .

قال : فرددتها على النبي ﷺ ، فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولك قال : لا ، ونبيك الذى أرسلت^(٣) .

والعلماء لا يبعدون على المعانى المستفادة من كلمة الفطرة ... ومجمل

(١) تاج العروس ج٣ ص٤٧٠

(٢) لسان العرب ج٥ ص٣٤٣٣

(٣) صحيح البخارى ج١ ص١٧٨ كتاب الوضوء باب فضل من بات على الوضوء .

أرائهم أن الفطرة هي الجبلة التي خلق الله الإنسان. عليها بما فيها من سلامة القلب ، وطهارة العقل ، والميل للحق ، وقبول الحسن ، والإسراع للإسلام. حين التقائها به ... لدرجة أن كثيراً من العلماء يذهبون إلى أن الفطرة هي الإسلام ، مستدلين بقوله تعالى : ﴿ فَأَقَمَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

يقول الشوكاني : الفطرة في هذه الآية معناها الملة ، يؤكد ذلك ما روله البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء^(٢) ثم يقول أبو هريرة : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾^(٣) فكل فرد من أفراد الناس مفطور. أى مخلوق. على ملة الإسلام. حيث أخذهم ربهم من ظهر آدم ﷺ وسألهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾^(٤) ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان ، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق^(٥) ، لأن الإيمان والإسلام الفطريين لا. اختيار. للإنسان. فيهما فلا تكتب لصاحبهما النجاة إلا إذا وجد منه إيمان وإسلام شرعيان ، فيطابق اختياره فطرته^(٦) .

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٢٤ كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبى فمات ط . الأوقاف .

(٣) سورة الروم الآية ٣٠

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٢

(٥) فتح القدير لمحمد بن على بن محمد الشوكانى ج ٤ ص ٢٤٤ دار الفكر .

(٦) دراسات فى العقيدة ص ٣٥

والإمام الشوكاني بهذا يبين أن الفطرة نوعان :

أولاهما : سماها الفطرة الذاتية ، وهى التى توجد فى الإنسان بصورة تلقائية ، بقدر الله تعالى حيث جعلها جزءاً من الإنسان .

والثانية : سماها الفطرة الاختيارية ، وهى الفطرة التى تتفاعل مع العقل ويصاحبها التفكير ، والافتناع .

وللصلة بين الفطرتين وثيقة لأن الفطرة الذاتية تعد تمهيداً للاختيارية ، وتتحد ، معها وتتشد من أزرها ما لم يوجد عائق أمامها من جحود الشهوة ، وجمود التفكير

إن الفطرة الطبيعية فى الإنسان تنظر إلى آيات الكون ، وتهدى إلى خالقها ، من خلال تخيلها لما ترى ، ومن عجيب ما تشاهد .

والآيات من حول الإنسان كثيرة ... والأسئلة تأتيه من كل جانب.

ومن أمثلة هذه الأسئلة :

من الذى وضع السكر السائل فى القصب ؟ وهو يروى بالماء ، ويغذى بالتراب ، وعناصر الطين ؟

من الذى وزع الألوان ، والعمور على الورود ، والأزهار ؟

من الذى رص الحب فى السنابل ، وغلف كل حبة بقشرتها ؟

من الذى رفع السماء ؟ وبسط الأرض ؟ ووزع الكواكب والنجوم ؟ ومن

الذى ؟ ومن ... ومن

والفطرة وهى تتسائل على هذا النحو تصل إلى الحق ، وتدرك أن الله خالق كل شئ ، وهو الذى جعل الأرض قراراً ، وللسماء بناء . وهو على كل شئ قدير (١) .

(٧٦)

وبعض العلماء يذهب إلى أن الفطرة تظهر في الإنسان وهو في سن مبكرة ، حيث نراه ينظر إلى آيات الكون ، ويحاول اكتشاف أسرارها بتوجيه الأسئلة البسيطة لوالديه أو لأحدهما .

إن الطفل يسأل والديه بتلقائية ، وبساطة ... ومن أسئلة الصغار :

- من الذى عمل السماء ؟
- من الذى أوجد السمك فى الماء ؟
- من خلق ماء البحر مالحاً ، وجعل ماء النهر عذباً ؟
- لماذا السماء زرقاء ؟
- أين تذهب الشمس فى الليل ؟
- لماذا لا تظهر الشمس لنا فى الليل ؟
- أين يذهب النور حين يأتى الظلام ؟
- أين يختفى الظلام إذا جاء النهار ؟
- من الذى يحرق الشهب فى السماء ؟
- لماذا لا تلمع النجوم ؟
- أين تنتهى الأرض ؟
- لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة ، والزهرة الأخرى ليس لها رائحة ؟
- من أين جئت ؟
- أين كنت قبل أن أجيء ؟ ... إلخ .
- كيف كان مجيئى ؟

وبمثل هذه التساؤلات يبدأ التدبر فى آيات الكون وهو أول طريق الإيمان .
إن هذه الأسئلة ، وأمثالها التى يعايشها الآباء مع أبنائهم تدل على توجه فطرة الصغير نحو موضوعها ، وهو أول الطريق إلى الإيمان بالله تعالى .
إن هذا الاستعداد الفطرى فى الإنسان هو ركيزة من ركائز الإيمان .

إن الماديين يحاولون صرف الأذهان عن علل الموجودات ، وأسرار الحياة ، وذلك بإشغال الفطرة بالمحسوس ، وإغراقها في الشهوات. حتى لا تذهب إلى مجالها الإيماني العظيم .

وعلى الدعاة أن يعملوا على إيقاظ الفطرة ، وتنميتها ، ولإنقاذ الإنسان. من غيبش المادة ، وظلمات الشهوة ... وإبعاده عن كل ما يضر فطرته ، ويضعف قوتها ، وطرق إيقاظ الفطرة عديدة منها :

- توجيه الناس إلى النظر في أنفسهم ، وما فيها من عجائب الخلق ، وصور الإبداع .
- توضيح ما في الكون. المقرب من آيات. ، تشهد على قدرة الله تعالى ، وحكمته ، وفضله على الناس أجمعين .
- الوقوف على حالات النفس ، والعقل ، والصور التي يعيشها الإنسان ، من فرح ، وحزن ، وضحك ، وبكاء ، وأمل ، وألم ، لأن هذه الأحوال لا يديرها ، ولا يحدثها إلا خالق الكون كله .
- الرزق وتباينه ، كما ، وكيفاً ، ونوعاً ... من غير تحكم فيه لأحد . يؤكد قدرة الله في حركة الحياة ، وكشف ذلك للفطرة يربطها بالله المرازق . ذى القوة المتين .
- الموت . وحدوثه لسائر الخلق . يؤكد قدرة الخالق ، العظيم ، الدائم ، وتذكير النفس به ، يؤكد الفطرة ، ويقويها ، ويشجعها على إخلاص العبادة لله ، والديمومة في رحاب الله العظيم .
- وقد اهتم الإسلام بالعاطفة ، ووجهها نحو وظيفتها التي جبلت عليها ، ومن هذا الاهتمام نرى :

(١) إثارة الوجدان لتدبير آيات الله في الكون ، وإزالة المتباعد الذي يقع في حس الإنسان من المشاهد المكررة ، وذلك يشمل الحديث عن الكون. بضخامته

الهائلة ودقته المعجزة ، وظاهرة الموت ، والحياة ، وإجراء الرزق . ، وإجراء الأحداث ، وقدرة الله التي لاتحد ، وعلم الله الشامل للغيب . كل بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور. كلها كأنه يراها . ويلاحظها لأول مرة ، فينفع بها وجدانه ، ويستيقظ لحقيقة الألوهية .

(٢) إثارة النظر ليتفكر فى خلق الله ، حتى يدرك أن لهذا الكون خالقاً ، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك فى الخلق ، ولا فى تدبير الأمر ، وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان. وللانفعال . هو طريق التفكير والتدبر المنطقي . ، ولن. كان. يلاحظ أن. المطريقتين كثيراً. ما تقتربان معاً فى آيات كثيرة من آيات القرآن ، فيخاطب الوجدان. ويخاطب العقل فى آن واحد .

(٣) مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور فى داخل نفسه وقت المشدة . من اللجوء إلى الله ونسيان الشركاء ، ومن الغفلة ، والنسيان . ، وللبغى . فى الأرض بغير الحق ، بمجرد زوال الأزمة ، ونجاته من المخطر . ، وهى حقيقة كثيراً ما ينساها الإنسان فيذكره الإسلام. بها ليصح سلوكه تجاه الله . ، ويستقيم على العقيدة السليمة .

(٤) مناقشة الانحرافات. كلها التى يقع فيها الناس. تارة بالدليل العقلى. وتارة بالدليل الوجدانى ، ودحضها، وبيان تفاهتها ، وعدم قيامها على أى أساس صحيح ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيراً ما يقتزن. المدليل المعلى بالدليل الوجدانى فى مناقشة الانحرافات .

(٥) التنكير الدائم بقدرة الله التى لا تحد . ، وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله .

(٦) التنكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه . ، ويراقبه . ، ثم يحاسبه يوم القيامة عل ما عمل من خير أو شر ، وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذى لا

(٧٩)

- يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ، ولا في الأرض . ، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شئ حتى السر وما هو أخفى من السر .
- (٧) التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى في حالتى السراء والضراء ، ففي السراء ينبغي على الإنسان أن يذكر الوهاب المنعم فيشكره ، وفي الضراء يصبر الإنسان لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر .
- (٨) إيراد القصص التى تثبت الإيمان . ، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله لهم فى النهاية ، والكفار وعنادهم وتدمير الله عليهم فى النهاية .
- (٩) رسم الصور المحببة للمؤمنين ، وصفاتهم ، وما ينالهم من جزاء ، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما ينالهم من جزاء^(١) .

المبحث الثالث

العقل ركنة إيمانية فى الإنسان

عقل الإنسان. نتاج لقاء روحه بجسده ، وبه يتميز الإنسان. على سائر مخلوقات الله عز وجل ... وبواسطته ساد الكون ، وسخر الله له كل شئ .
والعقل ملكة فى الإنسان يناط بها المواج الأخلاقى ، ولكتشاف الحسن ، والقبيح ، وإدراك المعروف ، والمنكر .
والعقل مشتق من عقل أى ربط ، وسمى العقل. عقلاً. لأنه يربط المدابة ، فيمنعها من المسير .

والعقل الإنسانى يقوم بعديد من الوظائف التى يحتاج إليها الإنسان فهو :
ملكة الإدراك وللتصور . ، يفهم خواص الأشياء . ، ويدرك. علاقة بعضها ببعض وهذه الملكة العقلية تجند الحواس. لها ، فالعين ترى حركة الشجر ، والحواس تلمس جريان الهواء ، وحينما تصل الحركتين معاً إلى العقل يدركهما ، ويدرك العلاقة بينهما ، وهذا الإدراك عام لأنه يشمل القضايا الأخلاقية والقضايا التى لا صلة لها بالأخلاق ، وهكذا تعمل الحواس. على إيصال. صور. الأشياء للمخيلة ، والعقل يحول الصورة إلى فهم مدرك وإلى مسألة مركبة .

والعقل ملكة التخيل ، والتحليل ، والاستنتاج ، والحكم ، فهو يدرك. حركة الرياح ويستنتج منها نزول المطر ، أو شدة الحرارة . ، وينظر إلى حركة الليل ، والنهار ، فيستنتج وجود الله ، وقدرته ، ولذا فإن ملكة الحكم تتصل بها الحكمة ، إذا توصلت لمعرفة ما يجب أن يكون ، وما يجب أن يترك .

والعقل يوصل إلى الرشد ، وهو الهداية ، وهو أعلى خصائصه . وعندها يكون التكوين فى العاقل الرشيد ، وتتمام النضج عنده ، وقد يؤتى الإنسان. من

نقص فى الإدراك أو نقص فى الحكم ، لكن العقل الرشيد ينجو به المرشاد. من
النقص ، والهوى .

والعقل بهذا المفهوم لا يعمل فى المجال الروحى فقط ، ولا يكتفى بالمجال
المجسدى. فقط إنه خليط منهما ، ويعمل فى مجاليهما ، فهو أهم جزء فى
الإنسان وبه يكون الإنسان إنسانا .

وليس العقل ما به الحياة ، فالمجنون يفقد الإدراك والحكم ، وللرشد ، ومع
ذلك فهو حى يرزق ، يحيا ، ويعيش .

هذه القوة الخطيرة فى الإنسان. لا تعرف. التوقف ، ودائماً تدور. فى فلکها
وتكتشف ما حولها ، وتربط المسبب بسببه ، والعلة بمعلولها ، والأصل بفرعة ،
حتى تصل لحكم ونتيجة .

ولعل أفضل ما يصل إليه العقل ، ويتيقنه هو الإيمان. بالله تعالى وبذلك
كان العقل هو الركيزة الثانية للإيمان فى الإنسان . ، ولهذا. كان. اهتمام. الإسلام
بالعقل فقدر الإنسان به ، وأرشدته ليقوم بدوره ، ومدحه بأوصافه ورتبه .

فمن العقل المدرك يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۗ وَمَا
يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾^(١) .

وعن العقل الحكيم يقول الله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَن
يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)
وغالباً ما يسمى هذا العقل باللب وبالألباب .

وعن العقل الرشيد يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٣

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩

(٨٢)

وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا
بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ .

ودور العقل الرشيد هو الفكر والرشد ، والهدى .

يقول الشيخ محمد عبده : جاء الإسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم
واللب في إرشاد الإنسان. من أجل العمل نحو سعادة الدنيا والآخرة . وتهدف
الشريعة الإلهية تصحيح الفكر . وتسديد النظر . وتأديب الأهواء . وتحديد
مطامح الشهوات . وللدخول إلى كل أمر من بابها . وطلب كل رغباته من
أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة . وللتعاون على البر . وللتناصح
في الخير ، والنشر على حد سواء .

وبشى من التركيز يمكن الإشارة إلى العقل على أساس أنه الركيزة الكبرى
للإيمان في الإنسان وهي التي توجه إلى الدين الحق الذى جاء به من عند الله
تعالى .

ومن أجل اختصاص الإنسان بنعمة العقل المدرك ، الباحث على الحق ،
المشرق بالخير ، والأمن بالإقناع ، من أجل ذلك اتجهت الدعوات الإلهية لهذا
الإنسان. تخاطب فيه عقله . وتقدم الدلائل تلو الدليل . من أجل فهم الآيات
الدافعة إلى التصديق ، وقد كثر فى القرآن الكريم تعداد الآيات مع الإشارة إلى
هدف إيرادها ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(١) أو
﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وكلها
فى العقل ، وإليه ، ومعه .

إن كافة أساليب القرآن الكريم البيانية تتجه إلى العقل تستحثه على النظر

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١

(٢) سورة النحل الآية ٦٧

والتدبر ، والاستفادة بما تميز به من تخيل وتدبر ، وفهم واستنباط .
لقد كان من الممكن أن تأتي الدعوة الإسلامية توجيهاً للناس. بلا توضيح
للدليل ، أو بيان للعلل ، أو شرح للهدف والغاية ، وحينئذ يكون خطاب الدعوة
الإسلامية للناس كمن يأتي للإنسان ويقول له : أغمض عينيك وسر ورائي لأن
المطريق ملئ بالمخاطر ، وللمخاوف ، وسأخذ بيدك. إلى النهاية ، . كان من
الممكن ذلك وحينئذ لا توجيه للعقل ، ولا دور له ، وفي هذا مصادمة للواقع
، وتعطيل للعقل الذي يصعب إغاؤه ، إن عديداً من المذاهب ، ولالأديان. تفعل
ذلك ويتبعها بعض المخدوعين ، لكنها لا تصنع من أتباعها إلا مجموعة من
السذج المتعصبين الذين لا يقفون أمام البيان ، ولا يصمدون. عند يقظة العقل
والتفكير .

لم يفعل الإسلام هذا .

وإنما نراه يتجه إلى الإنسان. ويقول له : افتح عقلك ، ولسمعنى ، لنفهم
سويًا البرهان المقنع ، ونستفيد بالعقل الذى أودعه الله فى الإنسان. ليكون أداة
توصيل للحق ورائدًا نحو الخير والهدى .

يقول أبو الحسن البصرى : ينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى
للدين أصلاً وللدنيا عماداً .

ومن نظر ورأى أن الإيمان عقيدة تستقر فى داخل الإنسان. أولاً ، وتجعله
يؤمن بالغيب عن يقين ، كأنه شاهده تماماً ، ويسلم كل أموره تبعاً لعقيدته ، فلا
يعترض على ما ينزل به ، ويدع المقادير تمشى وهو راض. بها كيفما كانت ،
من رأى ذلك علم يقيناً أن الدعوة لا يمكن أن تفرض من خارج الذات. ، ولكنها
تنادى الأفهام ، وتعرض مبادئها على العقل ، فإذا ما اعتنقها مصدقاً بها فقد
تحقق للدعوة ما تريد ، وأصبحت تشريعاتها مطبقة فى ملامحة مع الواقع ولهذا
كان اهتمام القرآن بالعقل تنبيهاً لشأنه ، وتوضيحاً لضرورته .

ولأجل العقل كانت الآيات الكونية التي أشار الله تعالى إليها في كثير من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ^ط وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ^ط إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(١) ، وقد أورد القرآن الكريم العديد من آيات الله في الكون ، لينظر العقل فيها ، لتأخذه إلى الإيمان بالله تعالى .

إن الآيات الكونية الموجودة في الآية وغيرها كثير دلائل لمن ينظر ويعتبر بالآثار العلوية الفلكية ، والسفلية الأرضية ، والذاتية النفسية . ولا يقدر على النظر في الآيات سوى العقل الذى يدرك ويفهم . أما غيره فإنه لا يهدى صاحبه إلى خير ، ولا يوصله إلى صواب . والقرآن الكريم يعيب على من يهمل عقله ، فيقع في أخطاء عديدة . كمن يأمر غيره بالبر وينسى نفسه ، نتيجة ضعف عقله ، وهذا يستنكره الله فى قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك . وفى الآية توضيح عظيم بينه الزمخشري فى تفسيره وهو يقول : أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه . . وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول لأنها فى الواقع تآبام وتدفعه إذا وجدت . . ولدت . وظيفتها التى جعلها الله لها^(٣) .

ونلاحظ من القرآن أنه يرجع سبب إهمال العبادة ، والاستهزاء بها ،

(١) سورة النحل الآية ١٢

(٢) سورة البقرة الآية ٤٤

(٣) تفسير الكشاف ج١ ص٢٧٧

والانصراف إلى الله واللعب ، إلى تقص في العقل ذاته ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(١) .
وذلك لأن لعبهم وهزءهم بالعبادة من أفعال السفهاء وللجهلة ، فكأن من يفعل ذلك لا عقل له .

وأشار القرآن كذلك إلى من يفسد خلقه ، ويضيعه ، ويعمل الفرقة ، والعزلة والجفاء ، والخشونة ، ويباشر الكذب ، والضلال ، فبين أن ذلك يرجع إلى عدم اكتمال العقل ، وما كان الأمر هكذا .إلا .لأن العقل هو الذى يرقى بصاحبه ، ويرفعه إلى مستواه فى الإنسانية ، فيعرف الله وحقه وللدين وتعاليمه . وللنفس ومداهها ، فلا يقع بعد معرفته فى سوء . ومن أهمل العقل فقد أسقط كرامته ، ويكفى أنه وضع نفسه فى مكان سحيق بينه الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .

فشبه الله من لا يعقل كالدابة لكونه أصم ، وأبكم ، أو .سماه دابة من غير تشبيه لنفس السبب^(٣) وذلك كله ذم وتقبيح على إهمال العقل والتدبر .
يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٤)
والمعنى ويجعل الرجس أى الخبل والضلال على الذين لا يعقلون حجج الله وأدلتها^(٥) .

وكأن هؤلاء الأقسام قد هياؤا أنفسهم لجهنم ، ووضعوها فى صف البهائم أو أنزل منها ، بسبب أنهم لا يعقلون . بفهمهم . ولا يتدبرون . بحواسهم . يقول

(١) سورة المائدة الآية ٥٨

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٢

(٣) مفاتيح الغيب ج٤ ص٥٣٠

(٤) سورة يونس الآية ١٠٠

(٥) تفسير ابن كثير ج٥ ص١٤١ هامش فتح البيان

تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَئِكَ كَآلٌ لَّا تَعْمُرُ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۙ﴾^(١)

وإنما كانوا أنزل من الأنعام لأن الإنسان ، وسائر الحيوان كما يقول الرازى
يشاركان فى قوى الطبيعة الغذائية ، والنامية ، وللمولدة ، وينتشاركان. أيضاً فى
منافع الحواس الخمس الباطنة ، وللظاهرة ، وفى أحوال التخيل ، وللتفكير ،
والتذكر ، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان ، وسائر الحيوانات فى القوة العقلية
، والفكرية التى تهدية إلى معرفة الحق لذاته ، وللخير لأجل العمل به ، فلما
أهملوا العقل ، والفكر كانوا كأنعام بل هم أضل لأن الحيوانات لا قدرة لها على
تحمل هذه الفضائل ، والإنسان يستطيع ، ولم يفعل^(٢) .

وواقع الآيات يدعو إلى النظر العقلى عن طريق التأمل فى الآيات الكونية
والمعنوية ذلك لأن ترك النظر يعمى عقل الإنسان عن الآيات البينات .

يبين أبو السعود هذا الواقع بقوله : فى هذا حث للناس لأن يسافروا ليروا
ويعتبروا بما حدث لمن ظلم نفسه .

ولتأكيد الاعتماد على العقل نجد القرآن الكريم يحذر الإنسان من فساد
المكهان ، ولأحبار ، أينما كانوا ، فأسقط سلطانهم ، ونفى عنهم القدرة على
التحليل ، والتحرير ، وبين ذلك حتى لا يندخ أحد بهم فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(٢) تفسير مفاتيح الغيب ج٢ ص٤٧٢

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ .

وذلك لأنهم فوق محافظتهم على المال يكنزون الذهب والفضة ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، ويحوزون ثقة الناس . ، ويصلون في نظر متبعيهم إلى القداسة كما حدث من اليهود والنصارى حيث يقول الله تعالى عنهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقد بين الاستعمال ، . وللعرف . أن الأحرار . مختصون باليهود . ، وللرهبان مختصون بالنصارى ، إلا أن ذكرهم معاً يفيد أيضاً التحذير ممن له صفة دينية أيا كان اتجاهه ، كالرهبان . ، أو من يتصل بهم تعليماً . ، وفقهاً كالأحرار . ذلك لأن الوضع اللغوي يفيد أن الراهب من ظهرت آثار الرهينة على وجهه ولباسه ، والحبر هو العالم الذي يحسن البيان ، ويحبر المعاني (٣) .

وبعد أن يترك الإنسان اتباع الهياكل الدينية ، والأسلاف . ، عليه أن يجهد عقله في البحث عن الدليل ، والوصول إلى النتائج عن إقناع . ، ويقين . ، حتى تكون عقيدته كما تريدها الدعوة لمعتنقيها أمينة ، صحيحة .

ومن أجل المحافظة على المقدرة الكاملة للعقل لم تقم الدعوة الإسلامية أساساً على المعجزة الحسية الخارقة للعادة . ، لأن صاحبها لا يثبت بها وحدها أمام المجادلة ، والشكوك ، ولذلك لما طلبها المشركون . ، وقالوا للنبي ﷺ . ، ما

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) سورة التوبة الآية ٣١

(٣) مفاتيح الغيب ج٦ ص٥٢٤

حكاه الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَيْنٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۗ ۝۱﴾ .

لما طلب المشركون هذه المعجزات الحسية أنكرها النبى ﷺ عليهم وقال لهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾ .

وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى اقتناع كامل ، وفهم دقيق ، ولو تم الإيمان عن طريق المعجزة الحسية لكان تسليماً لا يتساوى مع طلعة العقل المدرك الذى يفحص ويفهم ، وإنما أنكر الله مطالبهم بهذه الشدة ، لأنهم طلبوها بعد ما أتاهم القرآن مفصلاً مشتملاً على أدلة التوحيد ، مشيراً إلى قصص السابقين ومبيناً موقفهم من الإيمان والكفر ، فلما طلبوا الآيات الحسية بعد ذلك أكدوا كفرهم وعنادهم ، وقالوا ما قالوا فكان المناسب أن ينكر الله طلبهم بشدة ، وقوة . وكان من الممكن أن يترك الإنسان ليهتدى بعقله وحده ، لكن ضلال الفكر فى الدين يوم ظهور الدعوة صنع عائناً أمام العقل ، فكان الوحي لازماً بعد ذلك لينبئه ويذكره ، لأن مهمة الرسول ﷺ هى توجيه العقل نحو الطريق السوى ، ومثله فى الناس كمثل المبصر الذى يأخذ بيد الأعمى ، ويوصله إلى رأس الطريق ، ثم يتركه يذهب إلى بغيته .

ومن هنا كان القرآن وهو معجزة الإسلام الكبرى مفهوماً ، ومطابقاً لقوانين الفكر ، ولذلك لم ينكره عقل ، وإن عجزت سائر العقول عن مجاراته .

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من التساؤلات المتعلقة بأصول الدين التي جاءت على السنة الرسل عليهم السلام ، لتكون سراجاً منيراً أمام العقل يزيح به كل ما يعترضه في تحقيقه واطمئنانه ، وليثبت الإيمان بالنظر والدليل .

ومن هذه التساؤلات سؤال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۗ قَالَ أُولَٰئِكَ ثَوَمِنٌ ۗ قَالَ بَلَىٰ ۗ ﴿^(١) وسبب السؤال يبدو من قول إبراهيم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۗ ﴾ فهو سؤال يتعلق كما ترى بالبعث ، وهو من أهم مسائل الاعتقاد .

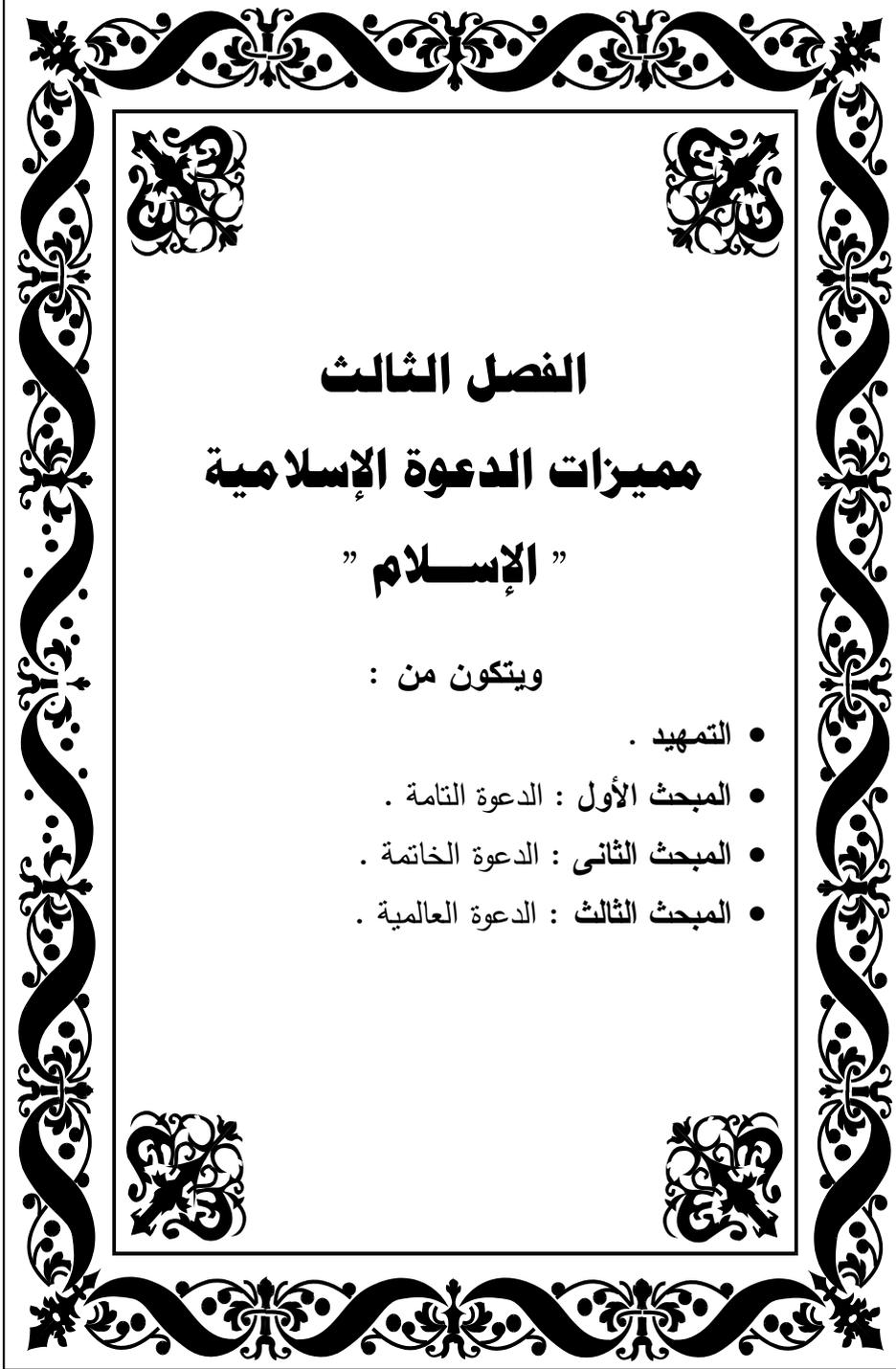
ومنها سؤال الحواريين لعيسى عليه السلام ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۗ ﴿^(٢) ، وسبب السؤال قولهم : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۗ ﴿^(٣) وهو سؤال يتعلق بالقدرة الإلهية ، وهي من أهم مسائل العقيدة ذلكم هو العقل في الإسلام نجاه من القهر والإجبار . ، وخاطبه بالحسنى ولأنزل له القرآن ، وساق أمامه الدليل ، وجعله سيد صاحبه يقوده إلى الخير ، والإيمان ، ويرفع عنه ظلمات التبعية ، والتقليد ، ويربطه بالحقيقة دائماً .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠

(٢) سورة المائدة الآية ١١٢

(٣) سورة البقرة الآية ١١٣

(9.)



تمهيد :

كلف الله تعالى رسله ، وبعثهم إلى أقوامهم خاصة ، لتتفق كل رسالة مع من جاءتهم .

وقد نشأت البشرية على البداوة ، وأخذت في التطور والتقدم ، الأمر الذى أدى إلى تعدد الرسائل تبعاً لتنوع الفكر ، وتطوره .

لقد بدأت الإنسانية بفكر بسيط فجاءتها دعوات الله بسيطة سهلة ، فلما انتقلت البشرية إلى مرحلة أعلى فى الفهم ، ولالإدراك أمتها رسالات جديدة مناسبة لها ... فلما تم نضج الإنسانية ، وتكامل عقلها ، ونضج فكرها ، أتتها الإسلام ملائماً لكمال النضج ، وتمام العقل .. فكمل الرسالات السابقة ، وأتمها ، فتم بذلك الدين وأصبح الإسلام دين العالم كله إلى يوم القيامة .

يصور النبى ﷺ هذه الحقائق فى قوله ﷺ : " مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً ، فأحسنه ، وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " (١) .

فالدار هى الدين ، وصاحبها هو الله عز وجل ، وللبناة هم رسل الله ، ومحمد ﷺ هو آخرهم ، وخاتمهم ، وبه تم الدين ، وكملت النعمة .

وفى هذا الفصل سنتناول الخصائص التى تميز بها الإسلام ، وذلك فى

المباحث التالية :

- المبحث الأول : الإسلام هو الدعوة التامة .
- المبحث الثانى : الإسلام هو الدعوة الخاتمة .
- المبحث الثالث : الإسلام هو الدعوة العالمية .

وذلك فيما يلى :

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب ذكر كون النبى ﷺ خاتم النبيين ج٧ ص٦٤ ، ٦٥

المبحث الأول

الإسلام دعوة تامة

بعث الله محمد ﷺ بالإسلام ، وختم به سائر الأديان ، وضمنه من التعاليم ما يكفى الإنسانية كلها ، ويأخذ بيد الكافة إلى سعادة الدنيا والآخرة فى كمال ، وتمام .

ومن دلالات تمام الإسلام ما يلى :

- أولاً -

ضمان ضروريات الحياة

الإنسان مكون من مادة وروح ، ولا بد له من إشباعهما معاً بقدر متوازن حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، فلا إهمال للنواحي الفكرية ، والعقلية ، ولا إجحاف فى حق الجسد ، والبدن .

إن الإسلام يرى أن الجسد وعاء الروح ، ولا بقاء للروح إذا انعدم الجسد ، كما أنه لا قيمة للجسد إذا خلا من الروح ... ولذلك ذهب الإسلام إلى ضرورة المحافظة على النفس ، والولد ، ضماناً للجسد ، واستمراريته ، وللمحافظة على المال . صيانة لما يغذيها ، ويمدهما بأسباب الحياة كما ذهب إلى المحافظة على العقل وللدين صيانة للفكرة ، وللعقيدة ، ومحافظة على المروج والخلق ... وبذلك يضمن الضرورات التى لا بد منها للإنسان . ليعيش كريماً ، بمادته ، وروحه .

ومن أهم ضرورات الجسد أن يكون له مال مضمون يكتسبه ، وينفقه على معاشه ، وحياته ، لأن المال ضرورة لازمة ، فبه يتغذى الجسم ، وينمو ، ويمكنه البقاء .

والروحانيون الزاهدون يرون أنه لا بد من تغذية الجسم بالمقدار. الذى يكفل البقاء ، محافظة على الروح ، وبذلك كان المال حبيب الناس ، ومعشوق البشر ، وضرورة هامة للجميع .

ومن أهم ضرورات. الجسد كذلك المحافظة على ذات. صاحبه . وعدم تعريض نفسه للهلاك ، ذلك لأن النفس المريضة لا تصنع لصاحبها نفعاً . ولا تجلب له إلا الأذى والألم ، وإن هلكت النفس انقطعت الحياة ، ولنعدم الإنسان نفسه .

ومن أهم ضرورات الجسد أيضاً ، أن يحافظ له على بقاء. نوعه فى صورة ضمان الحرص على النسل الذى جعله الله زينة ، وأملاً لصاحبه ، وفى الوقت نفسه يضمن بقاء النوع وامتداده .

وليضاً فإن. الروح تحتاج إلى الفهم . وللتصرف . وللتدبر . عن طريق ضمان صيانة العقل ، والمحافظة على حريته ، فى الفهم ، والتدبر . وتحتاج كذلك إلى ضمان عقيدتها التى آمنت بها . وعدم اضطهادها بها وأن تكون تلك العقيدة هى دين الفطرة ، والإنسانية .

فتحقق بذلك أن. ضرورات. الجسد وللروح معاً خمس هى : حفظ المال ، والنفس ، والنسل ، والعقل ، والدين ... وهى جميعاً مترابطة يكمل بعضها بعضاً لأن النفس لو هلكت لانعدم من يتدين . ولو انعدم العقل لارتفع التكليف ولو انعدم النسل لانعدم الجنس البشرى ، ولو انعدم المال لم تبق حياة .

إن. هذه الأمور. الخمسة هى الضرورات. التى تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة وبالمحافظة عليها تتحقق السعادة ، وينتشر السلام .

يقول الشاطبى : ومجموع الضرورات خمسة وهى : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وهذه الضرورات. إن. فقدت. لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهاجر وفوت الحياة ، وفى

الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين^(١) .
وتسمى هذه الضرورات. بالضرورات. العقلية لأن. العقل هو الذى يؤكد
ضرورتها فهي لازمة لكل إنسان .

ـ ثانياً ـ

شمول التشريع

الناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية ، يرى أنها كانت مع الإنسان جنيناً
فى بطن أمه ، وبعد مولده ، وفى شبابه ، ورجولته ، وتساييره هكذا. فى أطواره
المختلفة حتى تسلمه لأجله ، ويرى أنها تضع القوانين التى تمهد لوجود الإنسان
مستقيماً سوياً فى الدنيا ، وفى الآخرة ، وتنظم سائر ما تركه بعد موته .
ولا تفرق الدعوة بين ذكر ، أو أنثى ، ولا تضع فى اعتبارها ميزة للون. أو
لجنس ، أو لعارض من عوارض الدنيا كالمال ، والجاه ، والأسرة ، وبذلك يحقق
التشريع الإسلامى ، الإخاء والعدل . وللحرية . وللمساواة . وتلك الأمور. هى
غاية ما تتمناه الإنسانية الرشيدة لنفسها .

ـ ثالثاً ـ

مراعاة طبيعة الإنسان

تناسب الدعوة الإنسان وتتفق مع فطرته ، ذلك أن الإنسان كائن يحس بما
حوله ، ويرغب فى الاتصال به ، والتعاون معه . وهو فى إحساسه هذا. يشعر
بقوى غيبية لا يدركها فيتمنى أن يحيط بها ، ومن هنا تأتى الدعوة محققة كافة
مطالب الإنسان ، ورغباته ، فتوضح له هذه القوى الغيبية . وتركزها فى عقيدة
تعرف بالله وعبادته ، وتدعو إلى الإيمان بالرسول ، والملائكة ، والكتب . ولليوم

(١) الموافقات ج ٢ ص ٨ ، ١٠

الآخر ، وتضع له شريعة تمكنه من الاتصال بالناس ، والتعاون معهم ، وتتمم مكارم الأخلاق. التي تبين الحسن في كل شيء وتحتمه . وهكذا. ناسبت الدعوة حقيقة الإنسان في سائر تعاليمها .

وهي . أيضاً . جعلت المصالح مرتبة على تنفيذ التكاليف . . وتلك حكمة إلهية ، حيث ربط الله الأسباب بالمسببات ، لتعريف العباد عند وجود الأسباب ما يترتب عليها من خير . وما يترتب عليها من شر . ولو شاء الله سبحانه لقطع كل مسبب عن مسببه . ولخلق المسببات. كلها مجردة عن الأسباب. في مطرد العادة ليكون طريقاً مسلماً يعرف الناس منه أن الاتباع الدقيق يهدى للتي هي أقوم ، وأن الله لا يضيع أجر من يحسن عمله .

والدعوة . كذلك . تبين علل بعض المسائل الأساسية . . وللفرعية توجيهاً للإنسان ، حتى يعرف أن سائر التكاليف تهدف مصلحته ، وخيره . ويدرك أن الله لم يشرع أمراً ، أو يوجد خلقاً إلا لحكمة ومصلحة ، وكل شيء عنده بمقدار .

- رابعاً -

اليسر ورفع الحرج

الدعوة الإسلامية ميسرة لأن. جميع عبادات. الدين سهلة . لا. عناء. على الفرد في أدائها ، والمحافظة عليها . فالصلاة مثلاً عبادة فرضها الإسلام. على المسلمين ، ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل ، والنهار ، وجعلها خمساً ، تؤدي في أوقات خمسة ، لا تستغرق. في جملتها سوى دقائق معدودة وحتى لا يغفل الإنسان عن مواقيتها شرع معها الأذان. إعلماً بوقتها . لكي يؤديها وقتاً وقتاً ، فلا تتراكم وتترك. . أو. تضيع أفعالاً. أخرى . بسبب تراكمها . وللصوم فريضة مقدرة بشهر واحد في السنة . وللزكاة لا. يؤديها إلا. المستطيع . وللحج مفروض على من استطاع إليه سبيلاً .

وهى فرائض خالية من الحرج تماماً ، يقول الشاطبي : ولعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين :

أحدهما : الخوف من الانقطاع فى الطريق ، وبغض العبادة ، وكرهية التكليف .

والثانى : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف ، المتعلقة بالعبد ، المختلفة الأنواع مثل قيامه على أهله ، وولده إلى تكاليف أخرى تأتى فى الطريق^(١) .

وهكذا ينتفى الحرج من التكاليف محافظة على الدين ليبقى ، ومحافظة على العبد ليقوم بكافة وظائفه .

ولا يقف تيسير العبادة عند بساطتها ، بل إن الشريعة تلاحظ أضرار الناس وتخفف عنهم العبادة على قدر طاقتهم ، فالوضوء لا ينقض بسبب سلس البول أو الرعاف الدائم ، ويستبدل به التيمم ، والمسح على الخفين ، وعلى الجبيرة .
والصلاة تسقط عن الحائض والنفساء ، وتقتصر على المسافر ويتسامح فى بعض شروطها للمريض ، والمعاجز ، وللخائف ، وفى وقت المطر ، وللصوم يؤجل ، ويفدى عنه ، والحج فيه تخفيف كثير على أصحاب الأعذار .

يقول العز بن عبد السلام مبينا أنواع تخفيفات الشرع على المكلفين :

" والتخفيفات أنواع منها تخفيف الإسقاط كإسقاط الجمعات ، وللصوم ، وللحج ، وللعمرة بأعذار معروفة ، ومنها تخفيف التنقيص كقصر الصلاة ، وتنقيص الركوع ، والسجود عن المريض إلى القدر الميسور له ، ومنها تخفيف الإبدال كإبدال الوضوء ، والغسل بالتيمم ، وإبدال القيام فى الصلاة بالقعود ، وإبدال العتق بالصوم وإبدال بعض واجبات الحج ، وللعمرة بالكفارات. عند قيام الأعذار. ومنها : تخفيف التقديم كتقديم العصر إلى الظهر وللعشاء إلى

(١) الموافقات ج٢ ص١٣٦

المغرب فى السفر ، والمطر ، كتقديم الزكاة على حولها ، ومنها تخفيف التأخير كتأخير الظهر إلى العصر ورمضان. إلى ما بعده ، ومنها تخفيف الترخيص كصلاة التيمم رفعا للحرص وبعداً عن المشقة^(١) .

وهذه العلامات المذكورة بعض أدلة تمام الدعوة ، وللواقع التطبيقى خير شاهد ، فلقد مضى خمسة عشر قرناً على مجئ الدعوة الإسلامية ومع ذلك فما زالت تشريعاتها محكمة ، دقيقة ، تناسب الإنسان فى تقدمه ، وتطوره وهى على ما نزلت عليه بلا تغيير ، فى الوقت الذى تتبدل فيه قوانين البشر يوماً بعد يوم. إن الإنسان فى الشرق ، وفى الغرب ، فى الحضر ، وفى البوادرى ، يلمس مصلحته فى الدعوة الإسلامية ، وفى تشريعاتها له كفاية .

المبحث الثانى

الدعوة الخاتمة

ارتبطت الدعوات. السابقة بأقوام معنيين فى وقت معين ،. وهذا. جعلها قاصرة عن أن تكون لغيرهم ،كما جعلها غير صالحة لنفس القوم بعد تطورهم . ومن هنا كثرت الدعوات ، وتنوعت وسائلها ، إلا أنها جميعاً لم تأت. عبثاً ، أو بالمصادفة ، وإنما أتت لأسباب ضرورية دعت إليها ،. ويمكننا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

السبب الأول :

أن تختلفى تعاليم الرسالة السابقة بسبب بعد الزمان .، أو. لاضطهاد. المطغاة أو لغير ذلك من الأسباب ، مما يؤذن بانتشار. جهالة وسط الناس. تبعدهم عن هدى الرسالة وصفائها ،. وتعزلهم كلية عن الله تعالى ،. وهذا. الموضع يجعل للناس عذراً. فى ضلالهم لأنهم لم يسمعوا. برسالة .، ولم تأتهم أيضاً رسالة بعد الرسالة السابقة .

فى هذه الحالة تأتى رسالة الله تعالى ، تذكر القوم بما نسوا .، وتحىي لهم ما غاب عنهم .

ولهذا. رأينا سائر رسل الله تعالى يأتون. إلى قوم سيطر العمى عليهم ، وبعدوا كلية عن دين الله ، فعبدوا الأصنام .، ولالأوثان .، ولتخذوا من دون. الله آلهة ، وابتعدوا عن أخلاق الدعوات السماوية ، ورأينا الرسل وكأنهم يدعون بيئة واحدة ، لأن أصول هذه الدعوات كانت واحدة ، وما كان. ذلك كذلك إلا. لتتحقق هذا السبب مع كل رسالة .

السبب الثاني :

أن يردد البشر الذين نزلت الرسالة فيهم عن مستواهم يوم أنتهم هذه الرسالة ، أو يتقدموا عن مستواهم السابق ، لدرجة تجعل الرسالة معهم قاصرة ، وهذا وحده سبب يؤذن بضرورة وجود رسالة أخرى ، حيث أدت الرسالة الأولى دورها ، وأصبح على الرسالة الجديدة أن تصدق بالرسالة السابقة ، وتكمل بما يحتاجه الارتقاء البشرى .

وقد يكون هذا السبب أحد أسباب كثرة الأنبياء في بنى إسرائيل الذين تغيرت معجزاتهم وتباينت في بعض الأحيان مواضعهم ، وما كان ذلك كذلك إلا لإرتقاء وتطور كانا يحدثان في بنى إسرائيل ، والتغاير بين دعوة موسى عليه السلام ، وبين دعوة عيسى عليه السلام مع أنهما لقوم معينين تظهر ذلك بوضوح .

السبب الثالث :

أن يحتاج البشر في مكان ما إلى رسالة غير الرسالة الموجودة في مكان آخر ، بسبب تغاير البشر تبعاً لاختلاف البيئات ، وقد حدث هذا مع رسالات الله السابقة يوم أن كان البشر منعزلين عن بعضهم فكرياً ، ومكاناً ، مما أدى إلى تعدد الرسالات في وقت واحد ، فلقد أرسل الله تعالى لوطاً عليه السلام إلى أهل "سدم" في دائرة الأردن ، وأرسل إبراهيم إلى قومه في أرض "بابل" بالعراق ، وتوزع أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى في أماكن عديدة في أقوامهم ، وكثير منهم جاؤوا في وقت واحد .

وقد حدث في بعض الحالات أن أرسل الله تعالى أكثر من رسول ، إلى قوم معينين ، في وقت واحد ، كما حدث مع موسى عليه السلام فإن أخاه هارون أرسل

(١٠٢)

معه وكما حدث. فى " أنطاكية " . إذ أرسل الله إليهم رسولين معاً فكذبوهما ، فعززهما الله برسول ثالث ، فقالوا جميعاً لقومهم ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾^(١) .
ويبدو . أن سبب ذلك هو عتو المقوم . ولستكبارهم . مما جعل الله يؤيد رسوله بأخر سنداً له ، يشد أزره . ويشاركة الرأى . وللمشورة . ولا ضرر . فى ذلك فالرسالة واحدة ، والرسل يتعاونون فى تبليغها إلى من أرسلوا إليهم .
وبالنتبع المتارىخى لسائر رسالات . الله نرى أنها لم تأت . إلا لواحد من الأسباب المذكورة ، بل أن النظرة العقلية الشاملة ، لا تجد سبباً سوى هذه الأسباب .

ولا يصح مطلقاً أن يتصور إتيان رسالة لغير سبب . لأن حكمة الله جلا وعلا تنتزه عن ذلك ، والنقل ، والعقل يؤكدان أن سائر الرسالات جاءت لهدف ، وبعد وجود سبب يدعو إليها .

وجود الأسباب قبل الإسلام :

وقد جدت الأسباب التى من أجلها . يرسل الله رسله قبل الإسلام . بكل وضوح حيث انتشر الضلال فى كل مكان ، واختفت التعاليم الصحيحة لرسالات الله . وكان كل الموجود . فى كل أرجاء المعمورة مسميات الأديان . فقط . مع اختفاء تعاليمها ، ونسكها ، ومن هنا اتخذت الأديان صورة الوثنية حيث اتجه اليهود إلى المادة ، ونظروا إليها نظرة التعظيم والأجلال . ونشروا فى الأرض الربا والفساد ، ولم يؤمنوا بدعوة عيسى عليه السلام .

ولتجه المنصارى . إلى تثليث الإله . حيث جعلوا الألوهية جامعة لله ، وللمسيح ، وللروح القدس ، وقدسوا أم المسيح عليه السلام . لأنها أم الإله فى نظرهم ونسجوا حول عيسى خصائص لم تكن له ، استنباطاً من آية خلقه ، ونشأته .

(١) سورة يس الآية ١٤ .

واتجه العرب إلى اتخاذ الأصنام ولالأوثان. مدعين أنهم على دين إبراهيم
عليه السلام .

واتجه الفرس إلى عبادة النار ، وإلى الشيوعية المطلقة فى المال والمرأة .
واتجه الهنود إلى الطبقة البرهمنية المقدسة ، وخصوصها بالتقديس وللطاعة
وكل ذلك ضلال ساد العالم قبيل الدعوة الإسلامية ، مشيراً إلى تحقق السبب
الأول الذى من أجله تأتى رسالة الله .

صحيح أن موجه من النقد أخذت تتجه إلى هذه المفاصد تبغى إصلاحها ،
وتبحث عن الحقيقة التى يجب أن تسود الناس ، لكن هذه الموجه لم تصل إلى
غرضها لاعتمادها على منهج العقل البشرى وحده ، بعد غيبة دعوات الله ،
والمهم أن السبب الأول قد وجد قبل الإسلام مما دعا إلى وجود الرسالة .

وقد وجد السبب الثانى : أيضاً حيث وصل المنضج العقلى إلى مستوى
كامل من الرقى ، ولنتقل البشر من طور. المحسوس. وحده إلى طور. الإدراك
العقلى .

ولم يعد للبيئة أثرها السابق فى عزلة الناس. وتنوع إدراكاتهم ، لدرجة أن
اتجاهاً إلى التوحيد ساد العالم كله ، وأمام هذا المنضج أصبحت بقايا الدعوات
السابقة غير صالحة للناس . مما دعا إلى وجود دعوة إلهية تناسب الناس ،
وتهديهم إلى الله تعالى .

ويسبب المنضج العقلى ، وتعدد الاتصالات بين مناطق العالم المختلفة ، لم
يعد لاختلاف الأمكنة أثرها فى اختلاف الأمزجة ، والطباع ، على نحو ما كان
فى القديم ، وأصبح من الممكن أن تأتى رسالة شاملة لكل الأماكن ، عامة
لسائر البشر مراعية للاختلافات الضرورية بين الناس .

ومن هنا وجدت الدعوة الإسلامية ، واضحة بهديها وتعاليمها أمام الناس
، مناسبة للكمال البشرى وتطوره ، متجهة إلى العالم كله .

(١٠٤)

وأصبح الناس بعد مجئ الدعوة الإسلامية مكلفين بها ، فمن استقام نال الخير والثواب ، ومن عصى حقت عليه لعنة الله .

هل هناك دعوة أخرى بعد الإسلام ؟

وعلى الفور- نجيب بأنه لن تكون- هناك- دعوة إلهية بعد الإسلام . كما تظهره الحقيقة المجردة .

إن الأسباب التي تدعو إلى وجود رسالة من الله لن توجد بعد الإسلام أبداً ، وذلك كلام موضوعي لا تعصب فيه ، ولا عاطفة .

إن تعاليم الإسلام لن تغيب عن الناس وسوف تبقى ثابتة ، وكل المشواهد تدل على ذلك .

فهي . أولاً . مجموعة من الحقائق فى العقيدة . وللمشريعة . وللأخلاق وللحقائق لا- تتغير مهما تغير المكان . ، أو- تغير الزمان .- وما هو ثابت فى نفسه يستوى فى ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق . ، أو- عند قيام الساعة .

وهى . ثانياً . مسجلة فى القرآن الكريم . الذى نقله جبريل عن الله بأمانة تامة . ، ونقله كذلك محمد ﷺ عن جبريل ، ونقله المصاحبة عن رسولهم ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون حتى بلغت به إلينا ، مثلما نزل قبل خمسة عشر قرناً ، وسنورثه بإذن الله تعالى غيرنا ، وهكذا إلى يوم القيامة .

إن ثبوت القرآن الكريم متحقق بمداومة المسلمين على تلقيه وكتابته ، وهو كذلك إلى الأبد . ، وفى العصر الحديث سجله المسلمون- ترتيلاً على الآلات الخاصة بذلك وبثوه بواسطة الأقمار الصناعية إلى العالم كله .

وتعاليم الإسلام . ثالثاً . ولقعية بمعنى إنها تعایش الإنسان . ، وتقدم له الحلول العلمية والعملية لمعاشه ، ونشاطه ، وتحيط به فى النواحي التى يتجه إليها ، وبذلك تحقق لدى الناس تنكراً دائماً لها .

إن تعاليم الإسلام ليست رهينة ، وليست عزلاً . وليست ملائكية . ولكنها للبشر على مستوى إدراكهم ، وذلك سر نجاحها وخلودها .

و . رابعاً . فإن رسول الإسلام محمد ﷺ معروف بوضوح ... وسائر أعماله وأقواله ، وصفاته ، وأخلاقه ، مسجلة بدقة ، وقد تتبعها مؤرخو المسيرة بالدرس ، والفحص ، حتى جلوها للمسلمين لتبقى حية في العالمين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما جماع الدعوة ، ودستورها .

يقول أبو الأعلى المودودي : إن هداية النبي ﷺ لا تزال حية في متناول الأيدي ولا حاجة إلى نبي آخر يجدها ، ويعرضها على الناس مرة أخرى^(١) .

وهكذا فتعاليم الدعوة ما غابت ، ولن تغيب ... هذه واحدة ..

وأيضاً : فإن تعاليم الإسلام لن تقصر عن البشر مهما وصل مستواه ، لأن تعاليم الإسلام اتجهت لسائر دعوات الله السابقة وصدققتها ، وكملت بما يناسب الرقى الإنساني .

وقد بين الله تضمن الإسلام للكمال والتمام بقوله تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢) حيث كمل الدين ، وتمت النعمة ، ورضى الله أن يكون الإسلام ديناً للعالمين .

وإنما عبر بالكمال ، والتمام ليشير إلى ارتباط الدعوة الإسلامية بالدعوات قبلها ، وأنها معهم مكتملة ومتممة .

وعلى ذلك فالإسلام دعوة احتوت كل الدعوات السابقة ، وهيمنت عليها وهو بذلك مصدق لما سبق ، مكمّل بما أتى ، مهيمن بحقيقته على كل ما مضى .

(١) مبادئ الإسلام ص ١٦٠

(٢) سورة المائدة الآية ٣

وقد راعت تعاليم الدعوة الإسلامية في هيمنتها الارتقاء العقلي الإنساني فدعت إلى وحدانية مطلقة لله ، في الذات ، وللصفات ، وللأفعال ، ولجثتت الوثنية بأشكالها ، وألفاظها ، وتأثيراتها السيئة ، على الأفراد ، وعلى الجماعات بحيث لا يخضع الإنسان إلا لخالقه ، ولا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى .

وأيقظت الدعوة العقل من نومه فعابت على المقلدين ولأتباع الذين كان شعارهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾^(١) . وأمرت بالنظر والتدبر ، ووجهت الإنسان إلى الآيات وللبراهين الكثيرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣) ويكفي إن المعجزة الخالدة للدعوة الإسلامية كانت القرآن الكريم الذي خص العقل بالخطاب ، وأعطى لقوة الكلام وصحة الدليل حقه الأصيل ، ولم يكن أخذاً للأبصار . ودهشة للمشاعر والحواس كمعجزات رسل الله السابقين .

ولم تهدم الدعوة الإسلامية الدعوات السابقة ، بل بينت أنها على نمطهم . وأتى الإسلام في كل مجال بتوجيه رائع ، وإصلاح سليم ، ولم يترك مشكلة إلا أزالها ، ولا عقدة إلا حلها ، ولا خطأ إلا أصلحه ، يقول الشيخ محمد عبده : لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات المصالحات إلا أحيها ، ولا قاعدة من قواعد المنظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر ، واستقلال العقل ، وما به صلاح المسجاي ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاء العزائم إلى العمل وسوقها في سبل السعى

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣

(٢) وردت مادة "عقل" في ٤٩ موضعاً في القرآن الكريم

(٣) وردت مادة "فكر" في القرآن الكريم ١٨ مرة .

العديدة^(١) .

وعدم مجئ رسالة بعد الإسلام يعنى أنه الرسالة الخاتمة ، وأنه الدائم إلى يوم القيامة .

وبما ذكرنا يصبح ما نعنيه هنا أمراً مقررأً بالدليل المسلم من المعقل ، والنظر ، وهو ما أرشدنا إليه الله سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾^(٢) .

وعلى هذا فأى مدع لرسالة بعد الإسلام كاذب . وهو مساوٍ تماماً لبعض المعاندين المنكرين للإسلام الذين ينكرونه أصلاً ، أو ينكرون أنه لغير العرب من الناس^(٣) .

ويجب أن يكون. ولضحا أن. رسل الله جميعاً قبل سيدنا محمد ﷺ بشروا برسول الله من بعدهم ، وبذلك أكدوا أن دعوتهم ليست خاتمة ، ولأنها لفترة خاصة من الزمن ، ولقوم معينين ، فلما جاء سيدنا محمد ﷺ عرف الناس أنه الرسول الخاتم الذى مهد له سائر الرسل ، وقد انتهت الرسالات برسالته وختمت النبوات بدعوته ﷺ .

(١) رسالة التوحيد صد١٦٤

(٢) الأحزاب الآية ٤٠

(٣) يدعى البهائيون- وللقديانيون- أنهم أصحاب رسالة ، ولن لهم رسلاً ، كما أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالإسلام حتى الآن ، وذلك كله عناد ، وهوى .

المبحث الثالث

الإسلام دعوة عالمية

الإسلام دعوة تامة ، ودعوة خاتمة ، ومعنى ذلك أن دين الله للناس قد كمل لا يحتاج لإضافات أخرى ، ويعنى أيضاً إنه لا رسالة بعد الإسلام أبداً . ومن مستلزمات هذا أن تكون الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ليصل المتمام الديني إلى كل نسمة فى العالم ، وحتى لا يعتذر أحد فى العالم بحجة عدم وصول رسالة الله إليه .

وعالمية الإسلام أحد الميزات فيه ، لأن سائر رسالات الله السابقة كانت خاصة لقوم معينين ، ولزمان معين ، على نحو ما بيننا .

وعالمية الإسلام مقررة ، ومسلمة بما وضع الله فيه من خصائص .

فهو . أولاً . لم يرتبط اسماً باسم شخص أو قبيلة كما ارتبطت اليهودية بـ"يهوذا" وكما ارتبطت المسيحية بالمسيح ، أو بأنصار المسيح ، ولكن الإسلام ارتبط بأمل يراود الناس جميعاً ، ذلك الأمل هو السلام ، لأن السلام هو الهدف الأكبر للدعوة الإسلامية ، وهو فى الوقت ذاته الهدف الأسمى للإنسانية . ويرتبط الإسلام بأمل آخر تندفع إليه الفطرة الإنسانية ، ذلك هو تسليم الأمر لله فى إخلاص ، وطاعة ، وبذلك يشبع قوة الموجدان عند الإنسان ، ويكمل الإرادة له ويطرد اليأس والقنوط ، ويجعله يتعلق برجاء فى القوة الغيبية التى يحس بها ويستشعرها .

ولمّل الإنسان فى السلام وللتسليم هو الذى جعل رسالات الله السابقة تتسمى بالإسلام ، جذباً للناس ، ولإشارة إلى الغاية التى يجب أن ينتهى إليها سائر البشر ، وهى الإذعان لله وحده ، وتسليم الأمر له سبحانه .

والإسلام - ثانياً . حدد تعاليمه بدقة متناهية ، فجميع عناصر العقيدة ، وجميع الفرائض العينية من الشريعة ، مفصلة بحكمة ، ولحاطة ، لدرجة أنها غير قابلة لزيادة ، ولا لنقص ، لأن أى تغيير فيها يلغيها ، ولما بقية أمور الشريعة ، وكافة جوانب الأخلاق ، فقد وضع الإسلام لها القواعد العامة التى ترسم للفقهاء من المسلمين مبادئ اجتهاد فى فروع هذه القواعد العامة .

وهذا التحديد يدل على عالمية الإسلام لأن الأمور المحددة هى الأمور الثابتة التى لا تختلف تبعاً لاختلاف الزمان والمكان ، كالإيمان بالله ، وللصوم مثلاً إذ من الإمكان تطبيقها على حقيقتها فى كل مكان ، وفى كل زمان ، أما الأمور المحددة قواعدها فقط فهى المسائل التى تختلف تطبيقاتها زماناً ، ومكاناً كالجهاد فإن وسائله تختلف ، وكالشورى فإن تطبيقاتها تتغير وكالعلم فإن موضوعاته تتقدم وتخصصاته تختلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن تعاليم الإسلام ثابتة ، لظهر لنا بيقين أن تعاليم الإسلام دليل على عالميته .

والإسلام - ثالثاً . يركز على الجانب الأخلاقى ، بل أنه يطلبه فى أعمال المباطن وللظاهر معاً ، ويرى أنه الهدف الأساسى للإسلام ، وأنه المنتيجة الحتمية للتطبيق الصحيح للإسلام ، يقول النبى ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (١) والتركيز على هذا الجانب يعنى الاتجاه إلى سعادة الناس فى الدنيا وفى الآخرة ، وهذا وحده كفيل بإثبات عالمية الإسلام .

والإسلام - رابعاً - يوضح بجلاء اتفاقه مع الدعوات السابقة فى أصولها ، وهو لذلك يؤمن بسائر المرسل ، يصدق بدعواتهم ، ويبين تعاليمهم وبعض شرائعهم ، وهذا جمع للأسرة الإنسانية فى إطار الدعوة الإسلامية ، ولذلك يجد الجميع تكريماً لرسولهم فى هذا الدين مما يجعلهم يؤمنون بهم ، وهم يؤمنون بهذا الدين .

(١) موطأ الإمام مالك ج٤ ص٩٢ باب ما جاء فى حسن الخلق

وعالمية الدين لا. تتناقض مع ظهوره بين العرب. أولاً. ، وعلى يد رسول عربى ولا. مع ظهوره فى القرن السابع الميلادى ،. لأن ذلك كله كان. بعض العوامل المساعدة على انتشاره فى العالم ،. وبلوغه إلى الناس. أجمعين لمزاليا علمها الله فيه فوضعه هذا الموضع.

ومن أجل هذه العالمية كانت نداءات. الدعوة الإسلامية إلى الناس أجمعين حيث صدرت آيات الدعوة إلى الله بقوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، ﴿ يَسْبِيحُ ءَادَمَ ﴾ .

ولم تقف العالمية عند النداء. بل شملت سائر المتكالييف ،. ومن هنا رأينا آيات القرآن الكريم تتجه إلى بنى إسرائيل وتجادلهم ، وتتجه للمجوس ، وللذين أشركوا ، والذين كفروا ، والقائلين بالدهر ، وعبدة الأصنام ، والأوثان ، وتناقشهم فى معتقداتهم الباطلة ، وتدعوهم إلى طريق الله المستقيم .

إن آيات القرآن الكريم تشير إلى عالمية الإسلام بما ذكرنا ، بل إنها تذكر هذه العالمية صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ^(٢) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٢) سورة الفرقان الآية ١

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨

(١١١)

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١﴾ .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (٢) .

فهذه الآيات تفيد صراحة أن الدعوة الإسلامية للعالمين ، وأنها تعم جميع
المعاصرين لنزول القرآن ، ومن سيأتي بعدهم إلى يوم القيامة . بل إنها تشمل
الجن والإنس باتفاق جمهور العلماء .

إن تأكيد هذه العالمية من الأمور الهامة في العصر الحديث ، لأن أعداء
الدعوة يريدون إثبات أن الإسلام خاص بالعرب ، وبذلك يثبتون أنه دين جنس
معين كاليهودية ، ويذكرون أن الاتجاه به إلى غير العرب خروج على طبيعة
الإسلام ذاته ، ويتصورون أنهم بهذه الأباطيل سيقفون ضد المد الإسلامي
في أقاليم العالم المختلفة .

وأعداء الدعوة الإسلامية لا يقفون عند حد المنازعة الفكرية ، بل إنهم
لعجزهم يباشرون النزاع المسلح ، ويحاولون إبادة المسلمين من غير العرب . كما
هو حادث في آسيا ، وأفريقيا ، وغيرها .

ومع كل محاولات الأعداء فإنهم سوف يبعون بالفشل ، وسوف ترتد
سائر موجات الإلحاد والتبشير على أعقابها خاسرة مدحورة ، وسوف تبقى في
النهاية الحقيقة المجردة الناطقة بعالمية الدعوة الإسلامية .

إن ما ذكرنا من أدلة سمعية وعقلية لم تكن كافية لرد أفكار الخصوم ،
بل إنهم حاولوا مع ذلك أن يثبتوا خصوصية الدعوة الإسلامية بالعرب ،

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨

(٢) سورة الأنعام ١٩

واستدلوا بما يلي :

أولاً : قالوا إن ظهور الإسلام على يد رسول عربي ، وبين قومه العرب ، ونزول تعاليم الإسلام بلسان عربي ، يوحى باختصاص الإسلام بالعرب ، ولا يستطيع أحد إنكار عروبة الرسول والقوم ، واللسان لقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾^(١) .

والأميون هم أمة العرب يذكرون في مقابلة أهل الكتاب من بنى إسرائيل ويقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٢) . يرى خصوم الإسلام أن التسليم بهذه الأمور الثلاثة يستتبع اختصاص الإسلام بالعرب ، لأن كل دعوة تأتي بلغة قومها .

ثانياً : نظروا إلى بعض الآيات ، وقالوا : إنها تساعدهم في دعواهم ، وهذه الآيات هي قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٣) . وقوله سبحانه ﴿ لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾^(٤) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة الجمعة الآية ٢

(٢) سورة يوسف الآية ٢

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٤

(٤) سورة الشورى الآية ٧

وقد وقفوا أمام هذه الآيات ، وذكروا أن الدعوة الإسلامية متجهة إلى عشيرة النبي ﷺ الأقرب ، وإلى أم القرى " مكة " ، والبوادي حولها ، وإلى العرب ، الذين لم يأتهم رسول من عهد إسماعيل عليه السلام ورأوا استنباطاً من ذلك أن الدعوة خاصة بالعرب .

ثالثاً : ادعى هؤلاء الخصوم أن فكرة العالمية لم تظهر على لسان رسول الله ﷺ ، ولا فى عمله . ولا فى زمنه ، ولكنها ظهرت مع الفتح الإسلامية فى بلاد فارس والروم ، فى زمن عمر بن الخطاب ؓ ، وزعموا تبعاً لذلك أن فكرة العالمية فى الإسلام تعنى السيطرة الاقتصادية ، والهيمنة السياسية ، والاحتلال العسكرى . ويسمون عمر بن الخطاب بالمستعمر العربى .

رابعاً : يحاولون قصر النصوص الدالة على العموم على عموم العرب وحدهم ، فالجميع هم جميع العرب ، والعالمون هم عالم العرب ، والكافة هم كافة العرب .

وأدلة الخصوم باطلة . وقبل إثبات. بطلانها نذكر أنهم فكراً يحاولون قصر الدعوة بالعرب . ، ولأنهم اقتصادياً يحاولون إفقار العرب . ، ولأنهم سياسياً يحاولون عزل العرب ، وذلك كله اتجاه فى الأساس ضد الإسلام ودعوته . ونذكر أنهم يحاولون إلحاق تهمة الاستعمار- بالإسلام . ، وللمصاق. تهم التخلف ، والرجعية بالدعوة الإسلامية . ، ويشيعون ذلك فى العالم ليحولوا بين الإسلام وبين أفكار الناس .

ومن دلالة سوء النية عند منكرى عالمية الإسلام أنهم هم الذين عملوا على تخلف العرب . ، وتمكنوا من إضعافهم . ، وللسيطرة على دعائم تقدمهم ،

وقوتهم ... ومع ذلك يدعون أن الإسلام هو السبب ، وهو الذى أدى إلى تخلف العرب ، ويبرهنون بما فعلوا على تشويه الصورة الحقيقية للإسلام .
ونذكر أن الأعداء تجمعوا ضد الإسلام وحده ، يصدون عنه لأنه الدعوة النشطة الإيجابية ، التى تشتمل على إصلاح الحياة ، ولو تركوها للجماهير حرة لآمن بها الناس ، ودخلوا أفواجاً فى دين الله تعالى ، وحينئذ تضيع أطماعهم ، وتنهزم أهواؤهم ، وأما غيرها من الدعوات فهى بعيدة عن شئون الحياة ، والعيش معها لا يمثل خطورة على فساد .

ونذكر أن واجب الأمة الإسلامية خطير لأن العداء يتجه إلى الدين أولاً وفى الأساس ، وبعد ذلك يتجه إلى كل شئ .
إن على المسلمين التخلص من كل عوامل الضعف ، والتخلف ، ويستفيدوا بتعاليم الإسلام الداعية إلى العمل الجاد ، والخلق الكريم ، والمنادية بكرامة الإنسان والمحافظة على كافة حقوقه ، ومنع أى سيطرة ظالمة ، وقهر العدوان ، والفساد .

وبعد ذلك نأتى لأدلة الخصوم نناقشها موضوعياً لنأتى بالقول الفصل فيها ، وذلك فى كل نقطة على حدة وعلى الترتيب الذى أوردناه فى عرض أدلتهم :

أولاً : نحن نسلم أن الرسول ﷺ عربى ، ظهر فى قومه العرب أولاً ، ولكننا لا نسلم أن هذا دليل على عدم عالمية الدعوة ، لأن الله جعل دعوته فى العرب أولاً ، لأن هذه الأمة جمعت من المزايا ما جعلها خير أمة تصلح لحمل الدعوة وتبليغها إلى العالم كله ، فهى أمة قريبة من التوحيد ، غير منفعة ، بالأصنام ، والأوثان ، وغير خاضعة لطبقة الكهنة ، والأخبار ، ولم تستذلها طبقة سياسية متحكمة ، ولم يوجد فيها نظام حاكم له قوة منظمة ، إلى غير ذلك من المزايا التى وجدت لأمة العرب ، ولم توجد لأمة سواها .

وما دامت هذه الأمة هي الأولى بحمل الرسالة العالمية ، فلا بد أن ينزل الوحي بلغتها ، حتى يفهموا ما ينزل الله ، ويحيطوا بما شرع لهم ، وبعد ذلك ينطلقون به إلى كل الآفاق .

وليس من المعقول أبداً أن ينزل الوحي بلغة غير لغة من نزل عليهم لأنهم حينئذ لا يفهمون شيئاً ، ويصيرون في حكم من لا يعلمون بوحى الله ومن المعلوم أن البشر في العالم وجدوا مختلفين وطناً ، وجنساً ، ولغة ، فلوا اشترطنا اتحاد لغة المدعوة مع سائر اللغات للزم تعدد الرسالة ، أو معرفة الرسول لكل لغات المعالم ، وحينئذ فلن توجد المدعوة الخاتمة ، لأن تعدد الرسالات لا يسمح بوجودها ، ولأن معرفة الرسول لكل اللغات أمر لا يقره عقل ، ولا يستقيم في مفهوم أولى الألباب ، ولكن الرسالة الخاتمة وجدت ، واقعاً ، وهذا يشير إلى أن اشتراط اللغة الواحدة غير وارد ، وغير سديد .

وما المانع في تنوع لغات الناس ، وإتيان الدعوة بلغة واحدة ؟!

وما المانع أن تكون هذه اللغة هي اللغة العربية ؟!

وما المانع أن تكون هذه الأمة العربية هي حاملة الدعوة بلغتها ؟!

لا مانع يمنع ذلك على الإطلاق . ، وقد رأينا في العصور القديمة أن مختلفي اللغة كانوا يتفاهمون بواسطة الترجمة . وللمترجمين . وفي العصور الحديثة تجتمع الأمم جميعاً بلغاتها المختلفة تحت سقف واحد . ويتفاهمون بواسطة الترجمة بلا تعثر أو غموض ، والمؤتمرات العالمية ، ومؤسسات الأمم المتحدة تشهد لذلك . وتؤكد ومن المعلوم أن اللغة العربية غنية بمفرداتها ومرادفاتها ، واسعة بمشتقاتها وميسرة التعليم والفهم .

والعرب أصحاب هذه اللغة هم أقدر الناس ، على إتقان لغات العالم كله حفظاً ، ولفظاً ، وفهماً ، ولو قارنا عربياً وأجنبياً ، في لغة الأجنبي لما بدا فرق بينهما ، أما لو قارناهما في اللغة العربية لبدأ الفرق . ولضحاً ، بين الإثنين في

اللهجة والنطق ، والحفظ ، ولفهم ، وهذا دليل من المواقع يجعل العرب أولى الناس بترجمة تعاليم الإسلام إلى الناس .

ومن أجل التغلب على مسألة تعدد اللغات. أمر النبي ﷺ بتعلم لغات الآخرين قال رسول الله ﷺ لزيد بن ثابت : " أتحسن السريانية إنها تأتيني كتب بها ؟

قال زيد : لا .

قال ﷺ : فتعلمها .

يقول زيد : فتعلمتها في سبعة عشر يوماً^(١) .

وكان أبو جمره يترجم بين الناس وبين ابن عباس^(٢) .

وقد نال موضوع ترجمة معانى القرآن الكريم ، والسنة النبوية قسطاً كبيراً من آراء الفقهاء ، فمن اعتبر ترجمة معانى القرآن ، والسنة إخباراً أجاز أن يقوم به واحد كالأحناف ، ومن اعتبره بينه وشهادة لم يجزه إلا لرجلين معاً ، أو لرجل وامرأتين كالشافعية .

يقول الكرمانى : ولا نزاع لأحد أنه يكفى ترجمان واحد عند الأخبار ، وأنه لابد من اثنين عند الشهادة ، فيرجع الخلاف فى عدد القائمين بالترجمة إلى أنها إخبار ، أو شهادة^(٣) .

وهكذا تكون- العروبة- قوماً ولغة- فى خدمة عالمية المدعوة ، وتكون عاملاً هاماً فى انتشار الإسلام ، وتبليغه إلى العالم كله .

ثانياً : نحن نؤكد صدق الآيات القرآنية ، لأن كل ما أورده القرآن الكريم حقائق لا تتخلف ، لكننا نخالفهم فى فهمهم لدلالة الآيات .

(١) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد ج١ ص١٤٥ كتاب العلم والعلماء

(٢) نيل الأوطار للشوكانى ج٨ ص٢١٧

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ج٨ ص٢١٧

ذلك أن قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) نزلت في بداية الدعوة . ولو أنها فهمت كما يريد المعارضون . لما اشتملت على كل عشيرة النبي ﷺ ولاشتملت حينئذ على الأشد قراباً من العشيرة كما يفيدُه أفعال التفضيل (الأقربين) في الآية ، وهم لا يقولون بذلك ، وبذلك يسقط استشهادهم بالآية . إن الفهم الصحيح للآية يشير إلى إنها تسير وفق المنهج العملي لنشر الدعوة في عصر النبي ﷺ ، وفي كل عصر . وهذه الطريقة هي أن يبدأ الداعية بنفسه ، ثم بالأقرب ، فالأقرب .

يقول الرازي : إن الله بدأ بالرسول نفسه فتوعده إن دعا مع الله إليها آخر بقوله تعالى ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾^(٢) .

وبعد ذلك مباشرة أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً ، ثم على الأقرب ، فالأقرب ثانياً ، لا يكون لأحد مطعن عليه البتة ، وكان قوله أنفع ، وكلامه أنجح^(٣) .

ولذلك نظير من مسلك الدعوة حينما صعد النبي ﷺ على جبل الصفا ونادى ، وقال : " يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا عباس عم النبي ، يا صفية عمة رسول الله ، إني لا أملك لكم من الله شيئاً "^(٤) .

فنرى أنه ﷺ نادى الأقرب فالأقرب .

ويذكر أبو حيان أن العشيرة تحتمل بنيتها ، ولا تقسوا عليهم ، وهي أكثر سماعاً لهم من غيرهم فيقول : " إن العشيرة مظنة الطواعية ويمكنه من الغلظة

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٣

(٣) تفسير أبو السعود ج٦ ص٢٦٧

(٤) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ج٨ ص٨٣٧ ط الأوقاف .

عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم ، وهم له أشد احتمالاً ^(١) فالآية إذا تدل على منهج البداية فى الدعوة مع التدرج فى الاتساع ، وليس فيها ما يمنع دعوة غير الأقرين ، وغير العرب .

وأما عن قوله تعالى ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ^(٢) .

فإن أم القرى هى مكة ونحن نسلم معهم أنهم أساس دائرة الإنذار . ونسأل عن مدى ، ومقدار المكان من حولها الذى يجب أن يشمل الإنذار ؟ إنه يضيق على مساحة قليلة محيطة بمكة ، ويتسع حتى يشمل العالم كله . ولو سلمنا أن المراد بمن حولها هم البدو والحضر المحيطون بمكة ، فإن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه ، وإن دلت هذه الآية على كون الرسول بعث إلى هؤلاء فإن قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) يدل على كونه رسولاً إلى العالمين ، ولا تناقض بين مفهوم الآية الأولى ومفهوم الآية الثانية على هذه الصورة . لأن خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ، ومن حولها ، وخطاب أم القرى ، ومن حولها لا يمنع أن يعم الخطاب الناس أجمعين ولو بخبر آخر .

وأيضاً لما ثبت كونه ﷺ رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر أن محمداً ﷺ كان يدعى أنه رسول الله إلى كل العالمين فوجب تصديقه فى ادعائه هذا .

وأما عن قوله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

(١) البحر المحيط ج٧ ص٤٦

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٢

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨

يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

فنحن معهم ، ونعلم أن المقصود من الآية هم العرب . ، ولذا. كان. العرب في الجزيرة لم يأتهم رسول من الله منذ إسماعيل عليه السلام فإن الدين الذي جاء به محمد عليه السلام يعم معهم المتدينين الذين سبقت إليهم الرسل ، ويقوم النبي عليه السلام العربي بالدعوة إليه ليظهره على الدين كله كما قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) . والإظهار يكون بالعلم ، والحجة والسيادة ، والغلبة ، والشرف ، والمنزلة ، ولا يكون كذلك إلا حيث كان خاتماً للأديان ، وعاماً لجميع الناس .

ثالثاً : ولما إدعاء أن. عالمية الدعوة لم تظهر إلا. في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهي واهية كسابقتها ، لأن الآيات التي ذكرناها في عموم الدعوة نزلت قبل الهجرة ، وهذا يوضح أن عالمية الدعوة كانت ولضحة من البداية ، وبعد الهجرة . ، وفي يوم الخندق . ، أمل النبي عليه السلام في نشر الإسلام. في سائر الأرض . ، وذلك عندما ضرب بمعوله الصخرة ثلاث. ضربات . ، وفي كل مرة تلمع برقة منها فسأل سلمان الفارسي رسول الله عليه السلام وقال له : بأبي وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيته لمع تحت الأرض ؟ فقال عليه الصلاة والسلام " أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق (٣) . ومن أجل هذه العالمية جاءت التعاليم الإسلامية خطاباً لسائر البيئات ،

(١) سورة القصص الآية ٤٦

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣

(٣) سيرة النبي عليه السلام ج ٣ ص ١٧٣

وبياناً لنعم الله على كافة الناس ، فخاطبت أهل الزرع وليس هم العرب. على الخصوص ، وخاطبت أهل البحر ، والسفن ، يقول الله تعالى ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ۗ ﴾ ^(١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَايِبِينَ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ ^(١) .

فبهذه الآيات خاطب القرآن الكريم أقواماً سخر الله لهم الأنهار. ، وللليل والنهار والشمس ، والقمر ، وليسوا هم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم لأنها نعم عامة .

على أن هذه العالمية لم تقف على الدليل النظرى فى عهد الرسول ﷺ ، بل إنه ﷺ باشر عملياً تنفيذ عالمية الدعوة يوم أن سنحت له الفرصة بعد الحديبية حيث أرسل إلى الملوك والأمراء فى كل الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، ويحملهم إثم أتباعهم إن لم يبلغوهم .

وقد جاء فى الكتاب الذى أرسله إلى هرقل " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى : أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا

(١) سورة إبراهيم الآيات من ٣١ إلى ٣٣

مَنْ دُونَ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى وليس هو النجاشي الذي صلى عليه صلى الله عليه وسلم .

وهذه الكتب ثابتة بالواقع التاريخي ، ولن لا فمن يستطيع أن ينكر رد المقوقس على رسول الله وإرساله " مارية " في هدية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وأنجب منها ابنه إبراهيم .

وهكذا ثبت أن عالمية الدعوة قد وضحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة قبل الهجرة ، ولم تتأخر حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما زعم الخصوم .

رابعاً : تخصيص آيات العموم بعموم العرب ، تخصيص بلا مخصص وهذا لم يقل به عاقل ، لأن من القواعد المقررة في العلم ، والعقل أن العام يبقى على عمومه ما لم يخصه دليل في قوته ثبوتاً وصحة .

وهكذا ثبتت عالمية الدعوة بأدلة العقل وأدلة السمع ، وردت أدلة الخصوم وبذلك يتضح تمام الدعوة ، وثبوت كونها خاتمة ، وعالمية ، وهذا يقتضى داومها بالضرورة إلى آخر الزمان .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن اليهود ينكرون حتى الآن الدعوة الإسلامية ويدعون أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد ابتدأت بموسى ولنتهت به ، وما زالوا ينتظرون رسولاً من بعده يدعو الناس بشريعته .

وكذلك النصارى فهم يرفضون الدعوة الإسلامية ، ولا يتصورونها من الله وكلا من أتباع اليهودية والنصرانية يتصورون رسالتهم هي الخاتمة ، وهذا موقف يبطله ما ورد على لسان موسى عليه السلام مبشراً شعبه بنى إسرائيل بالرسالة

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٥ ، ١٦٦ كتاب الجهاد باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام .

الخاتمة ، ويقول " يقيم لك الرب إلهك ، نبياً من وسطك ، من إخوانك مثلي، له تسمعون^(١) " والنصارى يفسرون هذه الآية على أن المبشر به هو المسيح ﷺ ، وتفسيرهم غير سديد لأن المماثلة لابد أن تكون حقيقية وهي لا تنطبق على عيسى ﷺ حسب نظرتهم ، والواقع ، لأن عيسى عندهم إله ، وموسى نبي ، وشريعة عيسى ناقصة ، وشريعة موسى تامة ، وموسى تزوج وحارب أعداءه ، بينما لم يتزوج عيسى ، ولم يحارب أحداً ، وإنما المماثلة فى الحقيقة تنطبق على محمد ﷺ لأنه نبي وشريعته تامة وقد تزوج ، وحارب أعداءه .

وأيضاً جاء فى العهد القديم أن " نبوخذ نصر " رأى حلمًا فسر له دانيال بأن ملكاً سيأتى بعد تنازع الأمم واختلافها ، وهذا الملك باسم الرب ، وبارادته ، وسيدوم إلى الأبد حيث قال له " وفى أيام هؤلاء الملوك . أى المختلفين يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً. وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد . الله العظيم عرف الملك ما سيأتى ، الحلم حق وتعبيره يقين^(٢) .

ورغم أن هذه النصوص من العهد القديم فما زال اليهود على إنكارهم للدعوة الإسلامية . وكذلك النصارى . ويفسرون هذه المملكة بأنها مملكة النصارى . مع أن المسيح لم يأت إلا بمجموعة من المواعظ . وللنصائح ، والحكم تقصر عن جميع حاجات الإنسان وقد توفاه الله إليه ، وأتباعه قليلون فى عددهم وعدتهم .

إن هذا يرد إنكار اليهود والنصارى ، ويؤكد أن كل البشارات تنصب على سيدنا محمد ، وأمتة .

(١) سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر فقرة ١٥

(٢) سفر دانيال الإصحاح الثانى فقرات ٤٤ ، ٤٥

جاء فى أشيعا قوله : غنوا للرب أغنية جديدة تسبحة من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر ، وملئه ، والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها المديار. التى سكنها قي دار. ، لىترنم سكان سالع من رعوس الجبال ، ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ، ويخبروا بتسيحه فى الجزائر^(١) ، ويبين هذا القول أن الدعوة الإلهية ستكون فى جبل سالع ، وتنتشر إلى أقصى الأرض ، وتصل إلى المنحدرين فى البحر وللمقيمين فى البرية ، وتبيد الأصنام المنحوتة ، وتزيلها فى قوة ظاهرة ، وهذه أوصاف تنطبق على الدعوة الإسلامية تماماً .

لأن جبل " سالع " المذكور. هو الجبل الموجود غرب المدينة^(٢) ، وقد امتدت التعاليم الإسلامية إلى كافة أنحاء الأرض ، ولم يحدث أن جاء نبى بعد أشيعا أباد الأصنام سوى محمد ﷺ .

ولعل اليهود. حينما علموا. بهزم الحقائق حضروا إلى يثرب. ، وفضلوا سكنها عن سائر المدن ، ليكونوا بجوار " سالع " المذكور ، عسى أن يبعث الله النبى المنتظر من جنسهم ، ولذلك كانوا يبشرون به .

وأيضاً جاء فى سفر التثنية " أن الرب جاء من طور سيناء، وأشرق من ساعير وتلاً من جبل فاران " ^(٣) .

وطور سيناء كانت مظهر موسى ﷺ ، وساعير جبال بيت المقدس كانت مظهر عيسى ﷺ ، وفاران جبال مكة كانت مظهر المصطفى ﷺ . ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية أشبه فى الوحي ، والتنزيل

(١) سفر أشيعا الإصحاح الثانى والأربعين فقرات ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،

(٢) قصص الأنبياء ص ٣٠٢

(٣) سفر التثنية الإصحاح الثانى والثلاثون فقرة ٢

(١٢٤)

والمناجاة ، والتأويل ، على مراتب ثلاث مبدأ ، ووسط وكمال . ، وللمجئ أشبه بالمبدأ ، وللظهور . أشبه بالوسط ولالإعلان . أشبه بالكمال . ، عبرت . المتوراة عن طلوع صبح الشريعة ، والتنزيل بالمجئ من طور . سيناء . ، وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ إلى درجة الكمال . بالاستواء . ولالإعلان . على فاران ، وفي هذه الكلمات إثبات لنبوة المصطفى ﷺ (١) .

وهكذا وضحت الميزات التي اختصت بها دعوة الإسلام . ، وقد حصرتها في التمام والختام والعموم .

(١) الملل والنحل ج١ ص١٩٤ .

الفصل الرابع أصول الرسالات الإلهية

ويتكون من :

- التمهيد .
- المبحث الأول : الإيمان بالله تعالى .
- المبحث الثاني : ضرورة الرسالة وإثباتها .
- المبحث الثالث : إثبات البعث .
- المبحث الرابع : إثبات أصول العبادات .
- المبحث الخامس : الاهتمام بمكارم الأخلاق .

(۱۲۶)

تمهيد :

تعددت الرسائل إلى البشر ، ولتنتهم المتعاليم الإلهية من خلالها ، ومع البعد الزمنى بين ظهور الرسائل نراها فى أصولها ، كأنها رسالة واحدة ، وما اختلفت الرسائل إلا فى مناهجها .

وترجع وحدة الأصل إلى أن المصدر لكل الرسائل هو الله الذى أراد أن يوجه البشر إليه ، ويعرفهم طريق سعادتهم الكامنة فى دين الله الموحى به على السنة الرسل عليهم السلام .

ويرجع الاختلاف المنهجى إلى تنوع المدعوين ، واختلاف طبائعهم ، وتغاير رذائلهم ، وتطور فكرهم مما يشير إلى ضرورة اختلاف المنهج ، ليكون الإيمان أسرع ، والاقتناع بالدعوة أعمق .

أما الإلتحاد فى الأصول فإنه يرجع إلى أنها ثابتة ، لا تغيير فيها ، لاتصالها بحقائق دائمة ... وأيضاً فإن إدراك هذه الأصول سهل على الإنسان منذ وجد ، لا تحتاج لتطور الفكر ، وتقدم الناس .

لقد عاين آدم عليه السلام حقيقة هذه الأصول قبل أن يخرج إلى الأرض ، حيث عاش فى الجنة ، وعاشر الملائكة ، وتعامل مع إبليس ، وعلم الخير وللشر ، وأتاه وحى الله تعالى ، وفى هذا الفصل سنتكلم عن الأصول الواحدة فى جميع الرسائل متناولاً المباحث التالية :

- **المبحث الأول : الإيمان بالله تعالى .**
 - **المبحث الثانى : ضرورة الرسالة وإثباتها .**
 - **المبحث الثالث : إثبات البعث .**
 - **المبحث الرابع : إثبات أصول العبادات .**
 - **المبحث الخامس : الاهتمام بمكارم الأخلاق .**
- وذلك فى عدة مباحث تأتى متتابعة على النحو التالى :

المبحث الأول

الإيمان بالله تعالى

تعتبر قضية الألوهية هي المحور. الهام في الدعوات. الإلهية ، وقد بذل الرسل عليهم السلام جهوداً متواصلة ، من أجل تصحيح اتجاه المكلفين في هذه المسألة وسنتكلم هنا عن نقطتين هما :

- (١) عقيدة البشر قبيل الرسالات .
- (٢) دعوة الرسل إلى توحيد الله وأدلتهم عليها .

وذلك فيما يلي :

- ١ -

عقيدة البشر قبيل الرسالات

ظلمت البشرية نفسها ، وسادها ضلال مبين ، وابتعدت. في أغلب فتراتنا عن الطريق المستقيم ، فرغم أنها كانت منذ بدايتها أمة واحدة على الهدى ، إلا أنها سرعان. ما اختلفت ، ولتبعته هواها فجدت. حق الله تعالى في التوحيد والعبادة ، واتخذت آلهة متعددة .

وكان من رحمة الله بالبشر أن. أرسل لهم بين الحين والحين رسولاً. يبلغهم الوحي ، ويهديهم للتي هي أقوم ، وينقذهم من الضلال الذي شاع فيهم . والبحث في أحوال الناس قبيل كل رسالة ، يوضح ركون جميع الأقوام إلى عبادة آلهة أخرى غير الله تعالى ، كالأصنام المصورة ، ولالأوثان. المنصوبة ، وللكواكب السيارة ، وللمظاهر الطبيعية ،. وهم في الوقت نفسه ينكرون. الله تعالى. ويعلمون. حقيقته بأوصافه المعلومة لهم ، فهو الخالق ،. المقادر. ، وما الآلهة الشركاء إلا شفعاء تقربهم إلى الله زلفى ، وهي واسطتهم التي تربطهم بالله

تعالى ، وبنى الناس. ظنهم هذا. فى الآلهة على أساس. أن. آلهتهم صغيرة ، ضعيفة ، فهم صانعوها ، وللموجدون. لها ، وهى محسوسة لديهم ، يرونها ، ويعيشون معها ، ولا بد لهم مع ذلك من إله كبير موجد ، يسعون إليه عن طريق هذه الأصنام ، والأوثان التى تتوسط لهم عنده .
وهكذا تكونت عقيدة البشر منذ قديم .

أشار الكلبى إلى أن الأصنام حدثت بعد آدم عليه السلام بعشرة قرون . ، وكانت أولاً صوراً لأشخاص. صالحين ، أقامها أهلهم ، تقديراً. لهم ، فلما جاء الجيل الثانى عظمهم أكثر ، فلما جاء الجيل الثالث قال بنوه : ما عظم أولونا هؤلاء. إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدهم ، وعظموا أمرهم .

أتاهم نوح عليه السلام وهم على ذلك^(١) فدعاهم إلى توحيد الله الرب. العظيم ، والمعبود الحق ، وطلب منهم أن يتركوا دعاوهم الباطلة ، لكن الكفار. استكبروا. وأخذ رؤسأوهم يحرضون أتباعهم على عدم ترك الأوثان يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يُعُوتَ وَيُعُوقُ وَنَسِرًا ﴾^(٢) .

وتمسكوا. بآلهتهم المعديدة ، . واهتموا. بالأصنام. الخمسة المذكورة على الخصوص لأنها أعظم أصنامهم ، وأخذوا يواجهون. نوحاً عليه السلام بسفه من الكلام وقالوا ما حكاه الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣) .

وإنما قالوا ذلك لأن نوحاً فى نظرهم قد بعد عن الحق ، ولدعى ما ليس له وقد صور القرآن. معارضتهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ

(١) الأصنام ص ٥١ ، ٥٢

(٢) سورة نوح الآية ٢٣

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٠

(١٣٠)

مَلَكِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّضُوا
بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١﴾ .

وبقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَكُوا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا
تَرَكُوا أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٢﴾ .

فهم فى أقوالهم ، ومعارضتهم ، لا يتصورون أن يكون الرسول بشراً . لأن
الملائكة أعظم من البشر ، وأسهل على الله أن يرسل ملائكة . فلو أرسل الله
رسولاً لاختره من الملائكة ، وأيضاً فإن آباءهم لم يقصوا لهم شيئاً عن إرسال
المبشر . ولمكانه . وتركوهم يتيهون فى مناهات الفكر . وضلالات التصور
الساخ .

ومن هنا كفر قوم نوح عليه السلام بدعوته ، وداوموا على عبادة الأصنام ، وكل
ما تصوروه هو أن نوحاً عليه السلام قد أصابه جنون . أو جن . وما اتبعه إلا
الضعفاء الأراذل ، الذين لا شأن لهم ، وهذا منهم ضلال وهوى . إذ أبوا النبوة
لبشر يدرك ، ويفهم ، وسلموا للأصنام أن تكون آلهة ، مع أن البون شاسع بين
البشر والصنم .

يقول الزمخشري : ما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد
رضوا للآلهة بحجر (٣) .

وعاد هى الأخرى نسيت الله تعالى فأشركت معه أصناماً عديدة .

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٤ ، ٢٥

(٢) سورة هود الآية ٢٧

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٨٧

فى أثر رواه ابن عباس أنهم كانوا يعبدون صنماً يقال له " صمود . " وآخر
يقال لها " المهتار . " فلما بعث فيهم هود عليه السلام دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام
والتمسك بالتوحيد فى الألوهية ، وللربوبية ، لأنه لا فاصل بينهما فى الحقيقة
لكنهم أنكروا هذه الدعوة منه ، وتعجبوا من قصره الألوهية على إله واحد ، مع
أن الأباء عدوا الألهة ، وعبدوها مع الله ^(١) ، ولذلك قالوا لهود منكبين ﴿ قَالُوا
أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ ^(٢) .

وهكذا كبر عليهم أن يخصوا الله بالعبادة ، وقالوا . استهتاراً . لما سمعوا دعوة
هود عليه السلام إلى التوحيد قالوا ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ للإشارة إلى أن من يدعوهم بهذا النداء
لم ينشأ بينهم وإنما جاءهم بعد غياب ، بعد فيه عن أصنامهم فلم يعبدها مثلهم
، ولذلك أتى بغير المعهود والمعقول فاستحق السخرية ، فى نظرهم .
يقول الزمخشري فى معنى المجئ فى قوله تعالى ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ أوجه ، منها
أن يكون لـ " هود " عليه السلام مكان منعزل عن قومه ، كان يتخنت فيه ، فلما أوحى
الله إليه جاء قومه يدعوهم ومنها أنهم يريدون الاستهزاء . به لأنهم كانوا
يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا أجئتنا من السماء كما
يجئ الملك ولا يريدون حقيقة المجئ ^(٣) .

ولقد وصلوا فى استهزائهم ، وتمسكهم بأصنامهم ، أن اتهموا هوداً بخفة
العقل ، والإخبار بغير الواقع الحقيقى ، وبالغوا فى اتهاماتهم له ، وقالوا له فى

(١) المغازى ج٨ ص٤٩٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٠

(٣) تفسير الكشاف ج٢ ص٨٧

وضوح ما حكام الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ
الْكَذِبِينَ ﴾^(١) .

فجعلوا السفاهة ظرفاً له ، كأنه متمكن فيها ، غير منفك عنها ، وهو بذلك
أحد الكاذبين ، وردوا سبب ما حل به . فى نظرهم . إلى قدرة آلهتهم التى ألحقت
به الضرر ، والأذى ، حيث قالوا ما حكاه الله تعالى ﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ إِن نَّقُولُ
إِلَّا أَعْتَرْنَاكَ بَعْضُ آلِهِتِنَا بِسُوءٍ ﴾^(٢) .

وهكذا وصل بهم الجهل المفرط إلى أن .اعتقدوا أن .حجارة تنتصر وتنتقم
ولعلمهم حين أجازوا لها أن .تعاقب هوداً . كانوا .يجيزون . لها القدرة على إثابتهم
وتحقيق الخير لهم ، وللناس العابدين لها معهم^(٣) .

ويبدو أن هذه العقيدة كانت متأصلة فيهم لتوارثها عن سبقتهم من الأولين
ولذلك قالوا لـ " هود " ﷺ ما حكاه الله تعالى ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٦٧﴾ إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴾^(٤) فلقد واجهوه ﷺ صراحة ،
وبينوا . له عدم .جدوى .دعوته لهم . مهما بذل فيهم . لأنهم يقلدون . آباءهم ،
ويسيروا على خطاهم ، وترك ما كان عليه الآباء معرة ، وبوارا ، ولذلك فهم لن
يبالوا .بوعظه .وإرشادهم . وسيستمرون . على عبادة آلهتهم فهى عاداتهم التى
توارثوها جيلاً عن جيل .

(١) سورة الأعراف الآية ٦٦

(٢) سورة هود الآية ٥٣

(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢١

(٤) سورة الشعراء الآية ١٣٦ ، ١٣٧

وثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يعبدون آلهة غير الله ، فلما دعاهم صالح عليه السلام إلى التوحيد ﴿ قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَدُنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَمُ ﴾ (١) .

كان صالح موطن أمل ورجاء لقومه قبل النبوة ، لما بدا فيه من رجاحة عقل ، وصفات كمال ، وخير ، لكنه لما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤهم شكوا في دعوته ، وكفروا بها ، وقالوا له : خاب ظننا ، وضاع الأمل الذي كنا ننتظره منك .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام رأى قومه يعبدون غير الله مع تنوع وكثرة ، فهم يعبدون الكواكب ، والأشخاص ، والأصنام ، وكان عليه أن يجابه أتباع جميع هذه المعبودات فقام بما وجب عليه ، وكان له مع كل منهم موقف ، وحوار .
ففي بيته الذي نشأ فيه كانت صناعة الأصنام ، وعبادتها ، ولذلك طلب سيدنا إبراهيم من أبيه أن يترك عبادة الأصنام لأنها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تغنى عن شيء ، كما أن عبادتها تفتح الباب لعذاب الرحمن أن يمسه ، وحينئذ فلن يحميه مجرد أنه عرف الله ، لكن هذا المطلب مع وجاهته لم يحرك عند الأب ساكناً بل رد على إبراهيم وقال له ما حكاة الله ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتَى يَتْلَوْنَ هَيْمٌ لِّئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ (٢) .

فاعتزل إبراهيم عليه السلام أباه إلى غيره من المشركين ، وأخذ يدعوهم إلى توحيد الله ، وقصر العبادة له سبحانه حيث كانت الأصنام منتشرة في كل مكان .

(١) سورة هود الآية ٦٢

(٢) سورة مريم الآية ٤٦ وقصة إبراهيم مع أبيه مفصلة في الآيات من ٤١ إلى ٥٠ من سورة مريم .

ويبدو أن قوم إبراهيم قد اشتهروا بالجدل ، والمراء . وللمكابرة ، مع المسفه والمغالطة ، ولذلك وقف منهم إبراهيم موقفاً عملياً بعد أن. سألهم أسئلة محددة قال لهم ما حكاه الله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٤) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَّا فَنَظَّلُهَا عَنْكُفِينِ ﴿٧٥﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذًا لِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ (١) .

فسؤاله ﷺ يعنى أنه فاهم حقيقة معبوداتهم ، وعالم بمدى عجزها عن الإحساس والتأثير ، لأنها جماد لا يعى ، ومصنوع لا يقدر . ، ولذلك سألهم ﷺ عن حقيقة الأصنام . وعن قدرتها على السمع . وللنفع . وللضر . ولكنهم بكبريائهم يردون بأنها صنم ، وسنسمر فى عبادتها . وهو أحد ما توارثناه من آباءنا فلما علم ﷺ أنه لا فائدة من جدلهم لجأ إلى الأصنام وحطهما ، يقول الله تعالى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) وقصته ﷺ مفصلة فى القرآن الكريم ، وفى كتب تاريخ الدعوة (٣) .

ومع عبدة الكواكب والنمرود. كان. إبراهيم ﷺ يسلم برأيهم ظاهراً. لينقضه بعد ذلك (٤) .

والمهم هنا أن نثبت أن سيدنا إبراهيم بعث فى أمة كانت تعبد من دون الله آلهة أخرى عديدة اتباعاً للآباء ، وتأثراً بمعاشريهم من الأمم .

يقول العقاد : إن الناس فى زمن إبراهيم ﷺ كانوا يؤمنون بإله عظيم

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٠ إلى ٧٤

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٨

(٣) وقد فصلتها الآيات. الواردة فى سورة الأنبياء. من آية ٥١ إلى الآية ٧٠ فليرجع إلى تفسيرها من أراد التفصيل .

(٤) انظر الآيات من ٧٤ إلى ٨١ من سورة الأنعام .

خلق الآلهة الصغار ، وقدر. لها منازلها فى السماء .، ولشهرها القمر " نانار. " وبعده يأتى المريخ " مردوخ " و الزهرة " عشتار " ومن قديم كانت الشمس " شماس. " معبودة عند الخاصة^(١) وينقل قول. " دولى " وهو من أشهر علماء الأحافير فى كتابه عن إبراهيم " إن. الآلهة كانوا. عند السامريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الآلهة العظيمة التى تخصص لها هياكل الدولة .، والآلهة التى دونها وهى التى تقام لها المعابد ، وتوضع فى مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة .

والآلهة العظيمة كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر .، وللماء ، والنار ، وغيرها ولقد كانت عبادة الملوك موجودة عندهم^(٢) .
والرسل جميعاً عليهم السلام قابلوا. هذا. الفساد. المنتاب .، وللبادئ فى ترك أقوامهم التوحيد الحق .، إلى عبادة آلهة أخرى متنوعة .، ودفاعهم الجاد. عن عقائدهم هذه مع بطلانها .

فشعيب قال له قومه دفاعاً عن أصنامهم ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلُوتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾^(٣) .

بل وهددوه ومن معه من المؤمنين بالإخراج حيث قالوا. ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾^(٤) .

ويوسف عليه السلام قال لرفيقه فى السجن مصوراً عبادة قومه ما حكاه الله تعالى وهو يقول ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾^(٥) مَا تَعْبُدُونَ

(١) الله ص٤٠٤ ، ٢٠٥

(٢) الله ص٢٠٦

(٣) سورة هود الآية ٨٧

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٨

مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿١﴾ .
وموسى عليه السلام جابيه فرعون بقوله ﴿ لَيْنٍ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ
الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢) .

وقال للناس ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (٣) .
فأشار. بذلك إلى أن. تأليه المبرر أيام. موسى كان. موجوداً. بجانب تأليه
الأصنام. وللبيوت. ، وللنجوم. ، فلقد رأى موسى عليه السلام عبادة المبرر بعد تجاوزه
البحر والقوم معه يقول الله تعالى ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٤) .
ومن هنا كان نهى التوراة عن عبادة الأصنام. فى مثل قولها " لا يكن لك
آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما فى السماء من
فوق وما فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض، لا تسمعوا
لهن ولا تعبدوهن (٥) وتقول " أنا الرب إلهكم لا تلتفتوا إلى الأوثان ، وآلهة
مسيبوكة لا تصنعوا لأنفسكم " (٦) .

وتقول " أحب الرب إلهك ، واحفظ حقوقه ، وفرائضه ، وأحكامه ووصاياها
، احترزوا أن تنغوى قلوبكم فتريغوا ، وتعبدوا آلهة أخرى تسجدوا لها البركة

(١) سورة يوسف الآية ٣٩

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٩

(٣) سورة القصص الآية ٣٨

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٨

(٥) سفر الخروج ، الإصحاح العشرون ، الفقرات ٣ ، ٤ ، ٥

(٦) سفر اللاويين ، الإصحاح التاسع عشر ، الفقرات ٣ ، ٤

لكم إذا سمعتم لوصايا الرب إلهكم ، واللغة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن وصاياه^(١) .

وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام رسل الله إلى بنى إسرائيل . جاءوا لهدايتهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الشركاء . فى الأناجيل نقراً . " يقول المسيح لتلاميذه " فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ... لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين^(٢) .

ونقرأ " وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته "^(٣) .

يسجل القرآن الكريم حقيقة دعوة المسيح فى قوله تعالى ﴿ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِمْ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾^(٤) .

ولما جاءت الدعوة الإسلامية ، وجدت واقع الناس على سنن سوابقهم ، من كثرة الأصنام والأوثان . ، وتقديس الأشخاص . ، وعبادة النار . ، إلا أنهم بسبب تطورهم مع الزمن وضعوا لرب نسكهم أقاويل بليغة ، وفلسفات عقلية عقيمة . ومع ذلك فإن صورة الضلال كانت واحدة عند جميع الأمم بعدما بعدوا عن توحيد الإله ، وأشركوا معه آلهة أخرى ، قصروا العبادة عليها . ومن هنا كان المحور الرئيسى فى جميع الدعوات . هو مقاومة الشرك . ، والدعوة إلى التوحيد ، وتفهم الناس . أن العبادة مطلقاً يجب أن تكون لله وحده لأنه الإله الحق ، وما عداه زيف ، وباطل .

(١) سفر التثنية الإصحاح الحادى عشر ، الفقرات ١ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

(٢) إنجيل متى ، الإصحاح السادس ، الفقرات ٧ ، ٩ ، ١٣ ،

(٣) إنجيل يوحنا ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة ٣

(٤) سورة المائدة الآية ١١٧

مفهوم التوحيد وأدلة الرسل عليه

ذكرنا أن الناس كانوا دائماً قبيل الرسالات. على شرك. فى عقيدتهم ، مع تيقنهم بأن- هناك فوق- آلهتهم العديدة إليها أعظم من الجميع، وهو الأقدر. ، ولأحكام ولأعلم ، ولذلك كانوا يعبدون- الأصنام ، وللظواهر المحسوسة بجوارحهم ، لتقربهم إلى الله الأكبر ، وتكون وسيلة الشفاعة لديه ، وللاتصال. به وتلك كلها عقيدة خاطئة ، جاءت الرسالات لتصححها ، ولثبات الحق فيها ولتأكيد أن التوحيد فى حقيقته يتضمن الإقرار بوحدة الرب الخالق ، وإفراده بالعبادة الخالصة بلا أدنى شائبة توجه لغيره ، وتأكيد أن العبادة الحقه يجب أن تكون مشتملة على التعظيم الكامل ، مع الخوف التام ، الأمر الذى يؤدى إلى التسليم لله ، والالتقياد لحكمه وعدم معارضة تعاليمه بأى تعاليم غيرها مهما كان مصدرها .

يقول- الشيخ محمد عبده :- العبادة ضرب من الخضوع ، ، بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود، لا يعرف منشأها ، ولا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرف منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه (١) .

وهكذا لا يبد للعبادة من أن تتركب من عنصرين هما غاية المذل لله ، وغاية المحبة له ، والعنصران ينشآن حتما للعابد الحقيقى الذى يؤمن بأن قدرة الله ، شاملة وعلمه محيط ، ووجوده أزلى أبدي ، وكل ما عداه فهو من آثاره وإيجاده .

أما هذا التوحيد الذى كان موجوداً قبيل الرسالات ففيه قصور كبير ،

يجعله منكراً لقدرة الله فى الحقيقة ، ذلك لأنهم فى الوقت الذى يوحدون الله ، ويذكرون قدرته وخلقه للموجودات. يعبدون الشركاء معه ، ويثبتون لهم بعض القدرة ، ويعطونهم جزءاً كبيراً من التعظيم والتقدیس ، فجاء الرسل على مدى الزمن ليبيّنوا للناس ما يجب أن يكونوا عليه فى عقيدتهم ، فيوحدون الله ويخصونه وحدة بالعبادة والتعظيم لأنه لا إله سواه .

ومن هنا كان أول صوت نادى به الرسل أقوامهم هو قوله تعالى ﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾^(١) فتراهم صلوات الله وسلامه عليهم فى ندائهم يقرنون التوحيد بالأمر بالعبادة ، لأن التوحيد كما يقول الرازى كالعلة للعبادة لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره ، كان كل ما حصل عندهم من وجوه الإحسان ، وللنفع ، والعطف ، والبر ، حاصلاً من الله ، ونهاية الإنعام. توجب نهاية التعظيم ، فوجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا هو^(٢).

ويجب أن يكون. ولفظاً أن المراد من الإله المدعو إليه فى دعوات الرسل هو الإله المستحق للعبادة حقاً دون سواه ، لأن الأقسام قبل الرسالات كانوا يعتبرون الأصنام ، والأوثان ، آلهة ، ويعبدونهم على هذا الاعتبار. فكان الخطأ فى العبادة تابعاً للخطأ فى المتأليه^(٣) ، ولذلك كان على المرسل أن يصححوا نظره للناس فى التأليه ، وللعبادة ليعبدوا فى إخلاص. الإله الواحد ، الذى لا شريك له .

إن العبادة رمز الامتثال الحق ، ودليل توحيد الله بصدق ، وهى فرع أصلها هو التوحيد .

والتوحيد ، والعبادة أمران متلازمان فى الحقيقة ، وتأكيداً للزمية العبادة

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٢) مفاتيح الغيب ج٤ ص٢٦١

(٣) تفسير أبى السعود ج٢ ص١٧١

للتوحيد جاءت. آيات كثيرة تأمر بالعبادة وللتوحيد من غير أن تفصل بينهما بعاطف ، لأن التوحيد بيان وتفسير لعلة إختصاصه تعالى بأن يعبد^(١) ، وقدمت بعض الآيات التوحيد على العبادة ، وربطت بينهما بالفاء كقوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾^(٢) .

وكقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣) .

وذلك لأن الفاء تفيد التعقيب فكان الربط بها تأكيداً لهذه اللازمية بين توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وإشارة إلى أن العبادة تكون مع التوحيد مباشرة . وقد سلك الرسل عليهم السلام فى التدليل على وجوب توحيد الله وعبادته طرقاً ثلاثة :

الأول : تذكير القوم بنعم الله عليهم فى أنفسهم .

الثانى : تذكير القوم بالنعم المبنوثة فى الكونيات من حولهم .

الثالث : التخويف من العواقب التى سيلقاها من لم يوحد الله ويعبده .

هذا هو سيدنا نوح عليه السلام يخاطب قومه بهذه المطرق . ، ويبرهن لهم بها ويطلب منهم أن يعبدوا الله تعالى وحده ، فتراه يبين لهم أحياناً نعم الله عليهم فى أنفسهم ، فهو خالقهم على أطوار سبعة بدأت بالتراب ، وانتهت بإنسان. عاقل ، سوى ، يسمع ، ويبصر . ، ويعرف. فقال لهم ما حكام الله تعالى ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ .

(١) البحر المحيط ج٤ ص٤٢٥

(٢) سورة طه الآية ١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٤) سورة نوح الآيتان ١٣ ، ١٤

وأحياناً أخرى يوجه نظر قومه إلى السماوات العلا ، وما خلق فيها من قمر منير ، وشمس مضيئة ، يتتابعان في المظهر. لا يسبق أحدهما الآخر . وللكل في فلك يسبحون ، وجه نظرهم إلى هذا علم من ملاحظة هذه القدرات. الإلهية يعبدون ربه ، ويوحدونه فقال لهم ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۗ ﴾ (١) .

ووجه نظرهم ﷺ كذلك إلى الأرض ، التي نشأوا من ترابها ، ولستخدموها في معاشهم ، والتي سيرجعون إليها بعد موتهم . وسيخرجون. منها حين البعث والنشور يوم القيامة . هذه الأرض. التي نزلها الله . وسخرها للإنسان. يستغلها كيف يشاء حسب قواه ، وتبعاً لنشاطه وسعيه ، وجه نوح ﷺ نظر قومه إلى ذلك فقال لهم ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۗ ﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۗ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۗ ﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَا جًا ۗ ﴾ (٢) .

ومع تذكيرهم بنعم الله في أنفسهم ومن حولهم كان سيدنا نوح ﷺ يذكر قومه بالموت ، والبعث ، والحساب، ويخوفهم من عذاب يوم القيامة الذي سوف ينزل بهم إن لم يوحدوا ربهم ويخصوه بالعبادة دون سواه . فقال لهم ﴿ قَالَ يَنْقُومِ إِيَّايَ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۗ ﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۗ ﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۗ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ ﴾ (٣) .

(١) سورة نوح الآيات ١٥ ، ١٦

(٢) سورة نوح الآيات من ١٧ إلى ٢٠

(٣) سورة نوح الآيات من ٢ إلى ٤

وقال لهم ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

وقال لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٢) .

وهكذا دلت سيدنا نوح عليه السلام على وجوب توحيد الله واختصاصه بالعبادة بهذه الأدلة السهلة ، الدقيقة ، التي تقصد اللب لا الشكل ، وتعرض القضية مباشرة بلا تعقيد ، أو مبالغة ، وتعرف الإنسان بكمال قدرة الله ، وكمال عنايته ورحمته ، وكمال علمه وإحاطته ، ولأنها أدلة تجعل الإنسان ينظر في كل شئ حوله من أرض . ، وزرع . ، وليل . ، ونهار . ، وشمس . ، وقمر ليراجع نفسه في معبوداته المصنوعة ، ليعلم أنها ليست إلا مخلوقاً من هذه المخلوقات . لا تملك لنفسها ، ولا لغيرها أية فائدة ، ولا تستطيع عمل أى شئ ، لأنها لا تحس ، ولا تدرك ، ولا تتحرك ، وهى بذلك لا تستحق التأليه ، أو العبادة ... والواجب هو إفراد الله ، المالك لكل شئ ، بالعبادة والتعظيم .

وبمثل ما استدلت نوح عليه السلام استدلت هود عليه السلام وهو يدعو قومه " عاداً " إلى توحيد الله وعبادته ، فبين لهم أن الله جعلهم أقوياء فى أجسادهم ، وأعطاهم الملك والحضارة ومكنهم من تأسيس البنايات الشاهقة العظيمة ، وهذا يتضح من قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦١﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦٢﴾ الَّتِي لَمْ تَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ (٣) .

يروى أنه كان لعاد ابنان هما شداد . ، وشديد . ، فملكا . ، وقهراً . ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد ودانت له الملوك ، وبنى مدينة عظيمة ، عالية لا يضاهاها بنيان آخر (٤) .

(١) سورة هود الآية ٢٦

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٠٦ إلى ١٠٨

(٣) سورة الفجر الآيات من ٦ إلى ٨

(٤) تفسير النسفى ج٤ ص٣٥٤ ، ٣٥٥ بتصريف

وعلى الجملة لم يأت. مثل عاد. فى قوتهم ،. وطول. قامتهم ،. ولم تظهر مدينة فى جميع بلاد الدنيا مثل مدينة "شداد". ولذلك ذكرهم هود عليه السلام بنعم الله فى أنفسهم فقال لهم ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زُرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(١).

وقال لهم أيضاً ﴿ وَيَقَوْمٍ آسَافُورًا رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾^(٢).

وقال لهم ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿٦٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾^(٣).

وقد صور هود فى هذه الآيات نعم الله فى قومه عاد .

يقول أبو السعود : إن المراد من البسطة هى طول القامة ، والقوة الجسدية فإنه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الأجرام .، حتى قالوا. عارفين ذلك : من أشد منا قوة ومع هذه البسطة كانوا فى غنى اقتصادى ، ورخاء. زواعى عجيب بسبب المطر الذى كان يأتهم بغزارة ولذلك قال لهم هود عليه السلام ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾^(٤) لأن نزول المطر مرغب هام يضاعف لهم تحققة قوة فوق قوتهم الكبيرة ، ويحافظ على حضارتهم التى كانوا فيها .

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩

(٢) سورة هود الآية ٥٢

(٣) سورة الشعراء الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٠

(٤) سورة هود الآية ٥٢

وأكبر دليل على قوتهم المادية وللبدنية أنهم اتخذوا في كل مرتفع بناء ، وشيدوا القصور الشاهقة ، وبطشوا جبارين بغيرهم اعتماداً على قوتهم ، فنكرهم هود بهذه النعم في أنفسهم ، ليندفعوا بها إلى الإيمان بالله ، وتوحيده ، وعبادته ، ويطيعوا هوداً. في دعوته ، وينفذوا أمره ^(١) لهم ، وقال لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَطِيعُوا هُودًا ۚ ﴾ ^(٢) .

وكذلك دلل هود بطريق آخر حيث عرفهم بنعم الله عليهم في الزراعة التي قامت حضارتهم عليهم فقال لهم ﴿ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) أمدكم بأنعم وبين ^(٤) وجات وعيون ^(٥) .

وحثهم على أن يتذكروا هدم النعم الواضحة في أولادهم ، وديارهم ، وأملاكهم ليعبدوا الله الذي أمدهم بها ، وأعانهم عليها .
وخوفهم هود عليه السلام من العواقب إن هم تركوا توحيد الله وعبادته ، فقال لهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٦) وهكذا كانت أدلة هود لقومه دائرة حول الطرق الثلاثة التي دلل بها نوح عليه السلام .

وعلى نمط أدلة نوح وهود عليهما السلام نادى صالح عليه السلام في قومه فقال لهم ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٧٤

(٢) سورة الشعراء الآية ١٢٦

(٣) سورة الشعراء الآيات من ١٣٢ إلى ١٣٤

(٤) سورة الشعراء الآية ١٣٥

(١٤٥)

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١﴾ وقال لهم ﴿قَالَ يَنْقَوْمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ . (١)

جاء في كتاب دعوة الرسل إلى الله أن نبي الله صالحاً أخذ يذكر قومه بنعم الله التي أمدهم بها ، حيث جعلهم خلفاء لعاد. في الحضارة وللعمران. ، وللمهم من فنون. الصناعة ، وهندسة البناء. ، ودقة النجارة. ، وعلمهم من فن النحت ورزقهم القوة والصبر ، حتى تمكنوا من نحت بيوتهم الفارهة في الجبل يسكنونها في الشتاء. ، ولقدرهم على تشييد المساكن في المسهل. ، يقيمون. فيها أثناء الصيف ، وكل هذه المنعم أمدها الله لثمود. في أنفسهم (٣) ، وحياتهم ، وفي الآفاق من حولهم فأنشأهم من الأرض. ، ومكنهم منها ، وسهل لهم استغلالها ، وعرفهم بقيمة السهل والجبل ، ولذلك ذكروهم صالح بها لكي يوحدوا الله ويعبدوه ، كما خوفهم من مخالفتهم لنصائحه وعدم إيمانهم بمخالفتهم وتماديهم في الشرك واستمرارهم في عبادة غير الله تعالى فقال لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٤﴾ وقال لهم : ﴿وَلَا تَمْسُوها بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٥﴾﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٢) سورة هود الآية ٦١

(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٨

(٤) سورة الشعراء الآيات من ١٤٢ إلى ١٤٤

(٥) سورة هود الآية ٦٤

بهذا المنهج فى التدليل سار الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه فى دعوة أقوامهم إلى التوحيد ، ونبذ الشر ، وترك عبادة الأصنام ، والأوثان .
وأدلة الرسل على كل حال أدلة بسيطة تعتمد على المحسوس ، ولا تحتاج إلى دليل مركب ، أو منطق متفلسف ، لأن ذلك هو الذى كان يناسب بساطة القوم ويتمشى مع فكرهم يومذاك ، انظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الذى حاور كثيراً وجادل عديداً من الطوائف ، تلقاه لم يتخط الأدلة المجسمة ، المنظورة لإفحام مجادله ، فحين جادل عبدة الأصنام وذكروا له أن الأصنام آلهة آبائهم ، ولن يتركوهالم يناقشهم فى حقيقة الآلهة ، وعدم أحقية الآباء فى عبادتها ، وإنما أشار إلى أن الركون إلى الأصنام ضلال ولضح . ثم استعمل الدليل المفيد ، المعتمد على الحواس فكسر الأصنام ، ليثبت لعبدتها أنها لا تنفع نفسها فكيف تؤله وتعبد ، وكذلك حينما رأى عليه السلام بعض الناس يعبدون الكواكب لم يدخل معهم فى نقاش وجدل ، وإنما وافق رأيهم ، ولشعرهم أنه معهم فى عبادة الكواكب مجارة لهم ، لأن الموافقة فى العبارة عن طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج^(١) .

ومن هذه الموافقة أنه لما رأى كوكباً قال ما حكاه الله : ﴿ هَذَا رَبِّيَ فَمَا أَفَلَّ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴾ ثم لما رأى ﴿ الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّيَ فَمَا أَفَلَّ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّيَ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ثم لما رأى ﴿ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ فَمَا أَفَلَّتْ قَالَ يَنْقُومُ رَبِّيَ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾^(٢) .

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٥٦

(٢) سورة الأنعام الآيات من ٧٦ إلى ٨٧

ومن الدقة فى المجازة أنه اعترض على الأفلح دون الطلوع ليتصوروا موافقته لمذهبهم لأنه لو اعترض على الطلوع لما بدت. هذه الموافقة ، وما تم الحوار .

ومما يؤكد أن هذه الموافقة مجازة فقط قوله ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِ رَبِّي ﴾ يقول الشهرستاني : إن رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة والواصل إلى آية النهاية لا يكون أبداً فى مدارج البداية^(١) .

ولما جاء النبي ﷺ للنمرود يدعو إلى الله الذى يحي ويميت قال النمرود ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾^(٢) ومع وضوح المغالطة فى رد النمرود لم يناقش إبراهيم عليه السلام فى أصل الإحياء ، وطريقة الإمامة ، وإنما ترك هذه المناقشة إلى استدلال منظور. فقال له ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾^(٣) وهنا عجز النمرود ولم يجد جواباً يرد به ، فأمسك عن الحوار. وكان صمته دليلاً على صدق دعوة إبراهيم عليه السلام ، وبرهاناً على أن الدليل المباشر السهل ، المستمد من الواقع من أقوى البراهين وأشد الأدلة فى التأثير . ولم يبعد إبراهيم عليه السلام عن المسالك الثلاثة التى اتبعها المرسل مع مدعويهم فقد استمد حديثه من واقع الحياة وحوادث الكون القريب والبعيد .

إن مناقشات إبراهيم عليه السلام مع عبدة الكواكب أو مع عبدة الأصنام أو مع الملك (النمرود) تشير إلى نوع من الترقية عن الأدلة سابقتها مع أنها أيضاً بسيطة ، لأن الإنسان فى عهد سيدنا إبراهيم كان قد ترقى أكثر من ذى قبل ، بحكم طول الزمن ، ومجئ رسالات كثيرة إليه .

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٥٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(١٤٨)

وعلى هذا النمط جاءت وسائل الدعوة الإسلامية مناسبة لرقى الإنسان الذى كان قد وصل إلى مستوى كبير ، وجاوز مرحلة الطفولة العقلية إلى مرحلة نضجها وكمالها ، ولذلك كانت أدلة الإسلام تعتمد على توجيه النظر إلى نعم الله فى نفس الإنسان ، وفى الآفاق ، مع الترغيب فى الجنة ، والترهيب من النار .
وذلك بأوجه متعددة بالإضافة إلى مخاطبة العقل المجرد ، والمقارنة الدقيقة والمجادلة الفلسفية والإخبار بالغيب ، وتأصيل الأخلاق . وللأدب . ومن هنا صلحت الدعوة ، ووسائلها ، للعالم كله ، وعلى طول الزمن .

المبحث الثانى

إثبات الرسالة

اصطدمت الدعوات. السابقة جميعاً حين ظهورها بالمعارضين المعاندين الذين حاولوا بجدية هدم الدعوات ، ورد كل ما يأتى به الرسل ، وكانت وسيلتهم فى ذلك هو إنكار. رسالة الرسول. ، حيث أن. الرسالة أصل للدعوة. ، ومصدر ظهورها للناس ، ولولا الرسول ما كان الوحي ، وما كان. دين الله تعالى. ، ومن هنا رأينا الرسل عليهم السلام يدعون أقوامهم إلى توحيد الله ، وقصر العبادة له بينما المعاندون يوجهون إنكارهم إلى الرسالة ، بدعوى أن. الرسول. لا. يصح أن يكون بشراً من الناس ، وعجبوا. ، ولستهزأوا لأن. من يدعوهم إلى الله بشر من بينهم ، وقد جوبه الرسل أجمعون بمثل هذا الإنكار والاستهزاء ، فكان عليهم أن يردوه بأدلة سهلة ، ومقنعة ، ولذلك اعتمدوا فى ردهم على دليلين :

الأول : فى بيان مشابهة رسالتهم الرسالات السابقة .

الثانى : ذكر أن الرسالة اختيار إلهى محض يختص الله به من يشاء .

وقد وضحت الدعوات فى القرآن هذا الإنكار والرد عليه .

فعن الإنكار قال قوم نوح حينما أرسل إليهم نوح ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾^(١) وقال قوم هود ﴿ إِنَّا

لَنُرْسِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢) وعلى نمط هذا التكذيب

كان سائر الأمم. ، وقد أخذ الرسل فى إثبات. الرسالة بالدليلين المشار. إليهما

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦

(١٥٠)

سابقا ، فهم جميعاً كانوا يذكرون أقوامهم بالرسالات التي سبقتهم ، ويعرفونهم أن الرسالة نعمة خصهم الله بها .

انظر إلى عاد. فقلد رد. عليهم هود. ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾^(١) .

وتمود هي الأخرى قال لهم صالح ﷺ قوله تعالى ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾^(٢) .

ومدين قال لهم شعيب ﷺ قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٣) .
وقوله تعالى ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا تَبْجُرُ مِنْكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِرَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾^(٤) .

وهكذا بين الرسل لأقوامهم أن الرسالة سنة الله فى الناس. منذ القديم ، وما دام هكذا. الأمر فعلى الناس. أن. يسلموا. به . ، فقد ثبت فى الواقع . ، وتأكد منه السابقون .

وأثبت الرسل رسالتهم بالدليل الثانى كذلك . ، فبينوا. أن. النبوة نعمة الله ورحمة يختار. لها من يشاء. من البشر . ، تبعاً لمميزات. وضعها الله فيمن يختاره ، ثم يكمله بالوحى ، وبذلك يستطيع أن يقوم بواجبات الرسالة على الوجه الأكمل .

ومن هذا ما قاله نوح لقومه ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٩

(٤) سورة هود الآية ٨٩

وَأَتَنِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ ۖ ﴿١﴾ .

وما قاله صالح لقومه ﴿ قَالَ يَنْقُومِ أَرَاءَ يَتُمَّرْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
وَأَتَنِى مِنْهُ رَحْمَةً ۖ ﴿٢﴾ .

وما قاله شعيب لقومه ﴿ قَالَ يَنْقُومِ أَرَاءَ يَتُمَّرْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ ﴿٣﴾ .

فإن المراد بالرزق الحسن ، وللرحمة المؤتام ، هى النبوة التى بعثوا بها
وعارضهم الناس فيها .

وهكذا أثبت الرسل رسالتهم بطريقة واقعية لأنهم أعادوا المقوم إلى التاريخ
المنظور ، والمعروف ، ليتدبروا فيه ، ويعتبروا به ، ويصدقوا بالرسالة بعد ذلك
، فإن كذبوا بعد ذلك فهو تكذيب بكل الرسالات وإن صدقوا فهو إيمان بجميعها
والإنسانية هى الإنسانية لأن القوم قابلوا الرسول الخاتم بمثل هذا الإنكار
فرد عليهم بمثل ردود الرسل السابقين ، وكان الأولى أن يعتبروا من تلقاء أنفسهم
، ويصدقوا بما سمعوا ، لكن هكذا كانوا ، وكل شئ عنده بمقدار .

(١) سورة هود الآية ٢٨

(٢) سورة هود الآية ٦٣

(٣) سورة هود الآية ٨٨

المبحث الثالث

إثبات البعث

يوم القيامة وما فيه من فوز للمطيعين ، وعقاب للعصاة بعد بعث المخلّاق وحسابهم ، أمر أجمعت المدعوات. على تأكيد إثباته حتى يشعر الإنسان بالمسئولية الدائمة فى كل شئ ، ويعلم أن كل ما يفعله فى حياته الدنيا سوف يلقاه فى الآخرة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ولما كان الإنسان بفطرته يحس أن حياته ليست جسداً فقط ينتهى بالموت بل إن له مع الجسد روحاً لا تقنى ، ولكنها تنتقل إلى مكان آخر ، تسعد فيه أو تشقى ، وتنعم بأعمالها أو تعذب .

إن المصريين القدماء كانوا يحنطون أجساد الموتى لتبقى " فى ظنهم " مع الروح الخالدة ، ولذلك وضعوا أجساد الموتى فى الأهرامات الضخمة ، وللمقابر الكبيرة ووضعوا مع الأجساد نماذج الحساب الأخرى كما بينته أوراق البردى ، وعلى نمط المصريين كان البراهمة فى نظرتهم إلى الأرواح وخلودها .

هذا الإحساس المفطرى عند الناس كان إحساساً ولقياً اعتمدته جميع الرسالات السماوية ، ووضحته بنصوصها المقدسة ، وبينت أن البعث الأخرى أمر مؤكد ، وأن الناس فى يوم القيامة سوف يحاسبون بأعمالهم ، ويجزون على الطاعة ، ثواباً خالداً ، ونعيماً مقيماً ، وعلى العصيان العذاب الأليم .

وكان صوت الرسالات دائماً يهتم بالبعث ، فهذا هو سيدنا نوح عليه السلام منذ اللحظات الأولى فى دعوته يذكر لقومه أنه يخاف عليهم من يوم القيامة حيث يبعث الناس ، ويعذب العصاة الكافرين فقال لهم ما حكاة الله فى قوله تعالى ﴿

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ وقال سبحانه ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ وبهذا. خوفهم من عذاب. عظيم مؤلم نازل. على المطغاة ، والظالمين الذين لا يوحدون الله ، ولا يعبدونه ولسوف يرونه فى يوم الطوفان أو فى يوم القيامة كما أشار. إلى ذلك المفسرون. إلا. أن أبا السعود. يرجح أن المقصود. بهذا. العذاب. هو عذاب. يوم القيامة ، ذلك أن. عذاب. الطوفان. كان مؤلماً وعظيماً إلا. أن. عذاب. يوم القيامة أشد وأعظم بسبب دولمه وتنوعه ، وللمصيغة تتناسب مع هذه المبالغة فى المشددة وللعظم ، حيث أسندت. الأليم والعظيم إلى اليوم ، كما فى قولنا نهاره صائم ، وليله قائم ، وأيضاً فإن. المغرق ليس نهاية عذابهم . ولأقسام فقد ذكر الله تعالى أنهم بعد إغراقهم فى يوم الطوفان يحرقون فقال تعالى ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ﴿٣﴾ مما يجعلنا نتساءل عن هذه النار أهى نار. فى الدنيا أم نار فى يوم القيامة ؟

وقصة إهلاكهم المفصلة فى السور. القرآنية خلت من الإشارة إلى هذا الإحراق مما يدفعنا إلى الإيمان بأنها نار الآخرة ، ونتابع فى ذلك إحدى روايات أبى السعود عن هذه النار فقد ذكر أنها نار جهنم ، تنزل بهم لا محالة وتحققها ضرورى ، ولعل عطف إدخالهم النار على الإغراق. بالفاء لبيان. هذه الضرورة المحققة ، وكأنها تعقب الإغراق ﴿٤﴾.

وكون المراد هو عذاب يوم القيامة لا يمنع حدوث العذاب فى يوم الطوفان

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٢) سورة هود الآية ٢٦

(٣) سورة نوح الآية ٢٥

(٤) تفسير أبى السعود ج٥ ص١٩٩

الذى أنذرهم به سيدنا نوح ، وخاف عليهم من وقوعه .

وقد جاء فى الجلالين أن العذاب المراد هو عذاب الدنيا والآخرة معاً^(١).

وهكذا نجد سيدنا نوح عليه السلام يخوف الناس من المعاد . وما فيه . فأمن به الضعفاء ، وصدقوا بملاقاة الله فى يوم القيامة ، وأيقنوا بالبعث والحساب . فلما جاء المستكبرون إلى نوح يطعنون فى هؤلاء الضعفاء ، ويطالبونه بطردهم من حوله قال لهم ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُونَ رَبِّمْ ﴾^(٢) أى مصدقون بقاء الله ، موقنون بذلك ، عالمون أنهم ملاقوه لا محالة . ولذلك فلن يطردهم من الأتباع بعد هدايتهم وإيمانهم^(٣) .

ولما أكثر المعرضون من العناد والتكبر عرفهم نوح بأن الله يملك أمرهم فى الدنيا والآخرة . فكما أنه المتصرف فى الدنيا فهو المتصرف فى يوم القيامة وسوف يرجعون إليه ليحاسبهم فقال لهم ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٤) .

فأسلم الأمر إلى الله وعرفهم أنهم سيرجعون- إليه يوم القيامة للحساب والمواخذة .

ولعل الهدف من بيان حقيقة البعث وإثباته أولاً عند الناس هو تخويفهم من الإهمال . وتحذيرهم من العصيان . ذلك أن المرسل صلوات الله عليهم قدموا

(١) تفسير الجلالين ج١ ص١٠٦

(٢) سورة هود الآية ٢٩

(٣) تفسير الكشاف ج٢ ص١٦٦

(٤) سورة هود الآية ٣٤

التخويف ، وللتحذير فى دعوتهم ، وذكرول بهما قبل أى شئ آخر ، ولعظم التخويف يكون هو بالبعث ويوم القيامة ، وإنما قدم الرسل ذلك لأن غالبية القوم مقلدون ، والمقلد لا ينظر فى الدليل ، ولا يعتبر بالآيات. إلا. إذا. أخاف. ، يقول الرازى : إن المقلد إذا خوف خاف ، وما لم يحصل المخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال. ، ولهذا. المسبب قدم الرسل التخويف دائماً كما أشارت. لذلك سورة الشعراء حين كان الرسل يقدمون ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ على ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (١) .

وقد تتابع الرسل بعد نوح ﷺ وكلهم يثبت الميعاد. ويؤكدده ويخوف قومه منه فلقد خوف "هود" قومه من عذاب يوم عظيم وقدم لهم قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ليشعرهم بالخوف. من عذاب. الله الذى سينزل. بهم ، وخاصة فى الآخرة فلما أصروا على الكفر والضلال بين لهم أنهم استحقوا التأنيب فى الدنيا والآخرة فقال لهم ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٢) .

ولقد كان من أوضح أسباب اللعنة أنهم كفروا بالبعث الذى ذكره الله لهم وعرضوا رأيه فى هذا المجال فى دهشة واستغراب. وقال السفهاء. منهم لنظرائهم ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُحْرَجُونَ ﴾ (٣) . ولم يكتفوا بهذا الاستفهام الإنكارى بل أنكروا المبعث صراحة ولستبدول كل ما وعدهم به من أمور الآخرة فقالوا ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازى ج٦ ص٥٣٣ ط الحلبي

(٢) سورة هود الآية ٦٠

(٣) سورة المؤمنون الآية ٣٥

حَيَاتُنَا أَلَدُنِّيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ (١) فلا عجب إذا بعد

هذا الإنكار والاستهزاء أن تتابعهم اللعنات في الدنيا وفي الآخرة .
وسيدنا شعيب عليه السلام خوف. قومه من يوم القيامة ، ودعاهم إلى العمل
الصالح من أجل الفوز فيه فقال لهم ﴿ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ
وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وإنما قال هذا رجاء أن يستجيبوا لدعوته ويؤمنوا في ثواب يوم الآخرة .
وأيضاً فلقد بين سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الإيمان بالله جزء من العقيدة لا
تتم إلا به ، ولا ينزل الخير والأمن في الدنيا إلا على أساس الإيمان. كله ، بين
ذلك وهو يدعو ربه قائلاً ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا
ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

فتراهم عليهم السلام يقصر دعوته بالخير وللأمن على من يستحقها من الناس
والمستحق هو من آمن بالله واليوم الآخر ، أما الكافر بهما فهو إن تمتع فإنما
ينمتع قليلاً في الدنيا لكنه في الآخرة سوف يعذب بعذاب النار وبئس المصير .
وفي هذه الآية يوضح سيدنا إبراهيم حقيقة الإيمان. وللکفر ومآل. كل ولحد
منهما عند الله تعالى .

إن سيدنا إبراهيم دعا إلى المبعث في لين ، ولم يصطدم بعنق المقوم ،
وجبروتهم وحينما كان يلجأ إلى التمثيل كان يمثل بنفسه ، يقول لهم مشيراً إلى

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة العنكبوت الآية ٣٦

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٦

القدرة الإلهية ﴿ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾^(١) ليكون إيمانهم بالله مشتملاً على التسليم بقدرته الشاملة ، للإحياء والإماتة ، والمراد بالموت. هو الإماتة فى الدنيا ، والمراد بالأحياء المجازة على الأعمال^(٢) ، وقد نظمت الآية الإماتة مع الأحياء فى سمت واحد كما ذكر أبو السعود لأنها قد نيّطت بجميع أمور. الآخرة بما يأتى بعدها من البعث^(٣) ، ومن تمثيله بنفسه قوله ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(٤) حيث قال أطمع بينما هو ﷺ قاطع بالمغفرة ، وأسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا وما فعل ذلك إلا تعليماً للامة ليعرفوا أن أثر المغفرة على الخطيئة إنما يظهر حتماً يوم القيامة . ولم يخطئ إبراهيم ﷺ قط^(٥) .

إن- المؤمنین یسلمون- بالیوم- الآخر .- ویصدقون- بالبعث .- ویعملون الصالحات من أجل النجاة فى الآخرة ، وهم لا یؤثرون أى عمل على طاعة الله ، انظر إلى سحرة فرعون لما آمنوا قالوا لفرعون ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ آلِهَتِنَا وَالَّذِي نَحْنُ كَافِرُونَ ﴾^(٦) .

(١) سورة الشعراء الآية ٨١

(٢) مفاتيح الغيب ج٦ ص٥٢٦

(٣) تفسير أبى السعود ج٤ ص١١٠

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٢

(٥) انظر مفاتيح الغيب ج٦ ص٥٢٧ ، البحر المحيط ج٧ ص٢٥ ، تفسير أبى السعود ج٤

ص١١٠

(٦) سورة طه الآية ٧٢

وقالوا أيضاً ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾^(١) فإنهم بذلك أعلنوا إيمانهم الذي لا يعبأ بالدنيا وعذابها وإنما ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب. ، وجزاء. وفق ما أرشدهم سيدنا موسى ﷺ فلقد نقل إليهم قول الله تعالى له ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَأْتِيَةٌ أَكَادُ أَحْفَيْهَا لِيُبْجِرِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ ﴾^(٢) ونقل كذلك قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾^(٣) فالإخراج من الأرض. بالبعث. ، وعودة المروح إلى الجسد من أجل الحساب. وللجزاء. على الأعمال. ، وقد ذكر لهم موسى ذلك ليثبت لهم المبعث المذى. هو من أصول دعوته ، وأحد الأركان التى يقوم عليها الإيمان .

إن المؤمنين من أتباع موسى ﷺ كانوا لشدة يقينهم بالقيامة كانوا يخوفون أهاليهم من أهوالها ، كالرجل الذى آمن منهم ونادى فيهم قائلاً : ﴿ وَيَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾^(٤) ويوم التناد هو يوم القيامة حيث ينادى بعضهم بعضاً للإستعانة. ، أو. يتصايحون. بالويل وللثبور. ، أو. يتنادى أصحاب النار وأصحاب الجنة أو يند بعضهم من بعض على قراءة التشديد. ، وعن المضحاك إذا سمع الكفار زفير النار. ندول وهربوا. فلا يأتون قطراً. من الأقطار. إلا. وجدوا ملائكة صفوفاً فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا. إلى الحساب^(٥) .

(١) سورة الزخرف الآية ١٤

(٢) سورة طه الآية ١٥

(٣) سورة طه الآية ٥٥

(٤) سورة غافر الآية ٣٢

(٥) تفسير أبى السعود ج٥ ص٩

والبعث هو أول ما نطق به عيسى عليه السلام وهو فى المهد إذ قال ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) وكان يقول لليهود الصدوقيين الذى ينكرون البعث " وأما جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات ، بل إله أحياء فلما سمعوه بهتوا من تعليمه (٢) .

ولقد حفلت الدعوة الإسلامية بإثبات المبعث وبينت أنه أحد أركان العقيدة الإسلامية والإيمان به شرط حتمى للإيمان .

(١) سورة مريم الآية ٣٣

(٢) انجيل متى الإصحاح الثانى والعشرون فقرات ٣١ - ٣٣

المبحث الرابع

إثبات أصول العبادات

كان لاتفاق الرسالات فى إثبات وحدانية الله أن اتفقت بالضرورة فى حتمية التوجه إلى الله الواحد ، بالعبادة الخالصة ، التى تشعر الإنسان- المخلوق باحتياجه إلى الله الخالق ، وضرورة العيش فى حقيقة العبودية ، وصدقها .
 جاء فى محاسن التأويل " . المعبودية عند جميع العرب أصلها المذلة ، وللطريق المذلل للسير يسمى طريقاً معبداً . ، وما سمي العبد بالعبد إلا . لذلته لمولاه ، وفى العبودية تحرير النفس لله ، وتخليصها لعبادته وحده لا يشركه شئ مالا فى حبه ، ولا فى خوفه ، ولا فى رجائه ، أو التوكل عليه والتقرب منه" (١) .
 ويقول الشيخ محمد عبده : العبادة ضرب من الخضوع ، بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود ، لا يعرف منشأها ، ولاعتقاد بسلطة له لا يدرك كنهها ، وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فرق إدراكه (٢) .

إن العبادة تعتمد أساساً على غريزة التدين فى نفس الإنسان . ، وللتى تبدو فى الإحساس الخفى ، بوجود سلطان غيبى ، فوق قوى الكون ، وفوق الأسباب ، وصاحب هذا السلطان هو خالق السموات والأرض ، وما فيهما ، وهو مصدر النفع ، والضر ، والمستحق لأن يعظم ويقدر .
 إن الرسالات جاءت لتؤكد هذه المفطرة . وترسم لها طريق استقامتها ، حتى لا تنحرف كما انحرفت من قبل ، حين اتجهت إلى عبادة صنم ، أو وثن

(١) محاسن التأويل ج٢ ص ٩ ، ١٠

(٢) تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده ص ٣١ ، ٣٣

تحسب أن له دخلا في هذا السلطان الكبير ... وبذلك أخذت. الرسائل. الناس إلى طاعة الله ، وتسليم الأمر له ، وخلص العبادة له وحده سبحانه وتعالى . ولعل اهتمام الرسائل بالعبادات على أساس. هذا. المفهوم هو الذي سهل للعابدين من اتباع سائر الدعوات أن يتسموا بالمسلمين .

فنوح عليه السلام يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١) .

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. يقولان. ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ

لَكَ ﴾^(٢) .

وإبراهيم ويعقوب. يوصيان. أولادهما ويقولان. ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴾^(٣) .

ويوسف عليه السلام يقول لربه ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾^(٤) .

وسليمان يرسل إلى بلقيس قائلاً ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾^(٥) .

فلما أسلمت قالت ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .

وإبراهيم عليه السلام ﴿ مَا كَانَتْ إِِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٧) .

(١) سورة يونس الآية ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٨

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٢

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١

(٥) سورة النمل الآية ٣١

(٦) سورة النمل الآية ٤٤

(٧) سورة آل عمران الآية ٦٧

وحواريو عيسى عليه السلام قالوا ﴿ءَامِنًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(١) .
 ولا غرابة في هذه التسمية لأنها تتفق مع مفهوم العبادة في كثير من
 الجوانب إذ الأصل اللغوي لمادة الإسلام تحتل معان ثلاثة :-

أحدها : الانقياد والمتابعة : وفي الحديث " أن الله أعانني عليه حتى
 أسلم"^(٢) أي انقاد لي وكف عن وسوستي .

وقال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسِتُمْ مَوْمِنَا﴾^(٣) أي لا
 تقولوا ذلك لأنه صار منقاداً لكم ومتابعاً .

الثاني : السلامة والأمانة : قال الأزهرى المسلم من دخل في باب السلامة
الثالث : قال ابن الأنبارى المسلم معناه المخلص لله في عبادته ، فالإسلام
 هو الإخلاص لله في عبادته^(٤) .

هذه المعانى المحتملة من لفظة الإسلام هي نفسها المعانى المستفادة من
 العبادة لأن العبادة فيها انقياد كامل لله ، وإخلاص للمعبود ، عن رغبة مستلزمة
 للأمن والسلامة ، يقول ابن تيمية " إن العبادة تتضمن معنى الذل ومعنى الحب
 معاً ، وأول مراتب الحب العلاقة ، ثم الصبابة ، ثم الغرام ، ثم العشق ، وآخره
 التتيم ، يقال تيم الله أي عبده ، فالمتيم المعبد لمحبوبه^(٥) .

ويقول الرازى عند قوله تعالى ﴿فَإِنَّ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾^(٦)
 فإذا أسلمت وجهي لله فلا أعبد غيره ، ولا أتوقع الخير إلا منه ، ولا أخاف

(١) سورة آل عمران الآية ٥٢

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٧ ، ص١٥٧

(٣) سورة النساء الآية ٩٤

(٤) مفاتيح الغيب ج٢ ص٦٣٨

(٥) رسالة العبودية لابن تيمية ص٥

(٦) سورة آل عمران الآية ٢٠

إلا من قهره وسطوته ، ولا أشرك معه غيره في العبادة^(١) .
وبذلك يتضمن إسلام الوجه للإخلاص ، وكمال العبودية ، وقصرها على
الله وحده ، فدعوة الرسل إلى العبادة دعوة إلى الإسلام في الحقيقة .

والعبادات التي دعا إليها الرسل نوعان :

الأول : محدد ، مقدر ، مكيف بنص مقدس ، لا يقبل التغيير والتبديل .
الثاني : ليس كذلك ويدخل في دائرة الأخلاقيات المشتملة على كل ما هو
حسن وصالح .

أما عن النوع الأول فيقول الغزالي عنه : إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء
لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل المعقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين
أدركوا تلك الخواص بنور النبوة^(٢) .

ويقول العقاد عنها : أنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها^(٣) .
وللعبادات المحددة التي هي عادة ما يلتزم أثرها ، ويطلب سرها ،
كالصوم والصلاة ، والزكاة ، والحج قد اتفقت الدعوات السابقة في وضع أصولها
للناس حتى يتحقق الانقياد العملي ، ويظهر الإخلاص لله تعالى بها .

هذا هو سيدنا إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة
فيقول ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴾^(٤) .

ومن الأوصاف التي استحق بها سيدنا إسماعيل عليه السلام المدح إقامته للصلاة
يقول الله تعالى ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

(١) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٦٣٠

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٨٥

(٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٠٨

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٠

مَرْضِيًّا ﴿١﴾ .

وحيثما كلف الله موسى ﷺ بالرسالة كان أول ما أمر به هو الصلاة ،
حيث قال الله تعالى له ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لِذِكْرِي ﴾ (٢) .

وأمر هو وأخوه هارون بها ، قال الله تعالى ﴿ أَن تَبَوَّءُوا لِقَوْمِكُمْ مَا مَمْصَرٌ
بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .
ومن وصايا لقمان لابنه ﴿ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .
والصلاة أول ما نطق به عيسى في المهد إذ قال ﴿ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٥) .

فترى الرسل قد كلفوا بإقامة الصلاة وبلغوا هذا التكليف .
إن الصلوات الواردة على ألسنة المرسل أعمال مكررة ، في مواعيد ثابتة
وتحتاج إلى تدبر ، وتذكر ، وخضوع كما يدل على ذلك لفظ إقامة الذي أسندت
إليه الصلاة وكيفية هذه الصلاة من ناحية الإحاطة بها تحتل رأيين :
الأول: :- أن يطلع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة ،
وتفاصيلها وهيأتها لتكون معلومة لديه ، ويعرفها لأمتها ليعبدوا الله بها .

(١) سورة مريم الآية ٥٥

(٢) سورة طه الآية ١٤

(٣) سورة يونس الآية ٨٧

(٤) سورة لقمان الآية ١٧

(٥) سورة مريم الآية ٣١

الثانى : أن لا يطلع الله المرسل على التفاصيل ، وإنما يعرفهم بها فى إجمال .

وهذان الرأيان ذكرهما الرازى عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ وقد ذكر الرازى فى تفسير سورة لقمان أن هذه الكيفية للصلاة اختلفت هيأتها من رسالة إلى رسالة ، وإن اتحدت فى حقيقتها وغرضها^(١) . وسواء كانت الصلاة معلومة للمرسل ، أو غير معلومة ، فإنه لا يمنع أن يكون هناك اشتراك فى بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبله ، وإن اختلفت فقد ثبت أن اليهود كانت تتوجه إلى بيت المقدس ، فى الصلاة وثبتت مشاركة النبى ﷺ لهم فى هذا الاتجاه بعد الهجرة سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحول إلى الكعبة فى مكة^(٢) ، وكالركوع ، وللسجود . فإن إبراهيم عليه السلام قال ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾^(٣) .

ومريم نوديت ﴿ يَمْرِيْمُ أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾^(٤) .
وداود عليه السلام ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾^(٥) .

وكتأدية الصلاة فى مكان طاهر ، كالمسجد ، والبيع ، والمكنايس ، وللزكاة أيضاً بمعناها البسيط الذى هو إعطاء المحتاج جزء من المال معونة له جاءت أصولها فى الرسالات السابقة .

(١) مفاتيح الغيب ج ٦ ، ص ١٨ ، ج ٦ ص ٨٦٣

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول ج ١ ص ٢٣ ، ٢٤

(٣) سورة الحج الآية ٢٦

(٤) سورة آل عمران الآية ٤٣

(٥) سورة ص الآية ٢٤

فعن إبراهيم وابنه إسحاق يقول تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾^(١) .
ومن صفات إسماعيل عليه السلام وصلحه ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾^(٢) .

ومن أقوال المسيح فى مهده ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾^(٣) .

وجاء فى العهد القديم " أنصفوا المسكين ، والبائس ، نجوا المسكين ، والبائس " ^(٤) .

وجاء أيضاً " من يرحم الفقير يقرب الرب " ^(٥) .

وجاء فى العهد الجديد " بع أملاكك وأعط الفقراء فسيكون لك كنز فى السماء " ^(٦) .

وجاء فيه أيضاً " تعالوا يا مباركى أبى ، ورثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريباً فأويتمونى عرياناً فكسوتهمونى ، مريضاً فزرتهمونى ، محبوساً فأتيتهم إلى ، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، أو عطشاناً

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٣

(٢) سورة مريم الآية ٥٤

(٣) سورة مريم الآية ٣١

(٤) مزلمير دود الإصحاح ٧٣ فقرة ٤

(٥) الأمثال إصحاح ١٩

(٦) إنجيل متى الإصحاح ١٩ فقرة ٢١

فسقيناك ومتى رأيناك غريباً فأويناك ، أو عرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً فأتينا إليك ، فيجب الملك ويقول : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر في فعلتم^(١) .

والصيام معروف في الرسائل السابقة يقول الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٢) .

والحج منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام معروف للناس بعد أمر الله له ﴿ وَأَذِّنْ فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾^(٣) .

وعلى هذا فأصول العبادات موجودة في جميع الرسائل السابقة ، وذكر وجود هذه الأصول منذ التقديم يفيد تقبلها ، لأن العبادات تكليف ومشقة وللشئ الشاق إذا عم سهل تحمله ، يقول أبو السعود : في ذكر العبادات تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطبيب لأنفس المخاطبين^(٤) .

وكما سبق من اختلاف كيفية الصلاة فكيفية العبادات على نمطها ، وللصوم فإن جميع الرسائل جعلته إمتناعاً عن المفطرات في وقت معلوم والتشبيه الوارد في قوله ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يفيد المماثلة في أصل الوجوب أو في الوقت ، أو في المقدار ، وقد رجح الفخر الرازى أن المماثلة في أصل الوجوب فقط لأن الكيفية تختلف على حساب استعدادات

(١) إنجيل متى ، الإصحاح ٢٦ فقرة ٣٤ - ٤٠

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٣) سورة الحج الآية ٢٧

(٤) تفسير أبي السعود ج٦ ص٤٠٤

المكلفين وقدراتهم^(١) .

ويكفى أن تعلم أن الكيفيات التي وضعت فيها العبادات سابقاً كانت تتضمن الإنقياد لله ، والامتثال المطلق لأمره في النفس ، وللمال . ، وكافة ما يستطيعه البشر .

والعبادات الإسلامية تتحد مع أصول العبادة عموماً ، وتقصد أهدافها تماماً وقد جاءتنا مفصلة الهيئات . ، معروفة بدقة من ناحية الوقت ، وللكيفية ، والمقدار .

المبحث الخامس

الاهتمام بمكارم الأخلاق

تعتبر الأخلاق جانباً حيويًا وهاماً في كل رسالة سماوية ولم تكتف ولحده منها بتصحيح العقائد والشرائع بل وصل اهتمامها بالأخلاق إلى أن المناداة بها ظهر مقترباً بظهور الدعوة ، وكانت المناداة بالأخلاق متزامناً مع الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله .

والرسل صلوات الله عليهم خير الناس ، اصطفاهم الله تعالى لنشر المكارم الأخلاقية ، وركز في طباعهم السمو النفسى ، والأخلاقى الذى جعلهم مستعدين للقيام برسالتهم ، ويحدد الرسول الخاتم ﷺ منزلة الخلق فى الرسالات فيقول ﷺ " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (١) .

فهو متمم لمن سبقه من المرسل . وكان الهدف من كل رسالة هو نشر جانب أخلاقى ما ، إلا أن الرسالة الخاتمة جاءت متممة لهدف هذه الرسالات بتكميل مكارم الأخلاق كلها .

ولقد كان منهج الرسالات المقدس فى تعليم الأخلاق. ولضاحاً فى اتجاهات معينه نجملها فى اتجاهات أربعة هى :

- الأولى : الدعوة إلى الأخلاق مع بدء الدعوة إلى التوحيد .
 - الثاني : الدعوة إلى الأخلاق بأعمال الرسل وأقوالهم .
 - الثالث : محاربة الرذائل الأخلاقية والتركيز على المتفشى منها .
 - الرابع : بيان العاقبة الحسنة لأصحاب الأخلاق الفاضلة .
- وهذه الأمور فصلها فيما يلى :

(١) موطأ مالك بشرح الزرقانى باب ما جاء فى حسن الخلق ج٤ ص١٢

الاتجاه الأول الدعوة إلى الأخلاق مع بدء الدعوة إلى التوحيد

بدأ الرسل في دعوتهم إلى الأخلاق. مع بدء الدعوة إلى التوحيد ، حتى يصنعوا بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهوتها ، والقلب وهواه ، ويرسموا للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل ، والصالح .

وإنما بدأوا هكذا لأن الإيمان بالله قرين الأخلاق . كلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً ، وطاعة مطلقة لله تعالى ، وتجنب المظالم ، وإنصاف النفس من كل ما يشينها ويرديها ، وكلا يستوجب على صاحبه أن يتحلى بالآخر . ولا يكمل الآخر إلا مع الأول ، ولذلك لم يبعث رسول إلا إلى قوم فسدت أخلاقهم وضلت عقائدهم ، وعاثوا في الأرض فساداً . ولستكباراً . في هذا الوقت تعمل الرسالة على إصلاح هذا الحال مع الدعوة إلى الإيمان .

هذا هو سيدنا نوح عليه السلام بعث في قوم ضلت عقائدهم وفسدت أخلاقهم ، وأخذوا في تلقين ناشئتهم هذه المبادئ الضالة في العقيدة والأخلاق . يبينها سيدنا نوح عليه السلام في قوله لربه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (١) .

ويقول تعالى ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ الْمَظَالِمَ إِذْ دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ فَبُذِلْتُ عَلَيْهِمْ وَأَمَّا الْفُلُ فَأَصْبَحَتْ ظُلْمًا وَأَمَّا الْبَنَاتُ وَأَكْفَرْنَ وَالْوَالِدَاتُ كَانَّ أَهْلًا لِبُرِّهِنَّ فَخَسِلْنَ فِيهَا وَأَمَّا الْبَنَاتُ فَوَسَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَحْشَىٰهَا فَهِنَّ يَكْفُرْنَ بِهِمْ وَإِنِّي لَأَخِيتُهُنَّ بِمَا كُنَّ يَكْفُرْنَ بِهِ ﴾ (٢) .

(١) سورة نوح الآية ٧

إِلَّا ضَلَالًا ﴿١﴾ .

فمن هذه الآيات. نعلم أن قوم نوح كانوا أئمة في الضلال. ، ورؤساء في الكفر ولذلك نادى نوح ربه أن لا يدع أحداً منهم ،. لأنه إن تركهم أضلوا. عبادة وإن ولدوا نشأوا أولادهم على الشرك والمعصية ،ولا. غرو. فقد استمرأول المعصية وألفوها .

يقول أبو السعود : إنهم أصروا على المعاصى والكفر ،. ولستكبروا استكباراً. شديداً عن الإتياع والطاعة^(٢) ، ولوضعهم هذا طلب الرسول منهم أن يعبدوا الله ويتركوا المعاصى وقال لهم ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۗ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ .

وهود عليه السلام دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾^(٤). وفى نفس الوقت ،. أمرهم بأن يتوبوا. عن المعاصى ويستغفروا الله عن الذنوب ، ولا يصروا على الإجرام ، والظلم ، فقال لهم ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله سبحانه ﴿ وَيَنْقُومِ اسْتِغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾^(٥) .

ولقد دعا هود قومه إلى التوبة ، والاستغفار مع دعوتهم إلى التوحيد ،

(١) سورة الحج الآية ٢١ إلى ٢٤

(٢) تفسير أبى السعود ج٥ ص١١٧

(٣) سورة نوح الآيتان ٣ ، ٤

(٤) سورة هود الآية ٥٠

(٥) سورة هود الآية ٥٢

لأنهم عتوا عتواً كبيراً ، واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا غروراً. وتعالى من أشد منا قوة ؟

وصالح عليه السلام بعثه الله لقومه فطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد وينبذوا فاسد الأخلاق ويتوبوا عنها ، فقال لقومه ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۙ ﴾^(١) .

فطلب إليهم أن يوحدوا الله ويعبدوه ويرجعوا عما كانوا يباشرونه من القبائح الأخلاقية ، وقد جاء النظم فى الآية مهتماً بالتوبة حيث ذكر العلة الباعثة عليها وهى أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها ، وجعل عقبها مباشرة الغاية المرجوة وهى إن ربي قريب مجيب^(٢) .

ووضح صالح عليه السلام أن هذه الغاية وتلك العلة داعيتان إلى توحيد الله ، وعبادته ، وترك الضلال والسفه بصورة تلقائية ، فقد وضعتهما الآية حول الأمر بالتوبة للإشارة إلى أهمية هذا الأمر ، وضرورته للتوحيد ، ولبيان مدى ما يترتب عليها من فائدة .

وقد أخذت التوبة هذه الأهمية لأن قوم صالح عتوا عتواً كثيراً ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فى الوقت الذى تمتعوا فيه بنعم من الله وفيرة إذ خلفوا عاداً وطالت أعمارهم ، وكثر رخاؤهم ، ونحتوا من الجبال بيوتاً وحصوناً ، واتخذوا من السهل قصوراً ومسكن ، فكان لا بد أن يذكرهم بهذه النعم عند دعوتهم كما قال لهم ﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۗ ﴾

(١) سورة هود الآية ٦١

(٢) تفسير أبى السعود ج٣ ص٣١

فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١﴾ .

وهكذا دعا صالح عليه السلام قومه إلى التوحيد وفي نفس الوقت دعاهم إلى ترك الفساد والاستكبار .

وشعيب عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد واستقامة الأخلاق حيث قال لقومه ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ الْعِبَادُ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَ تَكْوِيمَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَاقْوُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۗ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

فإنه عليه السلام قد بدأ بإصلاح العقيدة وبقى عليها بالأمر بإيفاء المكيل ، والميزان إذا باعوا ، والنهي عن بخر الناس . أشياءهم إذا اشتروا . ، ولن يبتعدوا عن كل إفساداتهم بعد ذلك ، . جاء في دعوة الرسل إلى الله تعالى أن المراد بالبخر النقص ، والأشياء أعم من المكيل ، والموزون كالمواشي والمعدودات . ويشمل البخر المساومة ، والغش ، والحيل .

والإفساد في الأرض يتضمن أكل أموال الناس بالباطل والبغي ، وللعداون على الأنفس وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة ، والباطنة ، وقد نهاهم شعيب عن كل هذا وختم قوله لهم بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وكان مقتضى الإيمان يستلزم التمسك بالطيب الحلال ، والبعد عن الخبيث المحرم (٣) .

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٥

(٣) دعوة الرسل إلى الله ص ١٥٥ إلى ١٥٧ بتصرف

وهكذا جمع شعيب في أول دعوته بين المناداة بالتوحيد والمناداة بالأخلاق كسائر الرسل عليهم السلام .

و " لوط " عليه السلام يبدأ دعوته بأن يستنكر على قومه مفسدهم فطالبهم بتتقية أخلاقهم حينما طالبهم بالتوحيد ، ذلك لأنهم كما ذكر صاحب قصص الأنبياء كانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله ، حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء ولا يرون في ذلك سوءاً أو قبحاً فيعلنونه ولا يستترون^(١) فهم في هذا الباب فريدون لا سابق لهم وقد بين الله لهم هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي لَأَتَأْتُونَ اللَّهَ لَهْم هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴾ **﴿ أَلْفَحِشَّةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾**^(٢) .

فهم يعلنون الفاحشة الظاهر قبحها من دون سائر الناس ، ولا يرتدعون أبداً ولقد وصفهم لوط بسبب هذا بصفات عدة ، إنكاراً منه لعملهم ، وتوجيهاً لهم إلى الخير فقال لهم ، مشيراً إلى إسرافهم في الفاحشة وتجاوزهم الحد المعقول ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾^(٣) .

وأشار إلى تعديهم حدود الأدب والعقل فقال لهم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾^(٤) . وعرفهم ببعدهم عن الحقيقة وجهلهم فقال لهم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾^(٥) . فهم في الواقع سفهاء ، ومسرفون ، وجهلاء ، وقد حاول لوط عليه السلام أن يوقظ فيهم حمية الشرف والكرامة بأوجه متعددة .

(١) قصص الأنبياء ص ١١٣

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٨

(٣) سورة الأعراف الآية ٨١

(٤) سورة الشعراء الآية ١٦٦

(٥) سورة النمل الآية ٥٥

فسألهم أولاً على وجه الإنكار وقال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴾^(١) .
 وذلك ليثير في أنفسهم محاولات فهم موضوع السؤال .، ذلك أن الاستفهام
 في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به الجواب. في موضعه ،
 مما يؤدي به إلى استنكراه ما يفعلون .، وكان ﷺ يسألهم ويعرفهم أنه لا نظير
 لهم ، فيقول ﴿ وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ
 مِنَ الْعَلَمِينَ ﴾^(٢) .

ويشير ﷺ في سؤالهم إلى ضرورة أن يعملوا. فكرهم وبصرهم فيسأل
 ﴿ وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) .

ووجههم ثانياً إلى وجوب التسامى بغريزتهم وبذلها في حلال .، لأن الشهوة
 إن بذلت في موضعها المشروع فهي صفة حسن ، وإن بذلت في غير المشروع
 فهي فحشاء وصفة قبيحة ، وقد أراد ﷺ أن يعودهم التسامى بالشهوة ، وينتقلوا
 بها من الفحشاء إلى الحسن فقال لهم عند حضور أضيافة وقد أرادوا الاعتداء
 عليهم قال لهم ﴿ هَتُّوْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾^(٤) يقصد ﷺ أن يتزوجوهن
 بالطريق المشروع .، ومما يؤكد هذا المقصد " لفظ أظهر " لأن لقاء البنات
 والنسوة لا يكون طاهراً إلا بالمشروع .

ومن سفه القول أن يتصور أحد أنه يريد استبدال اللواط بالزنا ، حتى لو
 أريد ببنايتي بنات الكفار مع قومه ، لأن الرسول لا يستبدل خطأ بخطأ .، وإنما
 يجتث الخطأ من جذوره .

(١) سورة الشعراء الآية ١٦٥

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٠

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٥

(٤) سورة هود الآية ٧٨

وأيضاً كون المقصد هو الزولج المشروع أولى من أن يكون المقصد هو البنات بلا زواج ، عن طريق عرض سريع بلا إلحاح ، ليبين لهم فساد ما هم عليه ، ويستدرجهم إلى الفضيلة في نهاية عرضه ، لأن عرض البنات هكذا مؤد إلى الخجل فيصرفوا ، ويتركوا أضيافة .

وإنما قلنا إن القصد الأولى بالاعتبار هو الزواج المشروع لأنهم قوم فقدوا الحياء كلية ، وامتأوا سفهاً وجهلاً وعدواناً ، يأتون المنكر في ناديتهم ، ويهددون رسولهم بالطرد . وهؤلاء لا حياء عندهم ولا خجل كما أن استدراجهم إلى الفضيلة لا يفيد ، وقد عرف الله لوطاً بحقيقة القوم فكيف ينتظر منهم عليه السلام حياء أو خجلاً ؟

وبذلك تعين أن يكون قصد لوط عليه السلام هو الزواج المشروع كما نص عليه أبو السعود في تفسيره ، واستبعد أو ضعف ما عده (١) .

وهكذا اتجه لوط إلى تعليم قومه الأخلاق مع دعوتهم إلى التوحيد ولا عجب فإن الرسل جميعاً اهتموا بالأخلاق .

ومن بعد سيدنا لوط رأينا موسى عليه السلام يدعو إلى الأخلاق ويقول لفرعون

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّىٰ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۗ ﴾ (٢)

فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر وللطغيان عن طريق خشية الله ، وقد خاطبه بأسلوب الاستفهام ليستدعيه بالتلطف في القول ، ويستنزله بالمدارة من عتوه تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهِ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۗ ﴾ (٣) .

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٣٦

(٢) سورة النازعات الآيتان ١٨ ، ١٩

(٣) سورة طه الآية ٤٤

وعيسى عليه السلام لما سأله أحد الفريسيين قائلاً : " يا معلم أية وصية هي العظمى فى الناموس ؟ فقال له يسوع : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك .

هذه هي الوصية الأولى العظمى ، والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ، فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس ، كله والأنبياء (١) .

وهكذا دعاهم إلى الله ومكارم الأخلاق. وقد وضح ذلك فى القرآن الكريم وهو يحكى إجابة عيسى لله تعالى فيقول ﴿ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

وقد تضمنت آيات كثيرة التوحيد وللخلق معاً وجاءت أمراً إلى الأمة الإسلامية ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّكُمْ لَعَلَيْكُمْ لَرِزْقًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ لَتَعْفَلُونَ ﴾ (٣) .

ومثل هذه الآية كثير فى القرآن الكريم ، وكله يوضح الاهتمام بالخلق مع التوحيد .

(١) انجيل متى الإصحاح الثانى والعشرون الفقرات ٣٧ - ٤١

(٢) سورة المائدة الآية ١١٧

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥١

الإِتِّبَاهُ الثَّانِي

المنهج العملي التطبيقي

كان الرسل صلوات الله عليهم في دعوتهم إلى الأخلاق يبذون صورة عملية لما يدعون إليه ، ولذلك امتازوا بالأخلاق الفاضلة التي قصها لنا القرآن الكريم . فالأمانة وهي من أمهات الأخلاق. اتصف بها جميع الرسل قبل بعثتهم وبعدها، وظهرت معهم كإلزام من لوازم حياتهم ، ولشتمهول بها بين أقوامهم ولذلك رأينا الرسل حينما يقابلهم الناس بالتكذيب ، والإيذاء يذكرون لهم ما عرفوا به لديهم ، من أمانة ووضحة قبل الرسالة ، وهي معهم بعد الرسالة بالضرورة ، وقد قال كل رسول لقومه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾^(١) .

يقول أبو حيان : هذه الآية علة معلولها ما تقدمها من عرض الرسول تقوى الله عليهم، وعللة هذا معلولها تقتضى أن تكون معروفة ، ومعهودة ، لدرجة تدفع إلى الإيمان بالمعلوم فالرسول مشهور بين قومه بالأمانة^(٢) .
وكأنه يقول لهم بهذه الآية: كنت أميناً من قبل فكيف تتهموني اليوم^(٣) ؟
لأن الكفار لا يستطيعون إنكار ما اشتهر به رسولهم ، ولذلك حاولوا إزالة الصفات المعروفة عن الرسل بدعوى حدوث أمور. عارضة منعت استمرار هذه الصفات. المسلم بها من قبل ، كدعوى الإصابة بالجنون. ، أو. بالمس بالشياطين^(٤) .

(١) سورة الشعراء الآية ١٠٧

(٢) البحر المحيط ج٨ ص٣١

(٣) تفسير أبي السعود ج٤ ص١٢٣

(٤) مفاتيح الغيب ج٦ ص٥٣٣

من أمثال ذلك قول قوم نوح عنفى حكاية قوله تعالى ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
 بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾^(١) فنكروا أنه أصيب بجنون .
 وأيضاً قال قوم هود ﴿ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي
 أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾^(٢) واكتفى قوم صالح بتكفيره بأنه
 كان قبل البعثة محل رجائهم وأملهم وقالوا ﴿ قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا
 قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾^(٣)
 وهكذا كانت الأمانة أولى الصفات التي ظهرت فى أعمال المرسل وحياتهم
 لشمولها وأهميتها ، ولذلك حاول المعارضون ردها ، وعقدوا من أجل إبطالها
 المؤتمرات والاجتماعات ، كما فعل القرشيون مع محمد ﷺ الذى اشتهر بالأمانة
 فإنهم اجتمعوا من أجل وضع وصف له يشيعونه بين الناس ، ولالأعراب ،
 ليصدوهم عن استماعه ، فلقد اجتمعوا ولم يجدوا إلا الاتهام بالسحر وقالوا عن
 القرآن ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾^(٤) .

ورغم كل هذه الدعاوى المفتراه واللسفاهة الواضحة من المعارضين لسائر
 الرسل لم نجد إلا لنا وتسامياً من المرسل ﷺ فلم يردوا على معارضيتهم بقول
 غليظ ، أو عمل شديد وكل ما ردوا به هو نفي التهمة المستحدثة ، وبيان أنهم
 رسل الله ، وذلك كرد نوح ﷺ حيث قال ﴿ قَالَ يَبْقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالُّةٌ وَلَكِنِّي

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٥

(٢) سورة هود الآية ٥٤

(٣) سورة هود الآية ٦٢

(٤) سورة المدثر الآية ٢٤

(١٨٠)

رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وكرد هود حيث قال ﴿ قَالَ يَنْقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلِيَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وأما صالح عليه السلام فإنه تولى عنهم ﴿ وَقَالَ يَنْقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٣) ، وكذلك كان لين شعيب عليه السلام حيث استمع إلى معارضة قومه وتهديداتهم ثم كانت النهاية عنهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ دُكَّانٌ بِي حَفِيًّا ﴾ (٥) وعلى نمط هذا اللين والتسامح كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكما اشتهر الرسل بالأمانة اشتهروا كذلك بالعفة فلم يمدوا أيديهم على شيء عند الناس ، ولم يحسدوا أحداً على ما آتاه الله من فضله ، ولم يأخذوا أجراً على دعوتهم . ولم يكونوا عالة على أحد قط . فلقد رعى جميعهم الغنم يتكسبون لمعاشهم ويستغنون بها عن عطاء الناس ، يبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك حين سأله جابر بن عبد الله رضي الله عنه : وهل كنت ترعى الغنم ؟ قال له صلى الله عليه وسلم : وهل من نبي إلا وقد رعاها (٦) .

(١) سورة الأعراف الآية ٦١

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٧

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٩

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٣

(٥) سورة مريم الآية ٤٧

(٦) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب يعكفون على أصنام لهم جاءه ١٩١ ط . الشعب .

يقول السهيلي : وإنما جعل الله هذا . رعى الغنم . فى الأنبياء ليكونوا رعاة الخلق بعد ذلك ، وليكون الخلق الكريم دينهم ^(١) .

وقد أكد الرسل جميعاً لأقوامهم أنهم لا يأخذون أجراً على دعوتهم ، ولا يطلبونه البتة ، وذكروا ذلك فى وضوح حيث قالوا جميعاً لأقوامهم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) .

وكما جبلوا على الأمانة والعفة اشتهروا بالصدق ومن أجل تأكيد صدقهم أنتهم المعجزات الخارقة للعادة لتكون دليل صدق على البلاغ .

يقول صاحب المواقف : أجمع أهل الملل وللشرائع على عصمة الأنبياء من تعمد الكذب ، فيما دل على صدقهم فيه ، كدعوى الرسالة ، فيما يبلغونه عن الله ^(٣) ، ولا بد من صدقهم فى هذا لئلا تبطل فائدة الرسالة إذ لو جاز كذب النبى فى الأحكام التبليغية لبطلت دلالة المعجزة على صدقه فيما أتى به من الله مع أن دلالة المعجزة على صدقه دلالة عادية قطعية ^(٤) .

ولقد مدح القرآن سائر الرسل وأظهر صدقهم فقال تعالى ﴿ وَأذْكُرْ فِي

الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(٦) وقال تعالى ﴿ وَأذْكُرْ فِي

الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ^(٧) .

(١) الروض الأنف ج١ ص ١٧٨

(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٩

(٣) شرح المواقف ج٢ ص ٢٠٤

(٤) شرح العلامة عبد الحكيم ج ص ٤٦٧

(٥) سورة مريم الآية ٤١

(٦) سورة مريم الآية ٥٤

(٧) سورة مريم الآية ٥٦

وهكذا وصفهم القرآن بالصدق بصيغة المبالغة ، مع تقديم هذه الصفة فى الذكر على النبوة ، لأن النبوة متوقفة عليها ، ولن تكون بدونها ، ولم يحدث عملياً أن كذب نبي قط ، وما جاء من أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات. مثل ما روى مسلم والبخارى عن أبى هريرة من عدة طرق. أن رسول الله ﷺ قال . واللفظ للبخارى . " لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه ؟ قال : أختى .

فأتى سارة وقال لها : يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيرى . ، وغيرك ، وإن هذا سألتى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبنى^(١) . هذا الذى جاء منافياً للصدق الدائم لرسول الله يجعلنا نحمله على معاريض القول .

والمعاريض نوع من البديع ، معناه أن يدل اللفظ على معنيين أحدهما صدق. ينويه المتكلم فى نفسه ، وللتأني كذب. يسكت المتكلم عن نفيه إسكاتاً للمجادل ، وحمل الحديث على المعاريض يجعلنا لا نكذب الحديث ، ولا نكذب إبراهيم عليه السلام وتأويل الكلمات على مفهوم المعاريض ممكن لأن معنى " إني سقيم " مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع على الكفر ، ومعنى قوله " بل فعله كبيرهم هذا " إسناد الفعل إلى نفسه لا إلى الصنم .

يقول الزمخشري : إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته على أسلوب تعريضى يبلغ

(١) صحيح البخارى. كتاب بدء الخلق ، باب . "ولتخذ الله إبراهيم خليلاً" . ج ٤ ص ١٤١ ،

صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب إبراهيم عليه السلام ج ١٥ ص ١٢٣

(١٨٣)

فيه غرضه^(١) ، وقوله "هي أختي" أي أختي في الإسلام ، وقد ورد في لفظ رواية مسلم " تلك أختي في الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرى وغيرك "^(٢) .

هذا وقد قال الرازى فى تفسيره ، إن الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض^(٣) ومن المعلوم أن ما فى المعاريض من صور الكذب ليس كذباً فى الحقيقة وقد جمع البخارى صوراً منها وترجم لها بعنوان " باب المعاريض مندوحة من الكذب "^(٤) .

وهكذا كان الأنبياء صادقين ، وأمناء ، وأصحاب عفة ، وقد جمعوا سائر الأخلاق الفاضلة فلما جاء خاتمهم محمد ﷺ أتم الأخلاق بكل جديد أتى مع التطور وقال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "^(٥) .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص٥٧٧ (هامش ص٦٨ من أصول الدعوة)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب إبراهيم عليه السلام ج١٥ ص١٢٤

(٣) تفسير الرازى ج٦ ص٩٨

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب الأدب ج٨ ص٥٩ باب المعاريض مندوحة عن الكذب .

(٥) موطأ مالك باب ما جاء فى حسن الخلق ج٤ ص٩٢

الاتجاه الثالث

التركيز على الرذائل المتفشية

قامت الدعوات السماوية لإصلاح الفساد في جميع الجوانب ، وبكافة الصور . إلا أنها كانت تركز على الفساد المتفشى في البيئة التي بعث فيها الرسول .

ولعل أخطر فساد تفشى في البيئات كلها ، ولأخذ صبغة مشابهة هو تعلق الناس بالله لا ينفع ولا يضر .

ورغم أن نظرة الأقسام إلى الأصنام كانت مرتبطة بعقائدهم ، إلا أن اتصالها بالأخلاق هامة وخطيرة ، ولنا ساعدت على نشر المفساد ، وللضرر لأنها لم تقدم قيماً ، ولم تأمر بتصحيح خطأ فبرزت سيئاتها في أخلاقهم بوضوح ، ولذلك جاهد الرسل عليهم السلام لنبذ هذه النظرة العقائدية أولاً ، والمتجهة إلى إفساد الأخلاق ثانياً .

ومن الأخطاء التي ركز عليها المرسل ، ولبرزها القرآن الكريم على سبيل المثال ما كان من قوم شعيب حيث كانوا يطففون الكيل ، وللميزان فإذا اختلفوا على الناس يستوفون ، وإن أعطوا يخسرون ، فأتاهم شعيب عليه السلام لإصلاح هذا الخطأ وقال لهم : ﴿ وَيَقَوْمٍ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ^(١) ومثل هذا النداء تكرر في قصص القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام .

ومنها الرذائل السيئة التي فعلها قوم لوط عليه السلام حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين ، ويتركون النساء ، وقد تفشى فيهم هذا الداء لدرجة أنهم كانوا يؤتونه

على أعين الناس من غير استحياء ، مع أنهم لم يسبقوا. بمثله ، فقال لهم لوط ما حكاه الله فى قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١﴾ وقد تكررت. تفاصيل فاحشة قوم لوط فى كل المواضع التى ذكر القرآن الكريم قصتهم فيها.

ومن هذه المفاصد ما كان من فرعون من ظلم ، وطغيان ، حيث ادعى أنه رب الناس. الأعلى ،. ولستولى على جميع البلاد. ،. وللعباد. ،. وقال للناس. ما حكاه الله تعالى ﴿ وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۗ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) ووصل به طغيانه إلى أن استبد ببنى إسرائيل فى مصر ، وأصدر أمره بقتل جميع ذكورهم ، وترك نسائهم ، ولذلك جاءه موسى عليه السلام ومعه هارون. لتصحيح هذه المفاصد. ووضع نهاية لمظالمه. ،. وكان. ما كان. إلى أن. هاجر بنو إسرائيل إلى الشام. ومعهم موسى وهارون ، وغرق فرعون ، وجنوده ، وماتوا جميعاً فى اليم .

ومع التركيز على المفاصد الرئيسية الموجودة لم يهمل المرسل توجيه أى جانب فى بيئتهم ،. ومع الناس. الذين أتوا. إليهم ،. فكانوا. يشجعون. المصالح ، ويحاولون. منع سائر المفاصد المضارة بالمجتمع ،. وللناس. إلى أن. جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اكتملت الإنسانية عقلياً فوضع المناهج الأخلاقية الشاملة لكل نواحي الحياة ، لا فى البيئة العربية ، وإنما لسائر البيئات .

(١) سورة الأعراف الآيتان ٨٠ ، ٨١

(٢) سورة الزخرف الآية ٥١

الاتجاه الرابع

بيان عاقبة الأخلاق

دعا الرسل الناس بدعوة الحق فأمن قوم وكفر آخرون. ، وكان من أهم ما نادوا به هو الأخلاق ، وقد حكى القرآن مصائر المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، ليتضح الطريق لمن لا يزال فيه ، وينجو من يرجو لنفسه النجاة ، وكان من حكمة الله تعالى أن حقق الجزاء بالأمم السابقة في الدنيا ، ولم يمهلهم للآخرة ، فقوم نوح كذبوا فكانت عاقبتهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (١) .

وأما قوم هود فكذبوه فأهلكناهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وأما قوم صالح فقد هلكوا بتكذيبهم ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ (٣) .

وقوم لوط فقد حل بهم ما يستحقون ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٤) .

وأما فرعون وجنوده فإنهم لما طغوا ﴿ فَغَشَّيْهِمْ مِّنَ أَلْيَمٍ مَّا غَشَّيْهِمْ ﴾ (٥) .

وهكذا أهلك الله الأمم الفاسدة في الدنيا ، وأراهم جزاء ضلالهم ، وذكر

(١) سورة الأعراف الآية ٦٤

(٢) سورة الشعراء الآية ١٢١

(٣) سورة الحاقة الآية ٥

(٤) سورة العنكبوت الآية ٣٤

(٥) سورة طه الآية ٧٨

مصيرهم هذا. فى القرآن الكريم ليستفيد به من نزل القرآن لهم . ولكى تكمل الفائدة أمهل الله الأمة الخاتمة ، وأرجأ عقوبتها الكلية إلى الآخرة .

هذا وإن وقعت بعض العقوبة فى الدنيا على أفراد من الأمة الخاتمة ، فهى عقوبة فردية فقط ، وفى الآخرة توفى كل نفس ما عملت وترى ما قدمت يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) وسوف يعلم الجميع أن ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٣) .

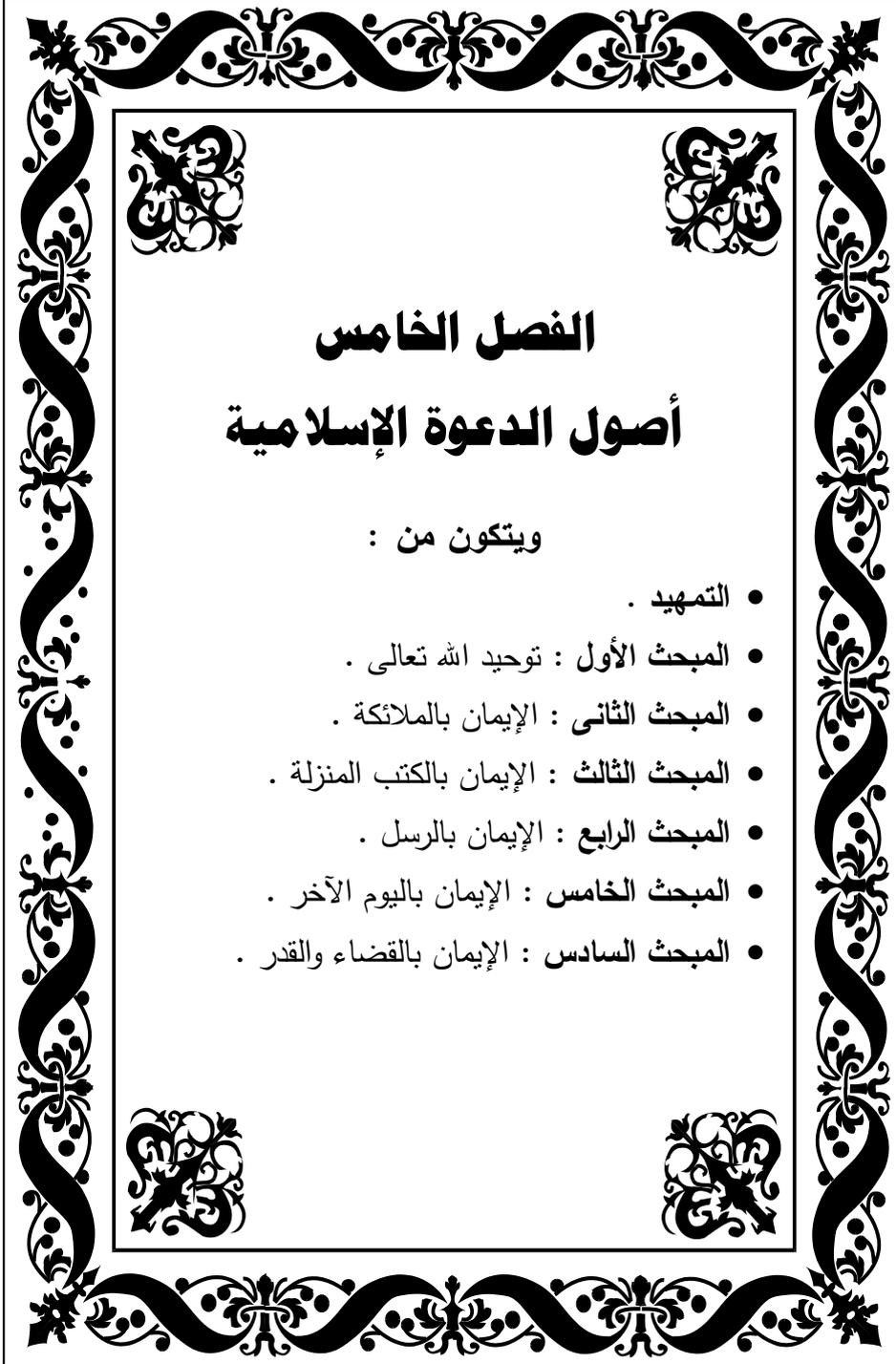
وهكذا يودى بيان عاقبة الأخلاق إلى العظة والإزدجار ، وقد كان كل نبى يذكر لقومه العواقب التى نزلت بالأمم التى سبقت عليه ليزدجروا ، ويعتبروا . وهكذا دعا المرسل إلى الأخلاق بالقول وللعمل ، ومحاربة الرذائل وبالتذكير بالسابقين وهى نفسها أمور عاشها المسلمون ورأوها من الرسول ﷺ .

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨

(٢) سورة الطور الآية ٢١

(٣) سورة المدثر الآية ٣٨

(۱۸۸)



الفصل الخامس أصول الدعوة الإسلامية

ويتكون من :

- التمهيد .
- المبحث الأول : توحيد الله تعالى .
- المبحث الثاني : الإيمان بالملائكة .
- المبحث الثالث : الإيمان بالكتب المنزلة .
- المبحث الرابع : الإيمان بالرسول .
- المبحث الخامس : الإيمان باليوم الآخر .
- المبحث السادس : الإيمان بالقضاء والقدر .

(190)

تمهيد :

فى الفصل السابق كان الحديث عن أصول الدعوات الإلهية ، وقد وضعته قبل هذا الفصل الذى جعلته للدراسة التفصيلية فى أصول الدعوة الإسلامية ، لما بينهما من صلة ، أرى ضرورة إبرازها ، وبيان ما فى الربط بينهما من فائدة ، إن أصول المدين لسائر دعوات الله بما فيها الدعوة الإسلامية ولحدة ، والإيمان بذلك يؤدى بالضرورة إلى عدة نتائج مهمة .

أولاً : الإيمان بأحد دعوات الله تعالى يؤدى بالضرورة إلى الإيمان بسائر الدعوات السابقة ، واللاحقة للدعوة التى آمن بها صاحبها ذلك أن الإيمان بفكرة نظرية ، وتصديق ما جاء فيها ، يتحول إلى إيمان مجرد بالفكرة ، بلا ارتباط بمن ظهرت على يديه ، كالمسألة الرياضية فإنها تتحول إلى نظرية مسلمة ، وإن لم يعرف واضعها ... فالمؤمن بوحداية الله مؤمن بالله تعالى ، وبذلك فهو مصدق بسائر دعاة التوحيد ولا يصح منه ولا يجوز أن يؤمن برسول ، ويكفر بغيره .

ثانياً : يصير الإيمان بالدعوة الإسلامية أمراً ملزماً لسائر المؤمنين السابقين ، لو كانوا صادقين ... و لاحجة لهم أن يكفروا بدعوة توحيدية ... وهم يدعون التوحيد ، لأن هذا تناقض فى الفكرة الواحدة أما إذا كان تصورهم للتوحيد باطلاً ، فإن هذا يؤدى بهم إلى الكفر بالتوحيد الصحيح ، لأنهم فى الحقيقة لا يعرفونه وبالتالي فهم يعارضونه .

ثالثاً : تؤكد الدعوات الإلهية كما صورها القرآن الكريم أنها تمهيد لدعوة الإسلام وهذا يساعد الناس على الإيمان بالدعوة الإسلامية ، وبالتالي يساعد الناس على الإيمان بالله تعالى .

رابعاً : يجلى هذا الواقع الحقيقة أمام الداعية المسلم ، لأن رسل الله ،

وهم رواد الدعاة ، وقادتهم جوبهوا. بمعارضات. ساقطة ، لكنها عنيفة طاغية ، بسبب تسلط الطغاة على الناس . ، وصدهم عن سبيل الله تعالى وعلى نمطهم يجب أن يتحمل الدعاة ، ويصبروا ، ويعملوا .

خامساً : تقدم الدعوات السابقة رصيذاً. هائلاً للدعوة الإسلامية فلقد كشفت عادات المعارضين ، ونفسياتهم ، وطبائعهم ، وعرفت بأساليب ، وطرق دعوتهم ، ورسمت صورة الداعية فى أسمى ، أوضاعها ، وأبهى حللها ... وذلك شأن يفيد الإسلام ، والدعاة .

إن الدعوات الإلهية ، واحدة فى أصولها ، وموضوع هذا الفصل هو أصول الدعوة الإسلامية ... وسأورده بإذن الله تعالى بشكل مفصل ، مصاحب للدليل ، والبرهان ، لأنه محل الإيمان . وأصل الدين وليبق ولضحا أمام الدعاة ، تيسيراً لعملهم ، وإنجاحاً لمقاصدهم .

وسأجعل لكل ركن من أركان- العقيدة المستة مبحثاً . ولذلك سيأتى هذا الفصل مكوناً من ستة مباحث هى :

- **المبحث الأول :** فى الإيمان بالله تعالى .
- **المبحث الثانى :** فى الإيمان بالملائكة .
- **المبحث الثالث :** فى الإيمان بالكتب المنزلة .
- **المبحث الرابع :** فى الإيمان بالرسل .
- **المبحث الخامس :** فى الإيمان باليوم الآخر .
- **المبحث السادس :** فى الإيمان بالقضاء والقدر .

وذلك فيما يلى

المبحث الأول

الإيمان بالله تعالى

الإيمان بالله تعالى هو أصل الأصول ، وأساس الدعوة الإسلامية ... وهو متعدد الجوانب ، لأنه يقوم على توحيد الله تعالى فى ألوهيته ، وربوبية وأسمائه ، وصفاته . وما يستتبع ذلك التوحيد من يقين قلبى . وشهادة قولية . وعمل بالجوارح ، والتزام أخلاقى فى السلوك ، والتفكير . والإيمان بالله تعالى كما يقوم على التصديق بكل كمال يليق بالله تعالى ، يقوم كذلك على نفى أى نقص لا يليق بذات الله تعالى . ولذلك كان تركيز الدراسة فى هذا المبحث على توحيد الله سبحانه وتعالى .

توحيد الله تعالى

التوحيد ضد التعدد ، وهو فى الإصطلاح . الإيمان اليقيني بوحداية الله فى ذاته وصفاته ، وأسمائه ، وصفاته ، مع إثبات كل كمال يليق بذات الله تعالى ، ونفى أى نقص منه . والإيمان بالله تعالى يقوم على جانبين متلازمين ، يحتاج كل منهما إلى الثانى ولا يتم أحدهما إلا إذا وقع مصاحباً للآخر . والجانب الأول : معرفى محض أساسه المتصور . ولوازمه التصديق ، واليقين .

والجانب الثانى : عملى تطبيقى ، يشهد للمعرفة . ويؤكد ثباتها فى العقل والضمير ، يقول ابن القيم : التوحيد إما أن يكون بالمعرفة ، والتثبت ، واليقين وإما أن يكون بالقصد ، والطلب ، والعمل .

فتوحيد المعرفة يكون بمعرفة ذات الرب سبحانه وتعالى ، وإثبات وحدانيته

وجوده ، وللتصديق بصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتيقن تكلمه بكتبه ،
وتكليمه لمن شاء من عباده ، والإيمان بعموم قضائه وقدره ، والتيقن من حكمته
على أفعاله سبحانه وتعالى جميعاً .

وهذا التوحيد فى جملة قائم على التصديق ، ولليقين ، وما يلزمه من
عمل اللسان ، والجوارح .

وتوحيد الطلب يراد به إخلاص العبادة لله ، وقصر التوجه إليه ، فى تعظيم
، وخضوع ، وإجلال ، والانقياد لكل ما أمر به ، والطاعة المطلقة لسائر أوامره ،
ونواهيه .

وتوحيد المعرفة يؤدى إلى التصديق ، والاعتقاد ، والإقرار ، والعمل .
وتوحيد القصد يعتمد على العمل بالجوارح ، شهادة ، وتطبيقاً ، ودليلاً
على صدق المعرفة بالله ، واستقرارها فى القلب .

وتحقق توحيد الله بكماله عند المؤمن يقوم على سبعة شروط هى :

الأول : العلم بشهادة التوحيد نفيًا ، وإثباتًا قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَأَعْلَمَ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(١) ، وقال سبحانه وتعالى ﴿ إِلَّا مَنْ شَرَدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

وقال ﷺ : " من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة " ^(٣) .

الثانى :- الميقين ، أى استيقان القلب بها ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

(١) سورة محمد الآية ١٩

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات على التوحيد ج١ ص٢١٨

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾ .

وقال ﷺ : " إشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة " (٢) وقال ﷺ لأبى هريرة ؓ : " من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة " (٣) .
الثالث : الإخلاص قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٥) .

وعن أبى هريرة ؓ قال : قلت يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟

فقال رسول الله ﷺ : " لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه " (٦) .
وعن أبى هريرة ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه " (٧) .

الرابع : الصدق قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ

(١) سورة الحجرات الآية ١٥

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالشهادتين ج١ ص٢٢٤

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب من شهد شهادة التوحيد ج١ ص٢٣٩

(٤) سورة البينة الآية ٥

(٥) سورة الزمر الآية ٣

(٦) صحيح البخارى كتاب الإيمان باب الحرص على الحديث ج١ ص٨٨ ط الأوقاف

(٧) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزهد ، باب تحريم الرياء ج١٨ ص١١٥

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»^(١) وعن ابن عباس قال : هم من جاء بلا إله إلا الله
وقال : ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢) .

وقال ﷺ : " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار " ^(٣) ، وتقدم قوله ﷺ " يشهد أن لا إله
إلا الله مستيقناً بها من قلبه " .

الخامس :. المحبة قال الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُمْ ﴾^(٤) .

وقال ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن
يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار " ^(٥) .

وقال ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده ، وولده
، والناس أجمعين " ^(٦) .

السادس : الانقياد لها ظاهراً ، وباطناً قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ

إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾^(٧) .

وقال تعالى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ

(١) سورة الزمر الآية ٣٣

(٢) سورة العنكبوت الآية ٣

(٣) صحيح البخارى ، كتاب العلم .

(٤) سورة المائدة الآية ٥٤

(٥) صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ج ١ ص ٢٢ .

(٦) صحيح البخارى كتاب الإيمان ، باب حب الرسول من الإيمان ج ١ ص ٢٢ .

(٧) سورة لقمان الآية ٢٢

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١﴾ .

السابع : القبول لها فلا يرد شيئاً من لوازمها ، ومقتضاياتها .
 ووصل اهتمام الإسلام بتربية الناس على اليقين بالتوحيد أن رسول الله ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة ، يدعو الناس ، ويعرفهم بتوحيد الله تعالى ، حتى تركوا نفوسهم ، وصفت عقيدتهم .
 ولم تقتصر الدعوة في الفترة المكية على التلقين ، وحفظ النصوص ، وإنما نزل الوحي بها خطاباً للعقل ، وإيقاظاً للوجدان ، وإبرازاً لكافة الأدلة في المكون والحياة . المثبتة للحقيقة المخالفة . التي تؤكد دائماً أنه لا إله إلا الله . وأنه سبحانه هو ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ .

وأدلة إقناع العقل لا تعتمد على مجرد النصوص . وإنما تقوم أساساً على المقدمات العقلية المجردة . لتنتج النتائج النظرية المسلمة . في هذا الأصل الرئيسي الذي هو أساس لما عداه من أصول الدين .
 وقد أشار العلماء إلى الأدلة العديدة المثبتة لهذا الأصل . ويمكن حصرها في طريقتين رئيسيتين :

(١) سورة الزمر الآية ٥٤

(٢) سورة الحشر الآية ٢٤

الطريقة الأولى الأدلة العقلية

الأدلة العقلية تؤدي إلى افتتاع العقل ، ورضى الفطرة ، وهذه الأدلة توصل إلى إيمان يقينى واضح ، لأن الحكم العقلى الصحيح حكم ثابت لا ينفك أبداً ، بخلاف حكم الحواس ، وحكم العادة ، فإن حكمهما يبتعد عن الصواب أحياناً ، كظن السراب ماء ، وكالرضا ببدعة متكررة جاءت العادة بها . وقد أرشد الإسلام العقل إلى هذا السبيل ، وفتح أمامه جهات عديدة ليجول فيها ، وجعل الكون صفحة مكشوفة ، ناطقة بوجود الله تعالى ، ودالة على استحقاقه أن يعبد وحده .

ومن دلائل العقل ما يلى :

١. دليل السببية :

وهو قائم على النظر فى عجائب المخلوقات ودلالاتها على وجود مسبب لها قادر على ذلك وهو الله تعالى .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه . رحمة الله . الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان فى غاية الحسن ، والاستقامة ، وهى طريقة عقلية صحيحة ، وهى شرعية دل القرآن عليها ، وهدى الناس إليها ، وبينها ، وأرشد إليها وهى عقلية : لأن كون الإنسان مخلوقاً بعد أن لم يكن ، ومولوداً من نطفة ، ثم من علقة ، لم يعلم بمجرد خبر الرسول ﷺ بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم ، سواء أخبر به الرسول أم لم يخبر ، لكن الرسول أمر أن يستدل به ، ودلل به ، وبينه ، واحتج به ، فهو دليل شرعى ، لأن الشارع استدل به ، وأمر أن يستدل به ، وهو عقلى ، لأنه بالعقل تعلم صحته^(١) .

ولعل أكثر ما يلفت المنظر في ذكر دلالة خلق الإنسان- في القرآن. كثرة الاستدلال بأطوار خلقه ، مجملاً في عدة آيات ، مفصلاً في أكثر منها .
 فمن مواضع إجمالها قوله تعالى ﴿ سَخَّطُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِي فِي ظُلْمَةٍ ثُلُثٌ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّونَ ﴾^(١) فتأمل كيف جعل التخليق في بطون الأمهات ، وما سبقه من الدلائل في الآية دليلاً على ربوبية الله تعالى ، ولنفراده بالملك ، ولستحقاق الإلهية ، وكيف جاء التعجب من الإنصراف. عن مقتضى هذا. المبرهان. المقاطع وما ذلك إلا لشدة وضوحه وجلائه .

أما تفصيل ذلك ، فقد جاء في عدة سور- من القرآن- الكريم مقتضباً ، ومبسوطاً فقال تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ^ط وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ ﴾^(٢) .

ومع أن هذه الآية مسوقة أصلاً لإثبات. البعث ، فإنها لم تخل من إشارة إلى دلالة المخلوق على الله جلا وعلا ، ولين. كان- المراد. الدلالة على تفرده باستحقاق الإلهية ، كما هو شائع في القرآن الكريم ، وكما يدل على ذلك قوله

(١) سورة الزمر الآية ٦

(٢) سورة الحج الآيتان ٥ ، ٦

تعالى فى آخر سورة الحج ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾^(١) إلا أن الدلالة على وجود الله تعالى وربوبيته فى الآية هى من باب دلالة المسبب على السبب ، والمخلوق على الخالق .

وقد قال البيضاوى : " ذلك " إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان " بأن الله هو الحق " أى بسبب أنه الثابت فى نفسه ، الذى به تتحقق الأشياء^(٢) وقال ابن عاشور : ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة فى هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان ، وأحوال إحياء الأرض . : أن تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة : إما بدلالة المسبب على السبب ، بالنسبة إلى وجود الله ، وإلى ثبوت قدرته على كل شئ ... إلخ^(٣) .

ولقد ذكر الله تعالى تفصيل هذا الدليل فى مواضع آخر ، فى غير سياق إثبات البعث فقال تعالى فى سورة المؤمنون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٩٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٩٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٩٨﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ .

لقد ثبت فى العقل أن أى تغير يلحق بجسم ، أو بحال ، أو بصفة لا بد له من سبب يؤثر فيه ويغيره ، وهذا ما يعرف بـ " قانون السببية " والإنسان بعقله يسلم بذلك القانون تلقائياً ، ويرفض ما عداه ، إذ لو قيل للإنسان إن مصنعا لا

(١) سورة الحج الآية ٦٢

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج٦ ص٢٨٤

(٣) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٠٤ ، ٢٠٥

(٤) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ إلى ١٤

(٢٠١)

صاحب له ، ولا مهندس فيه ، ولا عامل يديره يعمل بنفسه ، ويتحرك بذاته ، وينتج عجائب الصناعة ، إن قال ذلك قائل لا يصدقه أحد ، ولا يقابل إلا بالهزء ، والسخرية .

إن المصباح لا ينير إلا بسبب الكهرباء بعد إدارة الأديلة . الموصلة ، والمدن لا تنسق إلا بمعرفة المهندسين المهرة ، والعمال المجيدين . وهذا وغيره أدلة ناطقة على قانون السببية .

وتبعاً لهذا القانون يؤمن العقل بتوحيد الله تعالى ، لأن النظر في الكون يؤكد العلم ، والإرادة ، والخلق ، وذلك لا يكون إلا من ذات قادرة ، مريدة ، عليمة حكيمة ، هي السبب في وجود هذا الكون المبدع الدقيق . وعلى الإنسان أن يسأل نفسه ، كيف تكون في رحم أمه ؟

لا ضلع في هذا لخبرة الأب ، ولا لحكمة الأم ، كيس صغير تلتقى فيه دودتان دقيقتان ، يتغذيان من دم الأم ، ويتحولان إلى مضغة ، ثم تتكون من هذه المضغة العينان ، والأذنان ، والمخ ، والقلب ، والعظام ، واللحم ، كل في موضعه المختار له .

وحين تكتمل بنية الإنسان يدفع إلى خارج الرحم ، في وقت لا يعلمه إلا الخالق لكل شئ ، وهو السبب في خلق الإنسان على هذه الوتيرة .

وقد جاء التنبيه على دلالة الخلق على الخالق سبحانه وتعالى ، في القرآن الكريم في عدة مواضع ، كقوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) أم خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (١) .

وقوله تعالى ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

(١) سورة الطور الآيتان ٣٥ إلى ٣٦ .

شَيْئًا ﴿١﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُنَّكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٢) .

فدلت هذه الآيات على حاجة المخلوق الضرورية إلى خالق يوجده .
وكذلك سائر الآيات التي تذكر الخلق فكلها تشير إلى هذه الدلالة ، مثل
قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْزِقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى
الْوَدْقَ سَخِرَاجٍ مِنْ خَلَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٢﴾
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ
وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ تَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ .

٢. دليل النظام والدقة :

المتأمل في الكون ، وسائر المخلوقات. فيه يرى بوضوح ما فيه من نظام
دقيق وتناسق تام ، وجمال عجيب ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى الإيمان. بخالق
هذا الكون ، المدير له ، المحيط بنظمه ، وهو الله تعالى .

يقول الله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا
لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١٤﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

(١) سورة مريم الآية ٦٧

(٢) سورة مريم الآية ٩

(٣) سورة النور الآيات من ٤٣ إلى ٤٥

(٢٠٣)

زَوْجٍ بَهِيحٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١﴾ .

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري : إن نظرة عابرة فقط إلى النور والحلك وهذا الهواء المشترك ، إلى ائتلاف الهواء من عناصر الماء ، إلى النوعية وللزوجية في كل شئ تكفى في إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة .، وحكمة وتدبير ، وقدرة لا يحيط بها أحد .، وهو العزيز الحكيم .، الذى أوجبت العقول السليمة وجوده .، ودلت كل ذرة فى الكون على علمه .، وقدرته .، وتدبيره ، وحكمته (٢) .

ويعرف هذا الدليل بالنظام ، والدقة ، وقد أشار القرآن العزيز إلى هذا الدليل فى مواضع كثيرة .، كقوله تعالى : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ (٥) .

وقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ (١) وغير ذلك من الآيات المنبهة إلى ما وجد عليه العالم من نظام دقيق ، وإحكام مقصود .، لا يمكن بحال أن يكون من غير مكنون ، ولا أن يستمر ، ويدوم دون خلل من غير مدبر مقدر .

(١) سورة ق الآيات من ٦ إلى ٨

(٢) عقيدة المؤمن ص ٥٣ "أبو بكر الجزائري "

(٣) سورة الملك الآية ٣

(٤) سورة النمل الآية ٨٨

(٥) سورة السجدة الآية ٧

وقد تأتى الإشارة القرآنية إلى وجود ذلك فى جملة المخلوقات ، كقوله تعالى :
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ
تَقْدِيرًا ﴾^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى ﴿ الَّذِي
خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾^(٥) ، وقوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا ﴾^(٦) .

كما قد يأتى التنبيه على ذلك أحياناً فى بعض المخلوقات ، كقوله تعالى :
﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾^(٧)
وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَا يَشَاءُ ۗ ﴾^(٨) ، وقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي
الْأَرْضِ ۗ ﴾^(٩) .

فهذه الآيات. ، وأمثالها تلفت نظر المستدل إلى دلالة المخلوقات على
باريها من خلال ما يشاهد فيها من الانضباط ، ولاللتزام المتام بنظام فى غاية
الدقة ، ما كان له أن يوجد على هذه الحال دون قيم قادر ، ومدبر حكيم .

-
- (١) سورة الذاريات الآية ٧
(٢) سورة القمر الآية ٤٩٣
(٣) سورة الفرقان الآية ٢
(٤) سورة الرعد الآية ٨
(٥) سورة الأعلى الأيتان ٢ ، ٣
(٦) سورة الطلاق الآية ٣
(٧) سورة الحجر الآية ١٩
(٨) سورة الشورى الآية ٢٧
(٩) سورة المؤمنون الآية ١٨

ولا تزال الآيات القرآنية تنبه إلى هذه الدلالة ، وتشير إليها ، كما فى قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

والآيات المنبهاة إلى هذه الدلالة كثيرة جداً .

٣. دليل العناية :

يعتمد هذا الدليل على حقيقتين :

أولاهما : أن كل ما فى الكون وجد لدور يؤديه ، ولا مدخل فيه للعبث أو الصدفة .

وثانيهما : إن الكون كله ، وبجميع أجزائه خلق لخدمة نوع واحد من سائر أنواعه ، وهذه حقيقة مدهشة أن يكون هذا الكون الكبير لخدمة نوع واحد فيه ، وهو الإنسان ، فإذا ما كان الله هو الخالق ، وهو الذى قضى بهذا. لزم للإنسان أن يؤمن بربه الذى اعتنى به هذه العناية كلها .

يضرب الشيخ أبو بكر الجزائرى مثلاً يوضح هذه العناية فيقول : " يأمر

(١) سورة يس الآيات ٣٧ إلى ٤٠

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٦

(٣) سورة المرسلات الآيات من ٢٠ إلى ٢٣

(٢٠٦)

أحد الملوك ببناء قصر فخم كبير ، فيبنى على أحسن طراز ، ويجعل على أجمل صورة ، ويزود بأسباب الراحة والارتفاق ، بحيث يصبح آية فى باب القصور متعة ، وجمالاً ثم ينزل به ضيف كريم عليه ، ويقول له : لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش فيه طوال حياتك متمتعاً بكل ما فيه من خيرات ، ونعيم ، فالملك هو الله ، والقصر هو الكون والضيف هو الإنسان^(١) .

ألا يلزم هذا الكرم الإلهى الإنسان بالاستقامة !!؟

يقول الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾^(٢) .

ويقول تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

فُرُوجٍ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٢﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾^(٣) .

٤. دليل التسخير :

الناظر فى الكون يجده مذلاً ، خاضعاً لسلطة قاهرة ، هى قدرة الله تعالى التى جعلت الكون كله يسير وفق ناموس واحد ، يكمل بعضه بعضاً ، ويدل كل جزء فيه إلى آثار- المقهر ، وللاستعلاء لمسيرم ، وتتجلى فيه شواهد المقدره لمخضعه ومذللها بما لا يدع مجالاً للشك فى وجود مدبر قدير يمسك بمقاليدهم ، كما قال تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٤) .

وقد جاء ضمن الأسئلة التقريرية التى أمر الله نبيه ﷺ أن يحتج بها على

(١) عقيدة المؤمن ص ٥٥

(٢) سورة ص الآية ٢٧

(٣) سورة ق الآيات من ٦ إلى ٨

(٤) سورة الشورى الآية ١٢

الكفار ﴿ وَمَنْ يُدْبِرِ الْأَمْرَ ﴾^(١) حيث إن الحس ، والفطرة يشهدان بضرورة مدبر لهذا العالم ، فكان إقرار الكفار بذلك .

وإذا تأملنا الآيات القرآنية المنبهاة إلى هذه الدلالة وجدنا بعضها يشير إلى التسخير المطلق للكائنات كما فى قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٥) .

وبعضها الآخر ينبه إلى تسخير المخلوقات للإنسان. كما فى قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿١٦٤﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾^(٦) وقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ

(١) سورة يونس الآية ٣١

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤

(٣) سورة فاطر الآية ١٣

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٤

(٥) سورة النحل الآية ٧٩

(٦) سورة إبراهيم الآيتان ٣٢ ، ٣٣

بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٤) ، وقال في تسخير الأنعام ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّفِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦) وقال في الأرض ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٧) ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ (٨) .
وقال: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ ﴾ (٩) .

(١) سورة النحل الآية ١٢

(٢) سورة النحل الآية ١٤

(٣) سورة الحج الآية ٦٥

(٤) سورة لقمان الآية ٢٠

(٥) سورة الحج الآية ٣٦

(٦) سورة يس الآية ٧٢ ، ٧٣

(٧) سورة الملك الآية ١٥

(٨) سورة النبأ الآية ٦

(٩) سورة الذاريات الآية ٤٨

ومن الإشارات اللطيفة إلى دلالة التدبير في المخلوقات. على الخالق جل وعلا قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

فإن هذا استدلال. بما هو مشاهد محسوس. من اختلاف الناس. في سعة الرزق وضيقه ، ولابد لذلك من سبب ، ولا يمكن أن يكون ذلك راجعاً لمحض عقل المرء وجهله ، ولإلا لما رأينا المعامل القادر. في أشد الضيق ، وللجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة ، كما لا يمكن أن يكون لأجل المطبائع والأنجم ، والأفلاك لأننا نرى الساعة الواحدة يولد فيها الملك الكبير القاهر ، وغيره من ضعفه الناس ، والحيوانات ، بل والنبات ، فلا يمكن بحال أن يكون الطالع هو المؤثر في ذلك ، وإلذا بطلت هذه الأقسام ، فلا بد لذلك من مؤثر قادر عالم حكيم وهو الله تبارك وتعالى .

وبهذه الآيات تأكدت الحقيقتان المذكورتان ، وثبتت عناية الله بالإنسان وواجب على الإنسان أن يؤمن بربه الذي اعتنى به على هذه الصورة الحسنة . والأدلة النقلية المذكورة تعد أدلة عقلية وجه الشارع إليها ، وهي تثبت وجود الله وتوحيده بالضرورة ، لأن فرض تعدد الآلهة يوجد الفساد في الكون. ويجعله يعيش مخلخلاً مضطرباً وما دام ذلك لم يحدث. فإن الله وحده لا شريك له هو الموجود بحق وله الأمر كله .

والأدلة المذكورة هي أدلة القرآن الكريم التي ساقها لإقناع العقل ، ولإرضاء الفطرة ، وإشباع الوجدان .
وهي أدلة تتميز بقوة العاطفة ، وشدة الجذب ، وحلاوة التعبير ولذلك كان أثرها في الفطرة العاملة المستقيمة .

وحين ننظر في أدلة الفلاسفة ، والمتكلمين نرى الفرق في روحانية الدليل ، وإثارة الوجدان ، ومخاطبة كافة العناصر الإنسانية ، فتبارك الله رب العالمين .
والمتكلمون يركزون على دليلى الحدوث والوجوب وهما :

١. دليل الحدوث :

وهذا الدليل قائم على أن حدوث. العالم طريق لإثبات. وجود. الله لأن الكون كله حادث بشهادة العقل ، وبشهادة العلم ، لأن كل ما له نهاية له بداية وما قبل تغييراً كان حادثاً ، كما أثبتت الكشوف العلمية حدوث. طبقات. الأرض ومختلف ظواهر الكون وإن عادت في حدوثها إلى زمن بعيد .
والعقل يحيل أن يوجد الحادث نفسه ، لأنه سيكون فاعلاً ومنفعلاً في وقت واحد ، وهذا. لا. يجوز. مطلقاً ، ومن هنا احتاج الحادث. في إيجاده إلى قديم واجب الوجود وهو الله يقول سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(١) .

٢. دليل الوجوب :

الموجودات جميعاً إما أن يكون وجودها واجباً ، أو جائزاً ، أو مستحيلاً^(٢) ولا يخلو أمر واحد من الموجودات عن حال من هذه الأحوال الثلاثة .

(١) سورة الحديد الآية ٣

(٢) الواجب والممكن ، والمستحيل أمور بديهية التصور لأن كل إنسان عاقل يدرك بالبدهة أن الإنسان يجب كونه حيواناً ناطقاً ، ويمتنع كونه حجراً ، ويمكن أن يكون نجاراً .

ويعرف الواجب أنه ما يمتنع عدمه ، والمستحيل بأنه ما يجب عدمه ، والممكن بأنه ما لا يمتنع وجوده ، ولا عدمه ، ومن خواص الواجب أن ذاته تقتضى الوجود بنفسها ، وتستغنى عن غيرها ، وأن الذات هي عين الواجب ، والممكن ليس كالواجب في خواصه ، والمستحيل لا خواص له لأنه عدم محض .

وسائر الكائنات مخلوقة ، معلولة ، حادثة ، ولذلك فهي ممكنة ، لا توجد بذاتها ، وتحتاج لغيرها ، كما أن الواجب ليس هو الممكن .
ومن هنا كان ضرورياً أن يحتاج هذا الكون الفسيح إلى واجب يوجده ويرجع إمكان وجوده ، وهذا الواجب في وجوده هو الله سبحانه وتعالى .
يقول شيخ الإسلام بن تيمية : كل واحد من دليلي الحدوث . . . ولالإمكان يعتمد على حاجة الحادث ، والممكن إلى الصانع سبحانه وتعالى وهما متلازمان في هذا الافتقار بالضرورة ... وكون الممكن ، والمحدث مفتقراً ، بدهية ظاهرة ، لأن- المفقر لازم- لكافة المخلوقات . . . فكل ما سوى الله فقير إليه دائماً ، لا يستغنى عنه طرفه عين ، وهذا من معاني اسم الصمد ، فالصمد : الذى يحتاج إليه كل شئ ، وهو مستغن عن كل شئ .
وكما أن غنى الرب ثبت لنفسه لا لعة جعلته غنياً ، فكذلك فقر المخلوقات ، وحاجتها إليه ثبت لذواتها ، لا لعة جعلتها مفتقرة إليه^(١) .

الطريقة الثانية

الأدلة الدينية

المعرفة العقلية تعتمد على العقل فى التحليل ، وللتصور . . . ولاستنتاج ، سواء حركها الحس ، أو التدبير ، أو وجه الوحي إليها على نحو ما سبق ذكره ، بينما المعرفة الدينية تعتمد على الأدلة التى نزل الوحي بها ، خطاباً للبشر على مختلف مستوياتهم ومداركهم ، ولئن كانت المعرفة العقلية أساساً فى الإيمان ، وأصلاً من أصول الدعوة لا يكون إسلام المرء إلا بها ، فإن المعرفة الدينية لها أهميتها لسببين :

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٤٦

السبب الأول :

العقل لا يصل دائماً إلى الصواب. بذاته بسبب خضوعه لمؤثرات. المادة والشهوة والأناية البشرية ولأنه محدد في تصوراتته وتأملاته بالزمان. والمكان. ، والإلف ، والعادة ، وذلك باد من اختلاف البشر في اتجاهاتهم العقلية . لدرجة أنهم قالوا : توجد فلسفات في العالم بعدد الفلاسفة ، حيث يتجه كل عقل اتجاهًا مغايرًا. لغيره .. وتلك حقيقة لا. يجادل. فيها ولحد من الناس. لدرجة أن. من قال بالعقل في إدراك الحسن والعقل ، وضح ضرورة التوجيه الشرعي ابتداءً .، وبعده يأتي الدور العقلي .

السبب الثاني :

لا. يعرف. الله. إلا. نفسه حقيقة .، ولا. يصل المخلوق. في معرفة الله إلى المستوى الذي عرف الله به نفسه .
إن هذه الأسباب المؤدية إلى أهمية المعرفة الدينية هي نفسها الفرق. بين كنهيهما .

فالمعرفة العقلية بشرية ، محددة ، لها مداها .. وإطارها الضيق .
والمعرفة الدينية ربانية ، مقدسة ، ثابتة ، دقيقة ، صادقة .
إن المعرفة الدينية لا تعرف حدود الزمان .، أو. المكان .، أو. الجنس .، أو العادة ولذلك فهي تتوجه إلى الناس ، كل الناس بالخطاب ، والبرهان .
ومن رحمة الله بالإنسان أنه أنزل الوحي ملائماً للإنسان المخلوق ، بصورة تناسب فهمه ، وطاقته ، ومداه في التصور .

ومن سعة قدرة الله تعالى أن أودع في النصوص التي أوحى بها ألوانا من الخطاب. وصوراً. من الموضوعات. ،. تناسب كافة أجناس. الناس. .، ولألوانهم ومستوياتهم ، ضمنها في نفس الوقت أدلة العقل ، وبراهين الوجدان. .، ولشباع العواطف .

والمعرفة الدينية تستقل في البرهنة على السمعيات ، والحديث عن الماضي ، والإنباء بالمستقبل ، وتذكر بالمعجزات . ، ولذلك كانت شاملة . ، ولتسع مداها .
في تكريم الإنسان .

ولكن كيف تدلل المعرفة الدينية على توحيد الله تعالى ؟

تدلل على ذلك بعدة طرق :

أولاً : بالخطاب المتضمن للتوحيد ، يتجه به الوحي للعامة ، والخاصة من الناس .

يقول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

فقد عرفت الآيات المخاطبين بالله ربا ، وخالقاً ، ورازقاً ، ومعيناً ، وصانعاً بيده قوام الحياة كلها ، كما اشتملت الآيات على أدلة النظام ، والعناية والحدوث والوجود ، وهكذا ، ودعت الناس إلى عبادة الله وحده حيث لا يستحقها إلا هو .
ومن خطاب الخاصة جاء قوله تعالى لموسى ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْجَعْ نَعْلَيْكَ ۗ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٧﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٩﴾ .

(١) سورة البقرة الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٢) سورة طه الآيات من ١٢ إلى ١٥

ومنها قول الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ (١).

ومن خطاب الله نداؤه المؤمنين ، وأمره إياهم بالعبادة ، وللتقوى كما أمر به سائر الناس ، يقول الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾﴾ (٢).

وهكذا- يخاطب الله سبحانه وتعالى سائر الناس- ، يخاطب المرسل ، ويخاطب المؤمنين ، ويخاطب العامة من أجل توجيههم إلى الحق ، وتعليمهم الحلال والحرام ، بلا أدنى تفرقة ، وهذا أمر يعرف الناس بدورهم ، بعد خلقهم فى هذه الدنيا ، كما هو موجود فى الخطاب نفسه .

وأيضاً فإن خطاب الله متجه إلى العقل ، شامل للبرهنة والدليل على ما ينادى به سبحانه وتعالى ، وبذلك اشتملت الأدلة الدينية على الأدلة العقلية .

ثانياً : تدلل المعرفة الدينية على التوحيد بإرسال الرسل للناس لتبليغ الدعوة الإلهية إليهم ، إذ العقل وحدة غير كاف فى المعرفة ولا بد من الرسول للتبليغ ، والإرشاد .

(١) سورة الأحزاب الآيات من ١ إلى ٣

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

والله يختار رسله وفق ما يصلح الناس إذ يأتي الرسول من خير الناس خلقاً ، وعقلاً ، ودينياً ، ويعرف. بذلك بين معاصريه ، وأقرانه ، ليكون حديثه عن الوحي مصدقاً مسلماً عندهم .

وحتى يقوم الرسول بوظيفته المكلف بها ، يؤيده الله بالمعجزات. التي هي أمور خارقة للعادة ، يظهرها الله على يد رسله تأكيداً على صدقهم ، وكأن الله تعالى يقول من خلال المعجزة صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

إن المعجزة تأتي من جنس ما تفوق فيه الناس ، ليكون اعترافهم بأنها ليست فى مقدور البشر ، تسليماً على أنها من الله تعالى ، وحينئذ يكون التسليم بكل ما جاء به الرسول ، والانقياد لما جاء الوحي به .

وأيضاً فإن نزول الوحي بالكتب المقدسة على المرسل يوضح مراد الله من الناس ، وأول مراده سبحانه أن يوحدوه ولا يشركوا معه سواه .

ثالثاً : تثبت المعرفة الدينية بإيجاب الدعوة إلى الإسلام وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١) ، وفى قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٢) والمسئولون عن القيام بهذا

الواجب هم الأمة التى آمنت بالإسلام ، وحملت أمانة الدعوة إليه .

تلك هى المعرفة الدينية وهى فى جملتها تدعو الناس إلى ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥

أنواع التوحيد

التوحيد ضد التعدد ، وهو فى عرف المشرع نفى المكفء ، وللمثل ، عن ذات الله تعالى ، وصفاته ، وأفعاله ، ونفى الشريك فى ربوبيته ، وعبادته عز وجل .

ومن هذا نلحظ أن التوحيد ثلاثة أنواع :

الأول : توحيد الذات والصفات :

ويقصد به الإيمان بأن الله واحد فى ذاته وصفاته فليس الله عدداً ، ولا مركباً ، وليس له شريك فى الفعل ، والصفة .
وهذا النوع من التوحيد هو ما سماه ابن القيم بتوحيد المعرفة والإثبات ، وقد تكلمت عنه آنفاً .

الثانى : توحيد الربوبية :

الرب هو السيد ، والمالك ، والمربى ، والمصلح وكل ذلك من صفات الله تعالى ولذلك كان إطلاق الرب اسماً لله تعالى إطلافاً حقيقياً .
ومن الرب اشتق اسم الربوبية ، وهو يعنى الخلق والرزق ، والملك والسيادة ، والتربية ، والإصلاح ، والتدبير وليكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين ، اختص بالربوبية دون سواء ، ووجب توحيده فيها ، وتنزيهه عن الشريك فى الربوبية إذ لا تصح ولا تصلح لغير الله تعالى .

ولا يتناقض مع توحيد الربوبية أن يقال : فلان رب الأسرة ، أو فلان سيد قومه أو فلان يملك كذا ، إذ كل هذه الاستعمالات مجازية : إذ الواقع المشاهد يؤكد دائماً أن الإنسان لا يملك أمر نفسه ، ولا يؤثر تأثيراً حقيقياً فى أى جانب ، إذ الأمور تجرى بالمقادير ، وصدق رسول الله ﷺ وهو يقول لابن عباس :
يا غلام إنى أعلمك كلمات ، إحفظ الله يحفظك ، إحفظ الله تجده تجاهك ، إذا

سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف (١) .

والإيمان بتوحيد الربوبية لا ينكره عاقل ، لأن من ينظر ويتدبر في خلق النفس والكائنات على اختلافها ، يعلم عجز الإنسان ، ويندفع إلى الإيمان. بأن الرب واحد وهو الله سبحانه وتعالى .

وحيثما يتحدث القرآن عن إيمان العرب قبل الإسلام بالله يؤكد إيمان الإنسان بتوحيد الربوبية .

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) .

ويقول تعالى ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) .

(١) سنن الترمذى باب وصية النبي ﷺ لابن عباس ج٤ ، ص٦٧٧ ، والحديث حسن صحيح .

(٢) سورة يونس الآية ٣١

(٣) سورة الزخرف الآية ٩

(٤) سورة المؤمنون الآية ٨٦ ، ٨٧

(٢١٨)

ويقول تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

فهذه آيات فى القرآن الكرىم توضح أن العرب كانوا يسلمون بتوحد الربوبية كضرورة من مسلمات العقل لا يمكنه أن يمارى فيها مطلقاً .

وكان المظنون أن يستمر العقل على احترام هذه الحقيقة لأن أمر الخلق والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، والتدبير ، وتسيير كافة الظواهر الكونية . وغير ذلك لا يدعيها إنسان لنفسه ، ولا يمكن أن تكون بنفسها . أو بالصدفة . ولا بد أن تكون من صنع الله تعالى .

كان المظنون ذلك لكن نفرأ من الناس غرتهم عقولهم ، وآمنوا بالمادة ، وبنوا عقيدتهم على أساسها ، وهذا أوصلهم إلى إنكار الربوبية ، وعدم الإيمان بأى شئ وراء الحس ، وهذا تضليل لا يقدر صاحبه على إثباته والتدليل عليه . ويجب على المؤمن بتوحد الربوبية أن يعرف أن كل فعل ، وكل أمر من الله تعالى ، ولا تأثير لغيره سبحانه وتعالى .

الثالث : توحد الألوهية :

يعتبر توحد الألوهية ثمرة تلقائية لتوحد الربوبية ، وتوحد الذات والصفات . إن توحد الذات ينفى المشريك فى الاسم ، وللصفة ، ويثبت الموحدانىة والتفرد فى هذا ، كما أن توحد الربوبية يدور على إثبات الفعل ، وللتأثير لله وحده ، وتوحد الألوهية يعنى إفراد الله بالعبادة بمختلف صورها كما يعنى تعلق القلب بالله خوفاً ورجاء ، ورغباً ورهبة . وهو فى حقيقته تسليم تام لله سبحانه وتعالى .

إن الرسل وهم يدعون إلى عبادة الله تعالى كانوا يركزون على هذا النوع من التوحد ، لأن الانحراف قد كثر فيه ، وكان الناس يعبدون أصناماً وأوثاناً ،

(٢١٩)

ويقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾^(١) والبشر دائماً يقصرون في توحيد الألوهية ، ويفرطون في حق الله سبحانه وتعالى .
والإيمان بتوحيد الألوهية يتجلى في التزام المعتقد بالعبادة سواء كانت من أعمال القلب أو من أعمال الجوارح ، أو من أعمال اللسان .
فأعمال القلب كالتصديق ، واليقين التام ، ومحبة الله تعالى ، والإخلاص له ، والإنابة إليه ، وللتعلق به في البأساء والضراء . ، وأعمال الجوارح تشمل على الدعاء والعبادات المفروضة وسائر أعمال الإنسان . ، وكل هذه الأعمال تحتاج إلى الصدق والإخلاص ، والتوجه بها إلى الله وحده .
وفي مجال التوحيد لا بد من الإقتناع المعقلي ، لأنه قضية تتبعها بقية أصول الدعوة ذلك لأن بقية الأصول ثبتت بالنص عليها في وحى الله تعالى لرسوله محمد ﷺ .

(١) سورة الزمر الآية ٣

المبحث الثانى

الإيمان بالملائكة

الأصل الثانى من أصول الدعوة الإسلامية الإيمان بالملائكة . وللملائكة عالم نورانى من عوالم الغيب التى لا يراها الناس ، وأصلها النور . ذلك أن الكون منه الشاهد المملوس بالحواس ، ومنه الغيب الذى لا يلمس بالحواس ، وإنما يدرك بالعقل ، وبالأثار .

والملائكة بالنسبة للإنسان غيب . يعرفون بالأخبار. القطعية الثابتة التى عرفت بهم ، وجعلت الإيمان بهم ، ركنا من أركان الإيمان .

من هذه الأخبار قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومنها قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

ففى هاتين الآيتين إخبار عن وجود الملائكة . ومخاطبة الله لهم ، وإجابتهم لله تعالى ، وفيهما أمر للملائكة بالسجود لآدم ، وأنهم امتثلوا للأمر إلا إبليس فقد استكبر ، وكفر ، ولم يطع الله تعالى .

وكما أخبر الله فى القرآن الكريم عن وجود الملائكة ، أخبر الرسول محمد ﷺ عنهم ، ومن أقواله ﷺ :

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤

" إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام (١) ".
ويقول ﷺ: "إذا أمن الإمام فأمنوا فإن الملائكة تؤمن ، فمن وافق تأمينه
تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه (٢) ".

وكان النبي ﷺ يدعو ويقول " اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل
فاطر السماوات ، والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما
كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من
تشاء إلى صراط مستقيم " (٣) .

ففي هذه الأحاديث الصحيحة إخبار بوجود الملائكة ، وتعريف ببعض
وظائفهم ومسمياتهم .

وبذلك فالإيمان بوجود الملائكة ركن من أركان الدعوة ، وأصل من أصولها
كما أن الله تعالى عده من أركان العقيدة يقول الله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا
وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْفُوتَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٤) .

ويقول تعالى ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا

(١) سنن النسائي باب فضل الصلاة على النبي ج ٣ ص ٣٧

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب فضل التأمين ج ٢ ص ١٠٥

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل ج ٦ ص ٥٦ ، ٥٧

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢٢٢)

وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين إن الإيمان بالملائكة من البر وجزء في العقيدة وركن من أركان الدعوة الإسلامية ، وقد أخبر الله تعالى بأن من يكفر بالملائكة فهو ضال بعيد عن دين الله تعالى .

يقول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٢) .

وذلك الضلال لا يكون إلا مع من ينكر أصلاً من الأصول الإسلامية ، ويلاحظ اندراج الإيمان بالملائكة مع الإيمان بالله تعالى ، وهذا يجعل الحكم الاعتقادي بهما واحداً .

وقد عد النبي ﷺ الإيمان بالملائكة من الإيمان . حين سأله جبريل عن الإيمان ، قال ﷺ : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره ، وشره ، حلوه ، ومره .

أصل الملائكة :

خلق الله الملائكة من نور . فتغايرت طبيعتها عن الإنسان الذي خلقه الله من طين ، وعن الجان التي خلقها الله من نار . ، يقول النبي ﷺ : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما لكم " (٣) .

وقد جبلت الملائكة على الطاعة المطلقة لله تعالى ، وحب الخير الدائم ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٢) سورة النساء الآية ١٣٦

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزهد ، باب أحاديث متفرقة ج ١٨ ص ١٢٣

الذى أَرَادَهُ اللهُ لَهُمْ ، فلا يَأْمُرُهُمْ بِشَرٍ ، وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَهُ أَبَدًا يَقُولُ اللهُ تَعَالَى :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(١) .

الإيمان بتنوع الملائكة :

يجب على المسلم أن- يؤمن إجمالاً- بأن- الله تعالى ملائكة عديدين ، لا يحصى عددهم إلا الله ، ويؤمن تفصيلاً بمن جاء تفصيل عنهم بالإسم ، أو بالوصف فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية ، أو بالعدد ، أو بالعمل .
وممن ذكرهم الله فى القرآن الكريم بالاسم :

١. جبريل عليه السلام : وهو الروح الأمين ، وروح القدس .، ورد- الحديث عنه كثيراً فى القرآن الكريم .، وكان- النبي يقول- عنه : **هذا أخى جبريل** .، ووظيفة جبريل عليه السلام القيام بالسفارة بين الله وبين رسله ، فكان ينزل بالوحي من عند الله تعالى على جميع رسل الله وأنبيائه ، كما ثبت أنه كان رفيق رسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء .، وللمعراج .، فهو رفيقه من مكة إلى المسجد الأقصى .، ومن المسجد الأقصى إلى سدره المنتهى بالملكوت الأعلى .

٢. ملك الموت : وهو الملك المكلف بقبض الأرواح يأتى للناس خفية حتى لا ينخلعوا من رؤيته ، وله أعوان من الملائكة يساعده بأمير الله تعالى يقول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾^(٢) .

٣. ميكائيل : وهو الملك الموكل بنزول المطر ، والنبات ، والزرع .

٤. إسرافيل : وهو الملك الموكل بالصور للنفخ فيه للقيامة ، والبعث ، عند

بدء اليوم الآخر .

(١) سورة التحريم الآية ٦

(٢) سورة الأنعام الآية ٦١

(٢٢٤)

٥. منكر ونكير : وهما الملكان. الموكل بهما سؤال الناس. فى قبورهم بعد دفنهم ، وهو السؤال المعروف. بسؤال القبر ، وهما يسألان الميت عن ربه ، ونبيه ودينه فقد ورد حديث صحيح رواه الترمذى جاء فيه أن الميت إذا قبر فى قبره ، أتاه ملكان أسودان ، أزرقان ، يقال لأحدهما المنكر ، ولآخر النكير .

فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟

فيقول ما كان يقول فى الدنيا : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فيقولان : قد كنا نعلم إنك تقول هذا ؟

ثم يفسح له فى القبر سبعون ذراعاً فى سبعين ذراعاً ، ثم ينور له فيه . ثم يقال له : نم .

فيقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم ؟

فيقولان له : نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وإن كان منافقاً فى الدنيا يرد عليهما ، ويقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدرى .

فيقولان : قد علمنا أنك تقول ذلك ، وحينئذ يقال للأرض : التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك (١)

٦. رضوان : وهو الملك الموكل إليه خزانة الجنة ، ورئيس خدمها .

٧. مالك : وهو خازن النار ورئيس خدمها ، يقول الله تعالى ﴿ وَنَادَوْا

(١) سنن الترمذى ، كتاب الجنائز باب ما جاء فى عذاب القبر ج٣ ص٣٧٤ والحديث انفرد به الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب

يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مِّنْكُمْ ﴿١﴾ .

ومن الملائكة المعروفين بالوصف ، والوظيفة :

١. حملة العرش : وهم أربعة يزيدون يوم القيامة أربعة آخرين ، يقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ وسحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴿ (٣) وهؤلاء كما وصفتهم الآيات يحملون عرش الرحمن ، مسبحين بحمد الله ، مؤمنين به سائلين الله أن يغفر للمؤمنين الصادقين الذين عاشوا في الدنيا على منهج الله تعالى .

٢. خدم الجنة : وهم كثيرون يقول تعالى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٦﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴾ (٤) .

٣. الزبانية : وهم خزنة جهنم ، وعددهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله بالنار يقول الله تعالى ﴿ سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿١٧﴾ لَا تُبْقَىٰ وَلَا تَذَرُ ﴿١٨﴾ لَوْ اِحْتِ لِبَشَرِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٢٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْفِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) سورة الزخرف الآية ٧٧

(٢) سورة غافر الآية ٧

(٣) سورة الحاقة الآية ١٧

(٤) سورة الرعد الآيتان ٢٣ ، ٢٤

وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا
 ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿١﴾ .

٤. الكرام الكاتبون : وعملهم كتابة أعمال البشر ، وإحصاء أقوالهم ،
 وأعمالهم ، حيث يوحد على يمين كل مكلف ملك يكتب الحسنات ، وعلى يساره
 آخر يكتب السيئات. يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١﴾ كِرَامًا
 كَاتِبِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ويقول سبحانه وتعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
 عَتِيدٌ ﴾ ﴿٣﴾ وهؤلاء الكاتبون لا يغفلون ، ولا ينسون ، ولا تمر بهم لحظة غياب ،
 وهم بقدر الله تعالى يسجلون كل أمر .

٥. الحفظة : وعملهم حفظ الإنسان من الجان ، وللشياطين ، وللآفات . ،
 يقول تعالى ﴿ لَهُ مِعْقَبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ﴿٤﴾ .
 قال ابن عباس : أى ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء
 قدر الله خلوا عنه .

وقال مجاهد : يحفظونه فى نومه ويقظته من الجن ولإنس وللهوام .^(٥)
 ويستمر الحفظة فى عملهم ما لم يرد القدر شيئاً ، فإذا أراد الله بلاء ترك الحفظة
 دورهم بأمر الله لينفذ قدر الله ، كما هو واضح فى قول مجاهد .

(١) سورة المدثر الآيات ٢٦ إلى ٣١

(٢) سورة الانفطار الآيتان ١٠ ، ١١

(٣) سورة ق الآية ١٨

(٤) سورة الرعد الآية ١١

(٥) تفسير ابن كثير ج٧ ص٥٠٣

والملائكة تعيش مع الإنسان دائماً ، ويتناوبون. المحافظة عليه بأمر الله تعالى ، يقول النبي ﷺ : الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين أتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم فيقول : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم يصلون (١).

٦. ملك الأرحام : وهو ملك موكل بالأرحام . يروى البخارى أن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً يقول : يا رب نطفة ، يا رب علقة ، يا رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال الملك : أذكر ، أنثى ، أشقى ، أسعيد ؟ فما الرزق ؟ والأجل ؟ فيكتب كل ذلك في بطن أمه (٢).

٧. ملائكة الدعاء : وقد وكل الله إليهم سماع الدعاء ، وهؤلاء يسمعون دعوة المؤمن لأخيه بظاهر الغيب ، فإذا سمعوا دعاء قالوا : آمين ولك مثل ذلك ، يقول النبي ﷺ : دعوة المرء المسلم لأخيه بظاهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك به آمين ، ولك بمثل ما دعوت (٣) .

وهناك ملائكة الجبال ، وملائكة السياحة ، وللطواف ، وملائكة المعروج وملائكة البيت المعمور ، والسياحون الذين يتتبعون مجالس الذكر . والملائكة بأمر الله يتعاقبون على الناس ليلاً ، ونهاراً... وعلى الجملة : فالواجب هو الإيمان التفصيلي بما جاء عنهم تفصيل ، وعلى وجه ما جاء عنهم ولالإيمان الإجمالي بأن الله ملائكة . لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه وتعالى .

(١) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ج٥ ص٢٧٨
(٢) صحيح البخارى كتاب الحيض باب مخلقة وغير مخلقة ج١ ص٢١٩ ، ٢٢٠
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ج١٧ ص٤٩

٨. من صفات الملائكة :

جاءت آثار مثبتة لبعض صفات الملائكة نورها هنا بإجمال :

(أ) عظمة خلقهم وأشكالهم : فلبعضهم أجنحة يقول تعالى ﴿ أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ

مَّثْنَىٰ وَتُلَافٍ وَزَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۗ ﴾^(١) ويقول النبي ﷺ : " أذن الله

لى أن أتحدث. عن ملك من حملة العرش ، رجلاه فى الأرض السفلى وعلى قرنه العرش " ^(٢) .

ورأى ﷺ جبريل ﷺ فى غار حراء فإذا هو باسط أجنحته سد بها الأفق .

(ب) خوفهم من الله تعالى : يقول الله تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَىٰ

وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۗ ﴾^(٣) .

(ج) طاعتهم لله تعالى : يقول الله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَہٗ

بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾^(٤) .

وقال الله تعالى ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٥) .

(د) حياؤهم من العبد الصالح : يقول النبي ﷺ " ألا أستحي من رجل تستحي

منه الملائكة " ^(٦) يعنى بذلك عثمان بن عفان ؓ .

(١) سورة فاطر الآية ١

(٢) سنن أبى داود

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٨

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٦ ، ٢٧

(٥) سورة التحريم الآية ٦

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب فضائل عثمان بن عفان ج١ ص ١٦٩

(هـ) حبهم لأنصار الله تعالى : فقد ثبت أن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل :
 إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء ،
 إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فى أهل السماء ، ويوضع له القبول فى
 الأرض^(١) .

وهم لحبهم يدعون للمؤمنين يقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ
 حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
 وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾^(٢) .

(١) صحيح البخارى كتاب الأذب ، باب المحبة من الله تعالى ج٩ ص٢٣١

(٢) سورة غافر الآية ٧

الجن

من الأشياء الغيبية التي يجب الإيمان بها عالم " الجن " أحد مخلوقات الله تعالى ، والجن معناه الستر والخفاء يقال : جنه الليل وأجنه ، وجن عليه بمعنى ستره وغطاه .

وأدلة وجود الجن عديدة :

منها قول الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) .

وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٦﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾^(٢) ، وقوله ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَمَنْ يَنْزَغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۗ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾^(٣) .

ومنها : ما جاء في السنة أن رسول الله ﷺ خرج من عند عائشة ليلاً فلما لم تجده غارت عليه فلما رجع ﷺ قال لها : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟ فقالت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك . فقال ﷺ : أقد جاعك شيطانك ؟ قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال ﷺ : نعم ومع كل إنسان . قالت : ومعك يا رسول الله !؟

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٢) سورة الرحمن الآيتان ١٤ ، ١٥

(٣) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣

قال ﷺ : نعم ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم^(١) .
ويقول ﷺ : إن الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم ، من بات
وفى يده ریحَ غَمَرٍ فأصابه شيءٌ فلا يلومن إلا نفسه^(٢) .
ويقول ﷺ " وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت
ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً
" (٣) .

ومن الأدلة العقلية : على وجود الجن ما يستنتج من رؤية صرعى الأرواح
الخبیثة ، الذين لا يجدون في مجال الطب البشري علاجاً لهم . وما يستنتج
من أصوات الجن التي تظهر لبعض الناس ، وما يرى من قيام بعض المشتغلين
بعلاج مرض صرع الجن ومناقشتهم ، وتسخيرهم ، والتحكم فيهم .

حقائق عن الجن :

الجن مخلوق غيبي عن الادميين ، لا يدرك بالحواس . ، وطريق معرفته
الآثار التي تحدثت عنه وقد خلقه الله من النار يقول الله تعالى ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِّن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾^(٤) ، وسبق حديث أن الجن خلقت من النار .
وفي القرآن الكريم سورة تحدثت عنه تعرف بسورة " الجن " .
والجن مخلوق مكلف ، والإيمان بوجوده جزء من الإيمان بالوحي المنزل
على رسول الله ﷺ فلقد تحدث عنه القرآن الكريم ، وتحدثت السنة
النبوية عنه .

(١) صحيح مسلم كتاب القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان بالإنسان ج٧ ص١٥٨

(٢) سنن الترمذی ، كتاب الأطعمة ، باب كراهية البتوتة وفي يده ریح غمر (طعام)
ج٤ ص٢٨٩

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ج٤ ص٥١

(٤) سورة الرحمن الآية ١٥

وقد آثرت الحديث هنا عن الجن لما بينه وبين الملائكة من شبهة بالنسبة للإنسان فكلاهما مستور عن الحواس ، ولكليهما تعلق بالإنسان ، وإنى هنا أذكر بعض الحقائق المتعلقة بالجن وذلك فيما يلى :

١ . أسماء الجن : الجن هو الاسم العام لهذا المخلوق المستتر المخلوق من النار ، ومنه المستقيم المطيع لخالقه ، الصالح فى عمله . ومنه المعاصى المفسد يقول الله تعالى ﴿ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾^(١) .

وعصاة الجن يسمون بالشياطين .

فإن زاد عصيانهم وتضاعف سموا بالمردة .

فإن زاد أكثر فهو العفريت .

وإذا تشكل بأشكال مخيفة فهو الغول .

وإذا شوش على الإنسان ، وأذاه فى عقله فهو الخبل .

وصالح الجن أن عاش مع الناس يسمى بالعامر ، وإن عاش مع الصبيان يسمى بالروح^(٢) .

ويرى بعض العلماء أن الشياطين صاروا جنساً خاصاً ، بعد استنكار إبليس لهم ذريتهم ، وهم نوع لا يعرف الخير ، ويعمل للمعصية مطلقاً لا صلاح فيها ، ولا خير يأتى من قبلها ولا أمل فى توبتها ، وألبو الشياطين هو إبليس الذى عصى أمر ربه ، فطرده من رحمته ، وأبقاه وذريته مع الناس ابتلاء للآدميين ، وطريقاً لإقامة الحجة على من يستهويه وعاملاً من عوامل إبراز الخير فى الناس ، وتمييز الصالح من الطالح بين

(١) سورة الجن الآية ١١

(٢) آكام المرجان ص ٧ ، ٨ .

البشر ، يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾^(١) .

وعلى ذلك فمن الأولى تسمية العصاة بالشياطين تمييزاً لجنسهم الخبيث ، وإشارة إلى أن بعض الجن لا يكون شيطانياً إذا كان مسلماً مستقيماً .

٢ . تشكّل الجن : دلت الآثار الواردة على أن الجن يتشكل بصور مختلفة فلقد أتى بعض الجن قريشاً في صورة سراقاة بن مالك ، . وأغراهم بالخروج إلى بدر^(٢) ، يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ۗ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾^(٣) .

وكما امتثل لكفار مكة في دار الندوة في صورة شيخ نجدى .

وكما تشكل في صورة رجل يسرق من أموال الصدقة .

وتشكيل الجن بإرادة الله تعالى ، كما أنه بالتشكل لا يخرج عن حقيقته التي خلق عليها .

والملائكة تتشكل بإرادة الله تعالى هي الأخرى كما جاء جبريل للرسول ﷺ في صورة دحية الكلبي ، إلا أن تشكل الجن يفترق عن تشكل الملائكة ، لأن الجن قد تتشكل بالصور الحسننة ، وبالصور القبيحة بينما الملائكة

(١) سورة الكهف الآية ٥٠

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٦١٢

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٨

تظهر فى الصور- الحسنة فقط ، وأيضاً فإن- الجن تحكمه الصورة التى يظهر بها ، أما الملائكة فلا تحكمها الصورة وذلك كله بإرادة الله تعالى .

٣ . مساكن الجن : فى أثر روى عن رسول الله أن- مسلمى الجن يسكنون القرى والجبال ، وكافهم يسكنون ما بين الجبال وللبحار . وغالب ما يوجد الجن فى مواضع النجاسات ، كالحمامات ، وللحشوش . وللمزابيل ، والقمامة ، ولذلك جاء المنهى عن الصلاة فى هذه الأماكن . لأنها مأوى الشياطين . وقد تؤذى الإنسان . أو تصرفه عن الإخلاص فى صلاته ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، عند دخول الخلاء ، إبعاداً للشياطين عنه .

يروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث (١) . وعلى هذا فمن الممكن أن يمس الجن الفاسد (الشيطان) الإنسان إذا لم يحصن نفسه بطاعة الله تعالى ، لأن عصيان الإنسان نجاسة معنوية تدعو إلى مشاركة الشيطان له ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت ، ولا عشاء ، وإذا لم يذكر اسم الله عند دخوله ولم يذكر عند طعامه يقول الشيطان : أدركتم العشاء ولا مبيت لكم ، وإذا لم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت والعشاء (٢) .

(١) سنن أبى داود ، كتاب الطهارة ، باب ما يقول إذا دخل الخلاء- ج ١ ص ١٥٥ ، ومحتضرة : أى تحضرها الشياطين ، والحشوش جمع حش ، وهو البستان ، وكانوا يقضون حوائجهم فيه .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام ج ٥ ص ٢٩٩

٤ . **طعام الجن** : الجن يأكل ويشرب . ، وهو محتاج إلى ذلك لتستمر معه الحياة وقد سأل الجن رسول الله الزاد. فعرفهم به ، وطعامهم هو العظم ، فإن ذكر اسم الله عليه فهو طعام الجن الكافر ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الاستنجاء بالعظم ، وللروث. وقال : **إنه زاد الجن** ، بل ثبت أن الشياطين تشارك الإنسان- طعامه إذا. لم يذكر اسم الله تعالى ، وللجن عموماً يأكل بشماله ويشرب بشماله ، ولذلك سن رسول الله ﷺ للإنسان أن يأكل ، ويشرب بيمينه ، يقول النبي ﷺ : **إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله** (١) .

٥ . **تكليف الجن** : الجن منذ خلقهم الله تعالى مكلفون. بالتزام الطاعة ، وترك المعصية ، والدليل على ذلك أن الله أخبر بأنه أرسل فيهم رسلاً يقول. الله تعالى ﴿ **يَمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ (٢) وقد اشتمل القرآن الكريم على ذم الشياطين ، ولعنهم وبين ضرورة التحرز من شرهم ، وبين ما أعد لهم من عذاب وعقاب ، وهذا كله لا يكون إلا مع مكلفين .

وقد بعث رسول الله ﷺ إلى الجن لخبر القرآن الكريم أن الجن استمعوا إلى رسول الله وكلفهم بما أمره الله به ، والجن يتعبدون بما يتعبد به الإنس من صلاة ، وحج وحضور مجالس العلم وهكذا .

يقول الله تعالى ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا**

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب الأكل باليمين ج ٥ ص ٣٠٤

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٠

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٣٦﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣٧﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٣٨﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣٩﴾ (١) .

وجمهور العلماء على أن لهم عند الله ثواباً ، وعقاباً في الجنة ، والنار .

٦ . صلة الجن بالإنس : الجن ، ولإنس من مخلوقات الله تعالى ، وهما مكلفان برسالة محمد ﷺ ، وقد ثبت أن كلا منهما يمكنه أن يتصل بالآخر على صورة من الصور .

فالإنسان يمكنه أن يتصل بالجن يستخدمه ، ويسخره ، وبخاصة عصاتهم الذين يرغبون في إضلال الإنسان ، والحاق الأذى به ، فإذا علموا إنساناً يسعى للشر ، ويعمل للفساد جاءوا إليه إعانة له على الإفساد . ومن هذا عملية تحضير الأرواح ، فإن الشياطين تأتي للإنسان ليتوهم المحضر نجاحه في عمله ، بينما هو عن النجاح بعيد وكثيراً ما يأتي الشيطان لمن يستعين به ، ويوهمه بالموافقة في فعل ما يطلب منه وهو كذوب . وقد يستجيب الشيطان لمن يسخره للضرر والفساد .

وبعض الناس يتحكم في الجن ليكثر طعامه ، ويغذى وليده ، ويلحق المرض والصرع بمن يعمل لأذاه ، ويتناكح منه (٢) .

٧ . الاحتراز من الجن : ثبت وجود الجن ، كما ثبت تمكنه من إيذاء

(١) سورة الأحقاف الآيات من ٢٩ إلى ٣٢

(٢) من أراد مزيد بيان في هذا الموضوع فعليه بكتاب (آكام المرجان) . للقاضى بدر الدين محمد الشبلى وكتاب (لقط المرجان في أحكام الجن) لابن القيم .

الإنسان وكيفية الاحتراز من إيذائه ممكن للإنسان. إذا. استقام. وأطاع ربه
ومن الممكن إبعاد الشيطان بواحد مما يأتي :

. الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم والإكثار من ذلك الله تعالى ﴿ وَإِمَّا

يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١) .

. قراءة المعوذتين فهما أفضل ما تعوذ به المتعوذون من الشيطان الرجيم .

. قراءة آية الكرسي لأن من قرأها لا يقربه الشيطان .

. الإكثار. من قراءة القرآن. الكريم . وذكر الله تعالى . وللجوء إلى

الطاعة كلما ألم بالنفس سوء ، أو نزل بالجسد أذى .

. قطع طرق الشيطان التي تمكنه من الإنسان ، وذلك بمداومة ذكر الله

تعالى يقول الله سبحانه ﴿ إِنِّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(٢) .

. الاستقامة على الحق ، والالتزام بطاعة الله تعالى يقول الله سبحانه

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

﴾^(٣) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال إذا خرج من بيته

، بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له حينئذ : هيت

وكفيت ، ووقيت ، فيتحنى عنه الشيطان ... فيقول شيطان آخر : كيف لك

برجل قد هدى ، وكفى ، ووقى^(٤) .

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠٠

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠١

(٣) سورة النحل الآية ٩٩

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ج ٥ ص ٣٢٨

المبحث الثالث

الإيمان بالكتب الإلهية

الأصل الثالث من أصول الدعوة للإيمان بالكتب الإلهية ، التي أنزلها الله على رسله وحياً إليهم ، بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام .

والإيمان بالكتب الإلهية قضية مسلمة ، لأن من آمن بالله ، وآمن برسله وبالوحي المنزل المشتمل على تعليم الدين ، يسلم عقلاً بكتب تحتوى على هذه التعاليم .

والقرآن الكريم كتاب الله تعالى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على هذه الحقيقة ، فلقد جاء حاوياً لكافة الأصول الإسلامية ، مبيناً لسائر فروع الشريعة ، ومكارم الأخلاق ، وهو فى نفس الوقت المصدر الأساسى الذى يحدد للمسلم كل ما يجب الإيمان به .

ولما كان العقل يسلم بأن يكون لكل نبي كتاب موحى به إليه ، وحيث أن القرآن الكريم لم يفصل فى عدد الكتب ، من هنا كان الإيمان بالكتب الإلهية على صورتين :

الصورة الأولى الإيمان الإجمالى : وهو الإيمان بأن الله كتباً عديدة ، لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى ، من غير تحديد عدد ، ولا أسماء لهذه الكتب

الصورة الثانية الإيمان التفصيلى : وهو يتضمن الإيمان بالكتب التى وردت أسماؤها فى القرآن الكريم ، وحددت أسماء الرسل التى نزلت عليهم وكفى ، ولا عبرة لأسماء نكرها الرواه ، والمؤرخون فى الإيمان المفصل ، أو المجمل ويجب أن تتضح ضرورة الإيمان بكل الكتب المنزلة من عند الله لأن الإيمان بالبعض ، وللكفر بالبعض كفر بالجميع ، وعدم تصديق لكلام الله تعالى .

(٢٣٩)

الكتب المتعلقة بها الإيمان التفصيلي :

ويجب على كل مؤمن أن يؤمن تفصيلاً بأن الله أنزل الكتب التالية :

(١) صحف إبراهيم عليه السلام .

(٢) صحف موسى لقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ سورة القصص صُحُفِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿^(١) .

(٣) التوراة : وهي الكتاب المنزل على موسى عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ رَاحَةَ هَارُونَ وَزِيَرًا ﴿^(٢) والمراد من لفظ

الكتاب. في هذه الآية التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، وفيها

شريعته إليهم لقوله تعالى في شأن قومه بنى إسرائيل ﴿ وَكَيْفَ مُحْكَمُونَ ك

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿^(٣) .

(٤) الزبور : وهو الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام يقول تعالى ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ

زَبُورًا ﴿^(٤) .

(٥) الإنجيل : وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام يقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ

قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴿^(٥) .

(١) سورة الأعلى الآيتان ١٨ ، ١٩

(٢) سورة الفرقان الآية ٣٥

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٠

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٠

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠٠

٦) الألواح : وهى الكتاب الذى نزل على موسى قبل التوراة ، وهى أول ما أتاه الله لموسى ﷺ وقد تضمنت الألواح أصول التوراة يقول الله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وليس على المسلم أن يؤمن بكتب إلهية أخرى غير هذه الكتب مهما تشبث بها أصحابها ، ومن هنا فأى إنجيل لغير عيسى ، وأى توراة لغير موسى لا يتعلق بها الإيمان ، وإنما هى أراء ، وأفكار ، لبشر ، عاديين لا يصح لمسلم أن يدخلها فى دائرة الإيمان ، لأن الذى يحدد الكتب الواجب الإيمان بها هو القرآن الكريم .

القواعد الأساسية

لصحة الكتاب المقدس

على المؤمن وهو يصدق بالكتب المتى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، مفصلة أن يكون يقظاً ، فاهماً ، ولا يغرم ما يقرأ ، أو يسمع ، فلا يؤمن بالمسمى إن كان المحتوى ليس هو الكتاب المنزل ، وعليه أن يلحظ صفات فى الكتاب الذى يؤمن به لا بد منها لأى كتاب جاء من عند الله تعالى ، وهذه الملاحظات مسلمات ضرورية عقلية :

١ - إن ينسب الكتاب المقدس إلى رسول جميع صفات الرسالة بكل كمالاتها وأن يكون هذا الرسول معروفاً ، ومشهوراً ، أكثر من الكتاب على الأقل ، إذ لا يعقل أن يأتى كتاب مقدس بلا رسول ، أو برسول مجهول أو برسول لم يعرف بصدقه وأمانته .

٢ . أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول ثابتة بطريق قطعي ، سواء كان الثبوت بواسطة سند متصل ، صحيح معروف ، يربط السند من أوله إلى من كتب عن الرسول ، أو إلى من قام بالنقل الشفوي منه عليه السلام ، مع احتواء الكتاب المقطوع بثبوته على ما يفيد هذه النسبة صراحة ، وضمناً .

٣ . أن يحافظ الكتاب على قداسة الله وصفاته ، وعلى كمالات الرسل حينما يخبر عنهم ، وهذا شرط جوهرى إذ لا يصح وجود كتاب جاء من عند الله فيه إساءة لذاته سبحانه ، أو لأحد من رسله .

٤ . أن يخلو الكتاب من التناقض الظاهرى والخفى ، لأن وجود التناقض فى الكتاب المقدس دليل على نقص صاحبه ، ويستحيل تصور نقص فى حق الله تعالى .

٥ . إجماع جمهور أهل الملة المعتد بهم فى قومهم على التصديق بكتابها تأييداً لقطعيته ، لأن إنكار فريق من الملة لكتابهم كله ، أو لبعضه يعد نقضاً .

ووصولاً إلى حقيقة موضوعية مع الكتب المعاصرة فإننا نحاول تطبيق هذه الأوصاف الخمسة عليها لنعرف قدرها ، ونكتشف حقيقتها ، وذلك فيما يلى :

(٢٤٢)

تطبيق قواعد التصحيح

على كتب اليهود

نرى أن البروتوكولات ليست كتاباً منزلاً ، وكذلك التلمود ، ولن قدسهما اليهود ، فلقد صرح اليهود أنها شروح ، وأقوال لعلمائهم .
وأما العهد القديم فهو محل المناقشة ونحن معه .
ونسأل أولاً : عن كنه هؤلاء الرسل ، والأنبياء الذين نسبت الأسفار إليهم ؟
ونسأل ثانياً : وهل نسبة الأسفار إلى هؤلاء الرسل نسبة مقطوع بصحتها ؟
ونسأل ثالثاً : عن مدى الترابط في تعاليم هذه الأسفار ؟
ونسأل رابعاً : عن مدى إجماع الإسرائيليين وأهل الكتاب على حقيقة هذه الأسفار ؟

وحتى نجيب على هذه الأسئلة نحاول تطبيقها على الكتب الدينية الموجودة مع الناس ، ويدعى أصحابها أنها كتب مقدسة .

وحين ننظر إلى كتب اليهود نلاحظ ما يلي :

أولاً : إن أنبياء بنى إسرائيل عدد غير قاموا بدور الوعاظ ، والمرشدين في أقوامهم ، لكن سيرتهم ، وحقيقتهم ظلت مجهولة ، وللمعجزات التي تحدث بها غير معروفة ومع ذلك فإن الأسفار تصور بعضهم بصورة نابية ، وتصفهم بأوصاف لا تليق بالرجل العادى .

جاء في سفر عاموس . (إنكم . والخطاب للأنبياء . ستدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ، ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ، ولا تشربون خمرها ، لأنى علمت ذنوبكم كثيرة ، وخطايكم وافرة ، أيها المضايقون البار ، الآخذون الرشوة ، الصادون ،

البائسون خلف الباب ، لذلك يصمت العاقل فى ذلك الزمان لأنه زمان ردئ^(١)

وجاء فى سفر حزقيال (قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم أسمعوا كلمة الرب هكذا قال السيد الرب ، ويل لأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ، ولم يروا شيئاً ،، أنبياءوك. يا إسرائيل صاروا. كالثعالب فى الخرب. رأوا باطلاً وعرافة كاذبة)^(٢) .

وجاء فى سفر أرميا (ولا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم ، وعائفيكم وسحرتكم المذنبين يكلمونكم قائلين : لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم يتنبأون لكم بالكذب)^(٣) .

ويصف الإصحاح السابع والعشرون من سفر التكوين يعقوب بالشطط ، والكذب عندما مثّل على أبيه إسحاق ، وادعى أنه عيسو ، وليس هو^(٤) . وينسب الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول انحرافات دينية وأخلاقية إلى سليمان عليه السلام ويزعمون أنه عشق نساء كثيرات ، وسار وراء آلهتهم ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب^(٥) .

وبهذه النصوص يظهر لنا أن كثيراً من أنبياء بنى إسرائيل ، وبخاصة الذين تنبأوا قبل عيسى عليه السلام كانوا مجهولين ، ولا خلاق لهم .

ونلاحظ (ثانياً) : أن نسبة هذه الأسفار إلى من نسب إليهم غير صحيحة ، وذلك لأن أسفار موسى الخمسة ليس فيها ما يشير إلى أنه هو الذى جاء بها ،

(١) سفر عاموس الإصحاح الخامس ، الفقرات ١١ - ١٣

(٢) سفر حزقيال الإصحاح ١٣ فقرات ٢ - ٦

(٣) سفر أرميا الإصحاح ٢٧ فقرات ٩ - ١٠

(٤) سفر التكوين الإصحاح السابع والعشرون الفقرة ١٨ - ٢٤

(٥) سفر الملوك الأول الإصحاح الحادى عشر فقرة ١-٤

أو أنها نزلت عليه ، بل أن بعض نصوصها يؤكد خطأ نسبة هذه الأسفار. إلى موسى ، جاء في سفر التثنية الإصحاح الرابع والثلاثون. : فمات موسى هناك عند الرب في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم ، وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ... فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوماً^(١) .

هذه الفقرات. الثلاث لا يجوز. مطلقاً أن يكون. نزولها على موسى . لأنها تحدث عنه بعد موته ومع ذلك رواها العهد القديم على لسان موسى عليه السلام . ويروى رحمه الله الهندي في كتابه إظهار الحق أن سفر يوشع كتبه أرميا ، وبين يوشع ، وأرميا ثمانية قرون. تقريباً ، وسفر القضاة كتبه حزقيال. كما أن الأسفار المنسوبة إلى سليمان لا يصح نزولها عليه لما فيها من خيال. وهوى ، وكيف يصدق ما جاء في سفر صموئيل الثاني الإصحاح الثامن من أن. داود ذهب ليسترد سلطته عند نهر الفرات ، مع أن الثابت أنه لم يذهب إلى الفرات قط^(٢) .

وباختصار فإن ما ذكرناه من نصوص يشير إلى العهد القديم الموجود. بين اليهود. المعاصرين ، ويؤكد ما فيه من تناقض لا. يصح أن تكون. في كتاب مقدس وهناك شك كثير في صحته .

إن الثابت أن موسى عليه السلام كتب أسفاره الخمسة ، ووضعها في التابون مع لوحين من الحجر ، ولما جاء سليمان فتح التابوت فلم يجد سوى الحجرين ، ولم يجد التوراة .

جاء في سفر الملوك. الأول. الإصحاح الثامن : أن سليمان لم يجد في التابوت إلا لوحى الحجر ، اللذين وضعهما موسى هناك في حوريب ، حين

(١) سفر التثنية ، الإصحاح الرابع والثلاثون الفقرات ٥-٨

(٢) أنظر إظهار الحق ج٢ ص٨٧ إلى ١٧٢

عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر^(١) وبعد سليمان حدثت ردة دينية قطعت كل ذكر للتوراة مدة طويلة حتى أظهرها الكهان بصورتها المحرفة .

وعلى ذلك ، فإن الوحي لم ينزل بهذه الفقرات التى لا يتصور عاقل نزولها من عند الله تعالى ، ولكن العقول البشرية هى التى ألفتها ووضعها .

ونلاحظ (ثالثاً) : أن تعاليم هذه الأسفار توحى بتناقضها ، فرغم أن اليهود ينسبونها إلى الرب إلا أنها تحوى عنصريتهم وضلالهم ، حيث يجعلونها موطناً لإبراز مزيتهم على العالم ، ففى سفر التكوين جاء أن اليهود من سلالة ابن آدم الطيب وأما ابنه الضال فهم بعيدون عنه^(٢) وجاء فيه أيضاً هجوم على سام ابن نوح لأنه جد المصريين ، وهجوم آخر على الكنعانيين لأنهم حاربوا شعب إسرائيل^(٣) .

وقد عدد الأستاذ أحمد شلبى بعض تناقضت الأسفار فيما يلى:

. جاء فى سفر الملاويين أن شباب بنى اسرائيل قبيل خروجهم من مصر عدوا بالملايين بينما كان عددهم قبل ذلك بقرنين أقل من مائة ، وهذا غير معقول .

. جاء فى سفر الخروج أن الأبناء يؤخذون بذنب الآباء حتى الجيل الرابع بينما يقرر سفر حزقيال أن الابن لا يحمل ذنباً للأب وهذا تناقض .

. اعترف مفسروا العهد القديم بأخطاء موجودة فى المزامير ، وفى الملوك وفى التكوين ، ويكفى بياناً لتحريف العهد القديم أنها تشرع عقيدة فاسدة تصور الله غاضباً ، نادماً ، مجسماً ، كما فى سفر التكوين ، وتصور

(١) سفر الملوك الأول الإصحاح الثامن الفقرة ٩

(٢) سفر التكوين

(٣) سفر التكوين

الأنبياء فسفه كفره ، مخادعين كما فى سفر التكوين ، وسفر الملوك الثانى ، وسفر استير ، ونشيد الأناشيد^(١) .

ونلاحظ (رابعاً) : أن الفرق اليهودية تختلف نظرتها إلى العهد القديم ، فبينما يرى بعضهم أن أسفاره ليست هى كل ما نزل .، يرى البعض الآخر أنها أكثر مما نزل ، وبين الفرق اليهودية اختلاف فى تفسير الأسفار ، كما أن النصارى ، وهم يعدون العهد القديم مصدراً لهم يختلفون فيه أيضاً فيما نرى البروستانت يقصرونه على تسع وثلاثين سفرًا ، نرى الكاثوليك يضيفون إليها سبعة أسفار أخرى ليصل عددها إلى ست وأربعين سفرًا ، ويرى العبرانيون أن أسفاره خمسة فقط .

ونكتفى بهذه الملاحظات. مع كتب اليهود. لأنها تجيب على الشروط الواجب توافرها فى العهد القديم ، وتؤكد أنها لا تجمع الشروط الضرورية للكتاب المنزل من عند الله تعالى .

تطبيق قواعد التصحيح

على كتب النصارى

ومع مصادر النصارى نسأل نفس الأسئلة ومن الإجابة **نلاحظ (أولاً) :** إن عيسى عليه السلام رسول الله الذى أنزل عليه الكتاب المقدس لم تنسب الأناجيل .، ولا الأعمال ، ولا الرسائل إليه ، وإنما نسبت إلى من كتبها من الحواريين ، والمرسل ، ولذلك يبقى السؤال القائل : **أين إنجيل عيسى عليه السلام ؟**

ومن خلال التاريخ المسيحى .، نعلم أن حوارى المسيح اثنا عشر هم تلامذته الأصفياء .، وقد ذكروا بأسمائهم فى سفر أعمال المرسل .، ونعلم أن المسيح أرسل سبعين رجلاً ليبشروا بإسمه فى البلاد ، وهم الرسل الذين أشار

(١) اليهودية ص ٨٩

إليهم لوقا في إنجيله ولم يذكر أسماءهم ، ونعلم أن بطرس أحد الحواريين خطب في مائة وعشرين تلميذاً حتى امتلأوا بروح القدس ، وتكلموا باللسنة غير ألسنتهم كما جاء في سفر أعمال الرسل ، بلا ذكر أسماء .

يقول النصارى : إن الإلهام نزل على الحواريين ، وعلى الرسل ، وعلى التلاميذ وسندهم في ذلك هو إنجيل لوقا ، وسفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا أيضاً^(١) .

وهنا أقول أن لوقا هذا (مرجع إثبات إلهام الحواريين الرسل والتلاميذ). لم يدع أنه ملهم وإنما قال في مقدمة إنجيله : إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا المذنبين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن اكتب على التوالي إليك أيها العزيز ياثا وفليس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به^(٢) .

وفي مقدمة أعمال الرسل جاء الكلام الأول أنشأته ياثا وفليس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ، ويعلم به^(٣) ففي المقدمتين يشير "لوقا" إلى أنه لم يكتب ما علمه عن الآخرين ، وأنه ينشئه من عنده . ومع ذلك لم ير فيما كتبه لوقا أسماء الرسل أصحاب الأسفار اللهم إلا متى ، وبطرس ، ويوحنا ، ويعقوب ، ويهوذا ، وبقي الجميع مجهولين .

ومع ذلك نسأل عن "لوقا" ما هو ؟ من يكون ؟

وتأتى الإجابة بأنه لم يكن من الحواريين ، ولا من الرسل ، ولا من تلاميذ بطرس وكل ما ثبت أنه كان تلميذاً لبولس الرسول ، ومعنى ذلك أنه

(١) محاضرات في النصرانية ص ٨٥

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح الأول ، الفقرات ١ - ٤

(٣) أعمال الرسل الإصحاح الأول الفقرة ١

(٢٤٨)

لم يشاهد المسيح ، ولم يعاصره لأنه من تلاميذ تلاميذه .

وقال مؤرخو المسيحية عن لوقا : إنه نحاس .

وقالوا : إنه كان طبيباً .

وقالوا : إن أصله إيطالى .

ولم يتحدثوا عن معجزة له ، وكل ما ورد عنه جاء فى رسائل بولس حيث

يقول " ويسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب .

ويقول : لوقاً وحده معى .

ونسأل أخيراً ، من أثبت الثانى ؟ هل هو بولس أم لوقا ؟

ثم نسجل ما نقله الشيخ محمد أبو زهرة عن كتاب من النصارى يقولون . "

إن الذين قالوا إن كل قول مندرج فى الكتب المقدسة إلهامى لا يقدر أن يثبتوا

دعواهم بسهولة^(١) .

ونلاحظ ثانياً : أن نسبة الأناجيل ، والرسائل ، والأعمال ، إلى أصحابها لا

تخلو من شك ، لأن الأناجيل الأربعة عرفت للناس فى سنة ٢٩٩م تقريباً فى

وقت كان الناس يعرفون إنجيل برنابا ، وإنجيل المتنكرة ، وإنجيل سرن تهتر ،

وإنجيل السبعين .

وذلك أن الكنيسة لما رأت كثرة الأناجيل فى أوئل القرن الثالث الميلادى

اختارت الأناجيل الأربعة ، وخصتها بالتقديس ، ونصت على إلغائها تماماً

وأيضاً فإن فى اللغة التى كتبت بها الأناجيل اختلاف .

وزمن كتابة الأناجيل ، وزمن ترجمتها ، مختلف فيها كذلك .

يقول هورن : ألف إنجيل يوحنا سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة

أو ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦٠ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٣ .

(١) محاضرات فى النصرانية ص٤٣ - ٤٦

(٢٤٩)

ويقول : ألف إنجيل مرقص سنة ٥٦ إلى سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ وهكذا يقول
بصفة الاحتمال فى تاريخ تدوين الإنجيلين الآخرين^(١) .

ثم نسال بعد ذلك عدداً من الأسئلة المتصلة بالموضوع .

فى أى كتاب سجل وحي الله إلى عيسى عليه السلام ؟

ألم يكن من الأولى أن نعرف إنجيل عيسى عليه السلام قبل غيره ؟

ولم ضاع إنجيل عيسى عليه السلام دون البقية ؟

ولماذا ارتضى أصحاب الأسفار أن يذكروا اسم إنجيل الله دون تسجيله ؟

وأرى أهمية هذه الأسئلة لأن العهد الجديد نفسه يشير إلى وجود إنجيل

للمسيح بشر به ودعا قومه إليه ، وركز به باسم الرب ، يقول بولس فى رسالته

إلى أهل رومية الإصحاح الأول . : (فإن الله الذى أعبدته بروحى فى إنجيل

ابنه يسوع شاهد لى)^(٢) .

ويقول فى رسالته لأهل كورنثوش (وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى

مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت)^(٣) .

ويقول مرقص (وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز . ببشارة

ملكوت الله) والبشارة هى الإنجيل^(٤) .

ونلاحظ ثالثاً : إن فى العهد الجديد بعض المتناقض الذى لا يصح نسبته

إلى الله تعالى ، ومن هذه التناقضات .

جاء فى الإصحاح العاشر من متى ، والإصحاح الثالث عشر من مرقص

، الأمر إلى الرسل بعدم الكلام حين يؤذنون ، لكن الأمر لهم فى سفر

(١) محاضرات فى النصرانية ص ٤٨ ، ٥٢

(٢) رسالة كولس إلى أهل رومية - الإصحاح الأول فقرة ٩

(٣) رسالة بولس لأهل كورنثوش - الإصحاح الخامس عشر فقرة ١٢

(٤) إنجيل مرقص الإصحاح ١٦ الفقرة ١٥

(٢٥٠)

الأعمال الإصحاح الثالث والعشرين أن يتكلموا ويشتموا^(١) .

اختلف إنجيل لوقا عن إنجيل متى فى مسائل عدة منها :

فى متى أن يوسف بن يعقوب ، وفى لوقا أن يوسف بن هالى .
وفى متى أن عيسى من أولاد سليمان. وهم من السلاطين . وفى لوقا أن
عيسى من أبناء ناثان بن داود ، وهم ليسوا من السلاطين .
وفى متى أن سلتائيل بن بكينا وفى لوقا أنه ابن بكيرى .
وفى متى أن من عيسى إلى داود ستة وعشرين جيلاً ، وفى لوقا أن بينهما
واحد وأربعين جيلاً .

وكل هذه اختلافات فى شئ واحد لا يختلف فيه ، ولا يصح لأنها تتصل
بنسب المسيح ، رسول الله إليهم .

وكذلك اختلف إنجيل يوحنا عن إنجيل متى ، فى إنجيل متى فى الإصحاح
السادس والعشرين جاء أن يهوذا هو الذى أعلمهم بالمسيح ، بالعلامة التى اتفق
معهم عليها وهى تقبيل يد يسوع ، وفى يوحنا أن المسيح هو الذى قدم نفسه ،
وفرق بينهما .

وقد حوى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله المهندي على أكثر من مائة
اختلاف من هذا النوع .

ونلاحظ رابعاً : أن بعض النصارى ينكر بعض أسفار العهد الجديد وبعضها
يزيد الأناجيل عن الأربعة المشهورة ، فعند الأرثوذكس الأناجيل هى (متى ،
يوحنا مرقص ، لوقا) ، وقد أنكر مجمع نيقية المنعقد فى سنة ٢٢٥م الرسائل
التالية :

١ . رسالة بولس إلى العبرانيين .

٢ . رسالة بطرس الثانية .

(١) انظر محاضرات فى النصرانية ص ٨٦ بتصرف .

- ٣ . رسالة يوحنا الثانية والثالثة .
- ٤ . رسالة يعقوب .
- ٥ . رسالة يهوذا .
- ٦ . رسالة يوحنا التي أشار فيها إلى رؤياه وهي التي تسمى " الكتاب النبوى " إلا أن مجمع لوديسيا اعترف بها سنة ٢٦٤ م .
وبعرض هذه التساؤلات ، ومعرفة إجاباتها من المصادر المسيحية ، نتبين مدى صدقها ، ومدى كونها كتاباً مقدساً ، والواقع خير شاهد ، وبرهان. وللحكم متروك لفظنة القارئ .

تطبيق قواعد التصحيح

على القرآن الكريم

ونكرر نفس الأسئلة مع القرآن الكريم لنقف على حقيقتها ، ومن الإجابة

نلاحظ :

أولاً : القرآن الكريم : نزل على محمد ﷺ ونقل عنه متواتراً إلى الأمة كلها ، وحياته ﷺ معروفة بدقة ، وكتاب السير والتاريخ ، يحيطونها بالتفصيل ، والتحليل ، ويشرحون كل معجزاته بالعلم ، والعقل ، ويؤكدونها بالنقل ، ومن كل ما أثبتته العلماء الثقة نلمح أن النبي ﷺ تمتع بكل كمال يليق به ، وقد أيدته الله بالمعجزات الدالة على صدقة ، وكان ﷺ يحافظ على تأكيد صدق القرآن الكريم ، ففصل بين القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وقد أمر بكتابة القرآن وحده دون السنة حتى لا يختلطا ، وذلك في بداية الوحي . فلما استقر الأمر سمح لمن يكتب أن يكتب غير القرآن الكريم .

ونلاحظ (ثانياً) : أن نسبة القرآن الكريم إلى النبي ﷺ لا مطعن في ثبوتها فقد كتب القرآن في حياته ﷺ وحفظ ، وبعد وفاته جمع القرآن ووزع على

الأمصار ، وقد تواتر الجمع الغفير من المسلمين على حفظ القرآن . ، وفهمه ،
وبذلوا من أنفسهم وأموالهم الكثير من أجل الحفاظ على القرآن كما جاء الوحي
به بلا تبديل أو تحريف .

ومن دلالة اهتمام المسلمين ، بالمحافظة على القرآن. الكريم وجود. ملايين
الحفاظ في كل أرجاء العالم الآن ، وقد حفظوا القرآن في صدورهم ، ودونوه في
كتب محفوظة ، وعلى مخترعات العصر من فضائيات ، وتسجيل .
والاهتمام بالقرآن موصول ، وكل مسلم يعلم أن ذلك عبادة يتقرب بها إلى
الله تعالى .

ونلاحظ (ثالثاً) : عدم وجود تناقض في تعاليم القرآن ، أو. في تعاليم السنة
الصحيحة ، لأنهما ثابتان كما نزلا ، ولو كان أحدهما من عند غير الله لو جدوا
فيه اختلافاً كثيراً .

ونلاحظ (رابعاً) .: أن الأمة الإسلامية مجمعة على صدق مصادرها ،
وثبوتها لفظاً ومعنى .

ونلاحظ (خامساً) : حرص المسلمين في كافة العصور. على تأكيد أن. يتم
تلقي القرآن من شيخ تلقى عن غيره ... عن رسول الله ﷺ ، وبذلك يستمر السند
المتصل في تلقي القرآن الكريم من قارئة في أي زمان ، ومكان. إلى رسول. الله
ﷺ بل إلى الله تعالى لأن رسول الله ﷺ تلقاه عن جبريل ﷺ وتلقاه جبريل عن
الله سبحانه وتعالى .

وأخيراً : نذكر أن المسيحية واليهودية معاً قد وضحهما القرآن الكريم ، وأحاط
رسلهما بالكمال الواجب ، وبين الصلة بينهما ، وبين الإسلام وأشار إلى أن

التحريف قد لحق بمصادرها إحقاقاً للحق ، وبياناً للواقع .

(٢٥٣)

المبحث الرابع الإيمان بالرسول

الإيمان بالرسول هو الأصل الرابع من أصول الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ ، ودراسة هذا الأصل يحتاج إلى المباحث التالية :

■ ١ ■

الرسول ، والنبي

خلق الله عباده ، ولختر. من بينهم من اصطفاهم ليتنزل. الوحي عليهم ، ويقوموا بتبليغ الوحي لأقوامهم ، لنشر دين الله بين الناس . . وهؤلاء. المختارون هم رسل الله وأنبيأؤه .

ومن العلماء من لا يفرق بين النبي ، والرسول ويرى أن كلا منهما إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الدين الذي يوحي إليه به .

ويرى آخرون أن النبي أعم من الرسول لأنه يشترط في الرسول. أن يكون صاحب كتاب وشريعة بخلاف النبي فإنه لا يشترط فيه ذلك مع أن. كلا منهما يقوم بتبليغ ما لديه من دين .

ويرى آخرون أن الرسول يشمل الإنسان. وللملك فهو أعم من النبي الذي يختص بالإنسان فقط .

ولعل أرجح الأقوال هو أن النبي شخص من بنى آدم أوحى الله إليه بشرع ، ولم يؤمر بتبليغه ، وسمى نبياً لأنه نبي ، وأخبر من قبل الله تعالى ، . أما الرسول فهو شخص من بنى آدم اختاره الله تعالى ، وأوحى إليه بدين ، وأمره بتبليغه للناس ، وسمى رسولاً ، لأن الله أرسله ، وبعثه للخلائق ، فهو إذا. نبي مرسل ، وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، فالنبوة

(٢٥٤)

هى طريق الرسالة ، ولا رسالة بدون نبوة .

ولذلك كان- إخبار- الله تعالى فى القرآن- المكرم بأن- محمداً- خاتم النبيين
شاملاً لكونه خاتم المرسلين أيضاً .

والإيمان بالرسول والأنبياء واجب ، وذلك أصل من أصول الإسلام . من
جده كفر ، والواجب على كل مكلف أن يعتقد فى أن الله سبحانه وتعالى أرسل
رسلاً مبشرين بنوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ ما أمروا به على خير وجه
والإيمان بالأنبياء والرسول يكون على وجهين :

الأول : الإيمان الإجمالى وذلك بأن- يؤمن المكلف بأن- الله تعالى أرسل
رسلاً عديدين، لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى، وذلك لقوله سبحانه ﴿ وَرُسُلًا
قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكَلِيمًا ﴾^(١) .

الثانى : الإيمان- التفصيلى بما ورد- ذكرهم مفصلاً فى القرآن- المكرم ،
وعددهم خمسة وعشرون رسولاً هم :

آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط وإسماعيل ،
وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى . وهارون .
ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، ونوح الكفل ، وزكريا ، ويحيى
، وعيسى ، ومحمد " عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وقد حصر أحد الشعراء المسلمين هؤلاء الرسل فى بيتين :

فقال :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية .: من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

(١) سورة النساء الآية ١٦٤

إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا .: ذوالكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا وأولو العزم من هؤلاء الرسل خمسة هم :

نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد .، وسموا. بذلك لأنهم صبروا على أذى قومهم وتحملوا المشاق ، والمتاعب ، وصمدوا أكثر من غيرهم . ومن المعلوم أن الرسالة والنبوة اختيار محض من قبل الله تعالى ولا مدخل للاكتساب فيها .

صحيح أن المرسل صلوات. الله عليهم كانوا. من أنقى الناس. عنصراً . وأحسنهم خلقاً ، وأعظمهم طاعة ، واستقامة . ومع هذا. فلا دخل . لاستقامتهم ومجاهدتهم فى نيل الرسالة لأنها منحة محضة .

يقول الله تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(١) .

ويقول ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ

وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٣) .

ولرسال. المرسل من الأمور. الجائزة فى حق الله تعالى وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه لن يعاقب أحداً إلا إذا جاءه رسول يرشده ، ويعرفه بصراط الله المستقيم .

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤

(٢) سورة القصص الآية ٦٨

(٣) سورة الحج الآية ٧٥

الحاجة إلى الرسل

أرسل الله سبحانه وتعالى رسله للناس مبشرين ومنذرين ، لتحقيق السعادة الحقيقية لهم ، ورسم المنهج الصحيح من أجل الوصول إلى المصالح الثابتة للأفراد أو الجماعات .

وطبيعة الإنسان وفطرته تقضى بحاجة البشر الملحة إلى رسل يأتون إليهم حاملين وحى الله تعالى ، يدعونهم إلى الخير ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور ، وتلك قضية مسلمة عقلاً لعدة أسباب أهمها :

أولاً : ما دام الإنسان قد تيقن من بقاء نفسه بعد الموت ، وآمن بالحياة الأخرى بما فيها من نعيم مقيم ، أو شقاء أليم ، وعلم أن الشقاء ، وللسعادة فى الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة مرتبطان بالأعمال الدنيوية ، قلبية كانت كالاعتقاد والقصد والإرادة ، أو بدنية كالعبادات ، والمعاملات .

إن الإنسان مهما كانت عقيدته يسلم بمسألة بقاء الروح ، وبعثها مرة أخرى لتتال جزء ما قدمت فى المرة الأولى ، ومع قوة العقل فى التصور ، والاستنباط ، فإنه يسلم بالعجز أمام قضايا عديدة ، منها المتصور المدقيق المتام للحياة الأخرى ، ومنها معرفة المنهج الصحيح للعمل الدنيوى الموصل لخيرى الدنيا والآخرة .

وللمرء أن يتساءل :

- . هل ما نراه فى الدنيا هو ما سنراه فى الآخرة ؟
- . هل العقل يوصل كل إنسان إلى معرفة حقيقة الحياة الآخرة ، ومشاهدها ؟
- . هل فى أساليب النظر ما يأخذ بالإنسان إلى اليقين المتام فى الاعتقاد ، والعمل الصحيح ، اللذين يحققان الخير فى الدنيا والآخرة ؟

. هل يستطيع العقل الإنسانى اكتشاف الغيب المحيط به ماضياً ، أو حاضراً
أو مستقبلاً ؟

يجيب الشيخ محمد عبده على تلك الأسئلة ويقول: .: كلا فإن. المصلة بين
الدنيا والآخرة تكاد أن تكون منقطعة ، فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل
إلى كشف حقائق الغيب المجهول فى الآخرة^(١) .

من هنا تجلت حكمة المبارى سبحانه وتعالى أن. خلق من الناس. أفراداً
تميزوا بسلامة الفطرة وكمال الروح ، والقدرة على تقبل الوحى الذى يأتهم من
قبل الله تعالى ، وكلفهم أن يتلقوا منه منهج إصلاح الحياة ، وتبليغه للخلق وهو
سبحانه يؤيدهم ، ويحقق لهم النصر ، والتمكين فى الأرض بين الناس .
إن ذلك ضرورة والإنسان فى حاجة إليها .

ثانياً : الإنسان. مدنى بطبعه .، وقد درج على الاستعانة بغيره فى كافة
مطالب حياته ، وكيفية خلقه تعينه على ذلك ، فلسانه يكلم غيره .، ولأذنه تسمع
من غيره وهكذا سائر جوارحه ، حتى تأكد الإنسان أنه خلق للغير ، وبهم يعيش
، ومعهم يتحرك ، ولهم يعمل ، وفى إطارهم يعيش ، ويسعد .

وفى وسط الناس. تتعدد. صور. العلاقات .، ومستوياتها .، فهناك. المصلة
العادية ، وهناك المودة ، وهناك العداوة ، إلى غير ذلك .، وكل صورة لها سبب
، وكل نتيجة مرتبطة بعلتها ، فالحاجة تدفع إلى الصداقة .، وللمصلحة تؤدى
إلى التعارف ، والإخلاص يوصل إلى الحب ، والعمل الدعوب يحقق الإعجاب
، وقوة الإرادة تضع صاحبها فى مجال الريادة والقدوة .

وفى نفس الوقت يؤدى التنافس إلى التحاسد .، ويؤدى النهم فى الإشباع
إلى الفرقة والكراهية .

ولو ترك الأمر للإنسان وحدة لبقى يتخبط فى متاهات الغريزة ، ومجالات

(١) رسالة التوحيد ص ٩٠

الهُوى النفسى ، وحينئذ يقوم الإنسان بغير ما هبى له ، يفسد ، ويهدم . ، ويبغى الغلبة ، والانتصار شهوة وظلماً .

وهنا تجلت رحمة الله تعالى بإبراز. بشر لهم صلة بالناس. أساسها الثقة والحب ، والإعجاب ، مع البعد التام عن عوامل النفور. المادية . وجعلهم رسله يحملون وحيه ويبلغونه من وراءهم ، فينظمون العلاقات بمنهج صالح . ، يحقق الخير ، ويبتعد عن كل شر وسوء .

ثالثاً : فطرة الإنسان . ، تجعله يرحب برسلى الله إليه . ، لأنه جبل على الإذعان لما فاق قدره قدرته ، وعلا بمستواه عنه ... ومن هذا المدخل بعث الله رسله يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون. العقول. بمالاً مندوحة عن الإذعان. له . ، ويستوى فى الركون. لما يجيئون به المالك وللمملوك . ، وللعاقل . ، وللجاهل . ، فيكون. الإذعان. لهم أشبه بالاضطرار منه بالاختيار وحينئذ يتحقق المراد بأمر الله .

رابعاً : ومن حقائق الوجود. أن. الوصول. للغاية يحتاج إلى عالم بحقيقة الواقع وأسراره ، ومدرك للغاية المقصودة . ، وقادر. على تحديد الطريق المستقيم الذى يحرك الإنسان بواقعة نحو غايته ، وفق منهج معين ولا يقدر. على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى العليم بمن خلق ، الخبير بالغايات. الخيرة . ، المقادر على تحديد الطريق الموصل ولذلك أرسل الرسل الله بدينه ، ليسيير الناس بنظام الله ليتحقق لهم الخير كله .

خامساً : درج الناس فى رقيهم الاجتماعى إلى اتباع مصلح حكيم . ، يدرك الغاية الصالحة ، ويدعو إليها ، ويرشد الناس إلى أحسن الطرق ، وفق اجتهاده للوصول ، ولولا هؤلاء المصلحون لبقى الناس يعمهون فى الجهالة . ، وللغياية ، ومن هنا كان. الإنسان. عموماً أكثر إلفاً بمن يخلص له . ، ويعمل على تحقيق سعادته .

(٢٥٩)

وإن كان هذا الإلف مع الناس العاديين فهو مع الرسل ضرورة .
إن رسل الله يبعثهم الله لإصلاح الحياة بالمنهج الرباني ، المتكامل ، الذي
يشرع بدقة ، مناسبة للمصلحة الإنسانية ، وبصورة لا يعتريها خلل أو اضطراب
ومن هنا كان إرسال الرسل ضرورة ، والإنسان في حاجة إلى هذه الضرورة

معجزات الرسل

المعجزة هي الدليل الذي يحمله الرسول ليثبت للناس رسالته ، وهي تصديق من الله تعالى لرسوله فيما يدعيه من النبوة والرسالة ، ولسان حالها يقول : **صدق عبدى فيما يبلغ عنى** ، وتأتى المعجزة فى صورة حسية ، أو معنوية من جنس ما تفوق فيه قوم الرسول ، بشكل يعجز البشر عن الإتيان بمثلها ، وذلك سميت معجزة ، لأنها أعجزت البشر عن الإتيان بمثلها ، بعدما تحداهم رسولهم بها ، ولا تظهر المعجزة إلا عند الحاجة إليها ، أى مع الرسول الذى يطلب من الناس تصديقه فى رسالته .

والعلماء يعرفون المعجزة بأنها "أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقاً له فى دعواه ، على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثلها ، بعد تحديهم فى ذلك " .

ومن هذا التعريف نلاحظ أن شروط المعجزة هي :

- ١ . المعجزة تكون من الله سواء كانت قولاً كإنزال كتبه المقدسة ، أو فعلاً مثل إنشقاق القمر ، أو تركا كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام .
 - ٢ . أن تكون المعجزة خارقة للعادة ، أى يعجز البشر عن الإتيان بمثلها .
 - ٣ . أن تظهر على يد مدعى النبوة مقرونة بدعواه .
 - ٤ . أن تكون موافقة للمطلوب ، لا على عكسه .
 - ٥ . أن تكون مصدقة له بالقول إذا نطقت كما نطق الشجر والحجر .
- والمعجزة ممكنة عقلاً ، لأن الله الذى يرسل المرسل ، هو خالق الخلق ، وهو على كل شئ قدير ، وهو الذى يقول للشئ كن فيكون .

(٢٦١)

وكما جعل سبحانه لكل شئ سبباً يمكنه أن يخرق نظام إيجاده المخلق ، ويقطعه عن علته ، ويوجد المسبب بلا سبب ، أو يوجد بسبب لا يدرك البشر الارتباط بينهما .

وقد وقعت المعجزة فعلاً ، فما من رسول ولا نبي ، إلا ومعه معجزاته التي أقر الناس بعجزهم عن الإتيان بمثها .

وحتى يكون التحدى كاملاً ، وتاماً ، في دلالاته على صدق الرسول كانت المعجزة تأتي دائماً في الأمور التي اشتهر بها الأقسام الذين بعث الرسول إليهم ، ونبغوا فيها ، فموسى عليه السلام جاء بمعجزة العصا التي تنقلب ثعباناً وذلك من نوع السحر الذي نبغ فيه المصريون .

وهناك فرق بين المعجزة وبين غيرها من خوارق العادات .

فالكرامة : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للنبوة ، رفعاً لشأنه ومساعدة له .

والمعونة : أمر خارق للعادة يظهر على يد بعض العوام تخلصاً من شئ يضره أو جلباً لأمر يحتاجه .

والإهانة : أمر خارق للعادة يظهر على يد مدع للنبوة كذباً على خلاف مطلوبه إهانة له كما حصل لمسيمة الكذاب فإنه تفل في عين أعور ليبرئه فعميت السليمة .

والاستدراج : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدع الألوهية على وفق مراده استدراجاً له ، كما سيحدث مع الدجال فإنه يأمر السماء لتمطر فتمطر ، وهكذا .

والإرهاب : أمر خارق للعادة يظهر قبل مبعث نبي ، كتصدع إيبوان كسرى وجفاف بحيرة ساوة ، وتظليل الغمام لرسول الله ﷺ .

(٢٦٢)

أما السحر ، وللشعوذة ، وغرائب المخترعات . ، فهي ليست من خوارق العادات لأنها معتمدة على أصول علمية ، وخفة في التطبيق .
ودلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة يقينية عند الجمهور ، وهي دلالة تلزم الذين شاهدوها ، والذين سمعوا عنها ، ومن يأتي بعدهم بكل ما جاءت من أجله لأنها نقلت إليهم نقلاً صحيحاً .
ومعجزة النبي ﷺ الباقية إلى يوم القيامة هي القرآن الكريم . وهي معجزة ملزمة لكل من بلغته في كل زمان ومكان .

خصوصيات محمد ﷺ

محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، اختصه الله سبحانه وتعالى ، بمجموعة من الخصائص كانت له ولم تكن لغيره من الرسل ممن سبقه ، وأهمها ما يلي :

(أ) **عموم الرسالة المحمدية** : فجميع الرسالات قبل الإسلام كانت خاصة لقوم معينين ، لا يكلف بها سواهم ، فلما بعث محمد ﷺ جعل الله رسالته عامة للخلق أجمعين بعدما . أودع . سبحانه في الناس . تطوراً . عقلياً ، . ورشداً . في المتصور . ولالإدراك . يمكنهم من المتجمع في المدين الواحد ، . وتقبل فكرة العالمية في العقيدة والشريعة ، ولذلك كانت رسالة الإسلام عامة للعالم كله ، يقول الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٢) .

ويقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّندِرِينَ ﴾^(٣) .

يقول النبي ﷺ : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة^(٤) .

(١) سورة سبأ الآية ٢٨

(٢) سورة الأعراف ١٥٨

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٩

(٤) صحيح البخارى ، كتاب التيمم ج١ ص٢٣٢

(ب) محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسل : قضى الله سبحانه وتعالى بأن. تختتم الرسالات برسالة سيدنا محمد ﷺ ولذلك جعلها صالحة لكل زمان. ، ولكل مكان ، وللناس أجمعين ، وحفظ تعاليمها من الضياع ، والتحريف ، وأبقى سيرتها ، وسيرة رسولها للناس بكل الوضوح ، وللبيان. ، يقول النبي ﷺ " إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زلوية من زواياه. ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " (١) .

(ج) نصره الله بالرعب : مسيرة شهر بسير الإبل ، وسيلة التنقل فى عصر البعثة .

(د) جعل الله الأرض له ولأمة مسجداً ، فأيا رجل مسلم أدركته الصلاة فى أى مكان فليصل فيه .

(هـ) أحل الله له الغنائم : ولم تحل لأحد قبله .

(و) أعطاه الله الشفاعة العظمى : ينالها المسلمون ، وينجيهم الله بها من نار جهنم يقول النبي ﷺ دليلاً على هذه الخصوصيات "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً ، وطهوراً ، فأياً رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " (٢) .

لقد فضل الله رسوله محمداً ﷺ على سائر المرسل ، وجعل أمة خير أمة أخرجت للناس ، وعلى المسلمين أن ينهضوا لأداء دورهم ، وتحمل

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب خاتم النبيين ج٦ ص٢٢ ، ٢٣

(٢) صحيح البخارى كتاب التيمم ج١ ص٢٣٢

مسئوليتهم فى قيادة الإنسانية ، والله يهدى إلى سواء السبيل .

(ز) نزول القرآن الكريم : أهم ما تميز به محمد ﷺ هو نزول القرآن الكريم عليه ليكون دستور الأمة إلى يوم القيامة ، وقد حفظه الله تعالى ، وبينته السنة النبوية ، وأودع الله فيه جوانب الإعجاز العديدة التى تمد المسلمين فى كل عصر ، ومصر بالجديد المعجز ويكفى ما فى القرآن الكريم من نظم ، وتوجيه ، وتربية ، وإرشاد تبدو جديدة مع الناس أجمعين يقول الله تعالى ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

المبحث الخامس

الإيمان باليوم الآخر

قضى الله سبحانه وتعالى بإيجاد حياتين للمكلفين تعرف الحياة الأولى بالحياة الدنيا ، وتعرف الثانية بالحياة الأخرى ، ولما سميت بالأخرى لأنها تعقب الأولى مباشرة بعد فنائها .

والإيمان باليوم الآخر يعنى الإيمان بكل ما ورد فيها من أخبار صحيحة . ويرى بعض العلماء أن اليوم الآخر يبدأ بالنسبة للأفراد من لحظة موتهم . إذ لكل نفس أجلها ، يقول الله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) .

فإذا مات إنسان وقبر في رمسه فإن أول شئ يقابله سؤال الملكين بعد أن يرد الله روحه ، وسمعه ، وبصره ، ثم يسأله الملكان عن ربه ، ودينه ، ونبيه ، لينال جزاءه حسب إجابته .

يستدل هؤلاء على أن الموت بداية الآخرة لقوله ﷺ " القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه " (٢) .

ويروى فريق آخر من العلماء . وهو الأرجح . بأن اليوم الآخر يبدأ من البعث ، وهو إحياء الموتى فى قبورهم بعد النفخ الثانية التى يقول الله عنها ﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ

(١) سورة يونس الآية ٤٩

(٢) سنن الترمذى كتاب الزهد ، ج٤ ص٥٥٣ وهو حديث حسن غريب .

(٢٦٧)

تُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ .

وبعد البعث يكون النشْر ، وهو الخروج من القبر ، والانتشار. في الأرض
للتجمع في المحشر .

واليوم الآخر ثابت بالأدلة العقلية وللنقلية يقول الله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ أَجْرَتْ حُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً
مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ السَّمِينَ كَالْجَرِيمِينَ ﴿٥٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (٤) .
والإيمان باليوم الآخر واجب ، لأنه ركن من أركان الإسلام . وقد اهتم
القرآن الكريم بالدعوة إلى هذا الإيمان ، فقرنه بالإيمان بالله تعالى . يقول الله
تعالى ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٥) ،
ووصف ما يقع فيه ، وأكد وقوعه يقول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ
فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (٦) وربط الاستقامة بالإيمان به ،

(١) سورة الزمر الآية ٦٨

(٢) سورة الجاثية الآية ٢١

(٣) سورة القلم الآيتان ٣٥ ، ٣٦

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥ ، ١١٦

(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٢

(٦) سورة الحج الآية ٧

والإيمان الصادق باليوم الآخر ينعكس على المؤمن به ، استقامة ، وصلاً ،
انتظاراً لثواب الله وجزائه العادل .
هذا ...

والبحث في اليوم الآخر يقتضى دراسة أهم قضاياها . وهى :

.. أولاً ..

أسماء اليوم الآخر

تعددت أسماء اليوم الآخر ، وحفل القرآن الكريم واللسنة النبوية بهذه
الأسماء الكثيرة تعظيماً لهذا اليوم ، وإشارة إلى الأهوال التى تقع فيه لأن لكل
اسم معنى ودلالة على بعض ما يقع فى هذا اليوم ... وأهم هذه الأسماء هى :

١ . القيامة : ويدل على قوله تعالى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾^(١) والقيامة بمعنى القيام
، وللتاء فيه للمبالغة وسمى اليوم بذلك لقيام الناس فيه من موتهم
للحساب^(٢) .

يقول ابن كثير : وقوله : الله لا إله إلا هو إخبار بتوحيده وتفردم بالإلهية
لجميع المخلوقات ، وتضمن قسماً لقوله تعالى ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وهذه اللام موطنة
للقسم ، فقوله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خبر وقسم إنه سيجمع الأولين

والآخرين فى صعيد واحد ، فيجازى كل عامل بعمله وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ

(١) سورة النساء الآية ٨٧

(٢) روح المعانى ج٥ ص١٠٥

أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿ أَى لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبْرِهِ وَوَعْدِهِ ،
وَوَعِيدِهِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

٢ . السَّاعَةُ :. ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ
الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

وللساعة جزء الزمن ، وللمراد بالساعة فى الآية الوقت الذى تقوم فيه
القيامة يقول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ
شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعَىٰ ﴾ (٣) .

قال ابن جرير : إن الساعة التى يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف
القيامة جائية ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ بمعنى أكاد أخفيها من نفسى لئلا يطلع
عليها أحد .

وعن أبى هريرة ؓ يبلغ به النبى ﷺ قال :. تقوم الساعة ، والرجل
يحبب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان
الثوب ، فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلبس فى حوضه فما يصدر حتى
تقوم (٤) .

وعن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : " ... ولتقومن الساعة وقد

(١) سورة الروم الآية ٥٥

(٢) سورة الحج الآية ١

(٣) سورة طه الآية ١٥

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ج٨ ص٩١

نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِفَحْتِه ، فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقى منه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها^(١) .

فى هذين الحديثين بيان لحصول الساعة بغتة وسرعتها ، وعظم أمرها على الناس فتتوقف أمور الدنيا ويعرض الناس عن ذلك فى استقبال أمر عظيم ، وخطب جسيم ، وهول فادح فيبطل البيع ، ويترك الطعام . وللشراب ، ويترك إصلاح الأمور الدنيوية المهمة يرغب عن ذلك دون إرادة . ولكن لانتهاء العاجلة ، وقدم الآخرة وتوقف الأعمال ، واستقبال الحساب ، وهذا سنة الله تعالى .

قال تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾^(٢) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : . تتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العواف - يريد عوافى السباع والطيور - وآخر من يحشر راعيان من مزينة يردان المدينة ، ينعانان بغنمهما ، فيجدانها وحشاً ، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خراً على وجوههما^(٣) .

(١) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب اقتراب الساعة جـ ١٠ ص ١٦٦

(٢) سورة الحج الآية ١

(٣) صحيح البخارى كتاب فضائل المدينة باب من رغب عن المدينة جـ ٣ ص ٢٧٥ .

٣ . الصاخة : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ﴾ [٣٣] يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ . (١) .

والمراد بالصاخة الصيحة التي تصم الأذان من شدة وقعها ومن هولها ذلك الميوم- تكون- المدولب- صاخة فى يوم- الجمعة شفقة ،- وهلعاً ،- فعن أبى هريرة ؓ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما على الأرض من دابة إلا وهى تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا ابن آدم (٢) .

٤ . الطامة : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣) .

والطامة هى الداهية التى تغلب ما سواها ، وتغضى كل شئ ، وللطامة ، الكبرى هى يوم القيامة .

٥ . الراجفة : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ [٦] تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ (٤)

والرجفة الاضطراب الشديد ، والزلزلة التى لا نظير لها .

ذهب الفراء إلى أن الراجفة هى النفخة الأولى ، والرادفة هى النفخة الثانية التى يحيى الله الخلائق بها (٥) .

وجاء فى الحديث عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : يا أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا

(١) سورة عبس الآيات من ٣٣ إلى ٣٧

(٢) سنن النسائى ذكر الساعة التى يستجاب فيها الدعاء ج٩٣

(٣) سورة النازعات الآية ٣٤

(٤) سورة النازعات الآيتان ٦ ، ٧

(٥) لسان العرب مادة (رجف) ج٩ ص١١٣

(٢٧٢)

الله ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه .

قال أبي : قلت يا رسول الله إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟

فقال ﷺ : ما شئت .

قلت : الربع ؟

قال ﷺ : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك .

قلت : النصف ؟

قال ﷺ : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك .

قلت : فالثلثين ؟

قال ﷺ : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك .

قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟

قال ﷺ : إذا تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك^(١) .

٦ . الواقعة : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾^(٢) .

يقول الإمام الشوكاني ، والواقعة هي النفخة الثانية^(٣) .

٧ . الحاقة : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أُدْرِكُ مَا

الْحَاقَّةُ ﴿٤﴾ .

ومعنى الحاقة أى إدعاء كل خصم أن الحق له ، وسميت القيامة بهذا

(١) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة ، باب ٢٣ ج ٤ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ . وقال حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الواقعة الآية ١

(٣) فتح القدير ج ٥ ص ١٤٧

(٤) سورة الحاقة الآيات من ١ إلى ٣

الاسم لظهور الحق والصواب في كل الأمور بلا جدل ، ولا صخب .

٨ . القارعة : ويدل على قوله تعالى ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَنكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ (١) .

والقارعة هي النازلة الشديدة ، وللمصيبة الكبيرة التي يصير الجبال فيها كالعهن المنفوش ، وللناس كالفراش- المبيثوث ، وعندها يكون الميزان ، والحساب .

٩ . الغاشية : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ (٢) .

وهي الداهية التي تغطي الناس بهولها ، وشدتها ، وعذابها .
يقول ابن حجر : الغاشية اسم ليوم القيامة (٣) .

١٠ . اليوم الآخر : ويدل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٤) .

ويراد به الوقت الدائم الذي يبدأ بالنفخ ويستمر حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وسمى بالآخر ، لأنه آخر الأوقات .
ومن أسماء اليوم الآخر : يوم الدين ، ويوم الفصل ، ويوم الحساب ،
واليوم الموعود ، ويوم الجمع ، ويوم التغابن ، ويوم التناد ، ويوم التلاق ، ويوم الأزفة ، ويوم الحسرة .

والقول بالاسم مأخوذ من الأدلة النقلية الثابتة .

(١) سورة القارعة الآيات من ١ إلى ٣

(٢) سورة الغاشية الآية ١

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٠٠

(٤) سورة التوبة الآية ١٨

.. ثانياً ..**الحكمة من تعدد أسماء اليوم الآخر
وكثرة ذكره**

تكرر ذكر يوم القيامة في مواضع متعددة في كتاب الله الكريم ، وبأسماء متنوعة ، وكل اسم له دلالته البالغة ، في بيان الحال التي سمي من أجلها ، وهذا من اكتمال الدين وعدل رب العالمين ، ومن تبصير عباده في هذه الحياة الدنيا ، وحضهم على عبادته ، والالتزام بأمره ، واجتناب نهيه ، وتعريفهم بما هم آيلون إليه وما سيكون من مشاهد ، وأحوال ، تذهل فيها المراضع ، ويشيب فيها الوليد ، وتضع الحوامل حملها ، وتحصل الحسرة والندامة ، ويعض المظالم على يديه ، ويفر المرء من أخيه ، وأمه ، وأبيه وصاحبته ، وبنيه ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم ينصرون . يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

ولقد تكرر ذكر هذا اليوم لأمر :

- ١ . أن الله تعانى هو الرب الخالق لهذا الكون . ومن فيه ، المتصرف . في ذلك حيث شاء ، ومتى شاء ، وإليه المرجع ، والمآب في يوم من الأيام للمجازاة على ما كان في الدنيا .
 - ٢ . توكيد تحقق وقوع ذلك اليوم للفصل بين العباد .
 - ٣ . تحذير العباد من سوء ذلك اليوم للاستعداد له بالأعمال الصالحة .
 - ٤ . بيان مشاهد ذلك اليوم وما سيكون فيه من أهوال .
- ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه ، كما روى عن الإمام على عليه السلام :
كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى .
ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات فإن لكل اسم دلالة على معنى

خاص به ، فالواقعة : لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، وللطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾^(١) مثل ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٢) ... وهكذا .

وقال القرطبي : كل ما عظم شأنه تعددت صفاته ، وكثرت أسماؤه . وهذا فى جميع كلام العرب ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم جمعوا له خمسمائة اسم .

ولذلك فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى فى كتابة بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة .

ومما هو معلوم أن المتكرر قد يكون بتكرار الاسم فى آية ولحده كقوله تعالى ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ﴾ .

وقد يكون بتكرار الاسم الواحد فى آيات ، وسور- كثيرة كتكرار يوم القيامة.

وقد يكون بتكرار مسميات كثيرة تدور حول يوم القيامة لأداء الغرض المقصود وهو ما أشرت إليه .

قال الزركشى : وقد ينزل الشئ مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه .

(١) سورة النجم الآية ٥٧

(٢) سورة القمر الآية ١

.. ثالثاً ..

علامات الساعة

أجمع العلماء على أن الساعة تسبق بعلامات تدل عليها ، وتلك حكمة من الله تعالى ينبه بها عباده ليأخذوا حذرهم يقول الله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ط فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ (١) .

لقد أخفى الله سبحانه وتعالى زمن قيام الساعة عن الخلق ، فلا أحد يعلم ذلك إلا الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ط وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ط وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ط إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ط قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ط ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ط يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ط قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَسَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ولكن الله عز وجل أبان لنا علاماتها ليستعد الناس ، ويحذروا هول ذلك اليوم ، وما بعده ، وهذه العلامات منها الصغرى ، ومنها الكبرى .

(١) سورة محمد الآية ١٨

(٢) سورة لقمان الآية ٣٤

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٧

قال السفاريني : ثم اعلم أن أشرطة الساعة ، وأماراتها ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

قسم ظهر وانقضى ، وهي الأمارات البعيدة .

وقسم آخر ظهر ولم ينقض ، بل لا يزال في زيادته وتنوعه . وهي العلامات الصغرى .

والقسم الثالث :- وهي الأمارات الكبيرة التي تعقبها الساعة ، وتأتي متتابعة كنظام خرزات انقطع سلكها .

فالأولى التي ظهرت ومضت ، وانقضت عديدة :

منها بعثة النبي ﷺ ، وموته ، وفتح بين المقدس .

ومنها قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ ... إلخ .

والثانية : الأمارات المتوسطة وهي التي ظهرت ، ولم تنقض ، بل تتزايد وتكثر وهي كثيرة جداً .

والثالثة : العلامات العظام ، والأشراط الجسام التي تعقبها الساعة .

ونظراً لأن القسم الأول انقضى ولنتهى ولم يعد باقياً إلا القسم الثانى ،

والثالث ، وهما يعرفان بالعلامات الصغرى ، ويراد بها القسم الثانى ، والعلامات

الكبرى ويراد به القسم الثالث .

وعلى هذا فالعلامات التي لم تنقض تنقسم إلى صغرى ، وكبرى .

أما الصغرى : فهي كثيرة ، وردت الأحاديث مبينة لها ، وقد وقع كثير

منها ، وهي تظهر قبل الساعة بوقت طويل ، ومن المعلوم أن وقت الساعة

قريب ، يقول الله تعالى ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

ويقول الله تعالى ﴿ أَقْتَرَبَ السَّاعَةُ وَأَدْشَقَ الْقَمَرُ ﴾^(١) .

ويقول تعالى ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾^(٢) .

ويقول تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾^(٣) .

وسوف اکتفی بإيراد أهمها لوضوح دلالتها على معناها :

. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أشرط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ، ويفشوا الزنا ، ويشرب الخمر ، ويكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد " ^(٤) .

. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . " لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج (القتل) حتى يكون فيكم المال فيفيض " ^(٥) .

. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن صحابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة .

قال الرجل : وكيف إضاعتها ؟

قال صلى الله عليه وسلم : إذا اسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة ^(٦) .

(١) سورة القمر الآية ١

(٢) سورة الأنبياء الآية ١

(٣) سورة الشورى الآية ١٧

(٤) صحيح مسلم ، كتاب أشرطة الساعة ج ١٨ ص ٩٣

(٥) سنن الترمذى باب ما جاء فى الهرج ج ٤ ص ٤٨٩

(٦) صحيح البخارى كتاب العلم ، باب من سئل علما وهو مشغول بحديث ج ١ ص ١٥

- . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : منعت العراق درهمها وقفيظها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأت ، وعدتم من حيث بدأت ، وعدتم من حيث بدأت ^(١) .
- . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ واليهودى من وراء الحجر ، والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ^(٢) .
- . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حيث يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ^(٣) .
- . عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ^(٤) .
- . يقول النبي ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى أصبعيه السبابة ، والوسطى ، وقرن بينهما ^(٥) .
- تلك أهم العلامات الصغرى للساعة ، وتتميز بأنها تأتي متفرقة بين الواحدة والأخرى زمن طويل ، ولذلك نجد أن بعضها قد وقع ، وبعضها لم يقع بعد . هذا بالنسبة للعلامات الصغرى .
- أما العلامات الكبرى للساعة :**
- فإنها تأتي متتابعة تظهر الواحدة تلو الأخرى يقول النبي ﷺ : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ج ١٨ ص ٢٠

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ج ١٨ ص ٤٥

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن ، ج ١٨ ص ٤٦

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ج ١٨ ص ٨٨

(٥) صحيح مسلم بشرح التوى كتاب الفتن باب قرب الساعة ج ١٨ ص ٨٩

خيراً ، طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض" (١).

ولذلك قضى الله تعالى بأن هذه العلامات. إذا. ظهر ولحد منها أغلق باب التوبة ، لأن هذه العلاقات إيدان بقرب قيام الساعة ، فأشبهت توبة من يتوب بعد ظهورها كتوبة من يأتيه الموت. ، يقول الله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (٢).

وتلك قضية عدل. لأن. الآيات. الكبرى. تظهر قبيل قيام الساعة مباشرة ، وحينذاك يكون الجزاء على ما قام به المكلف قبل أن يأتيه أجله ، وكان من العدل أن لا تنفع توبة إنسان لم يتب من قبل .

وأهم العلامات الكبرى للساعة ما يلي :

١. الدخان :

أول آيات الساعة الكبرى إتيان السماء بدخان يغشى الناس يقول الله تعالى ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣).

يقول على بن أبي طالب : آية الدخان لم تمض بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وينفخ الكافر حتى ينفد ، ويؤيد كون آية الدخان. لم تمض ما أخرجه مسلم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد قال. :. كان النبي ﷺ في غرفة ، ونحن أسفل منه فاطلع إلينا فقال ما تذكرون ؟

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا تقبل فيه التوبة ج٤ ص١٩٥

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٨

(٣) سورة الدخان الآيتان ١٠ ، ١١

قلنا : الساعة .

قال ﷺ : إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات خسف بالمشرق ،
وخسف بالمغرب ، وخسف فى جزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة
الأرض ، ويأجوج مأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعره
عدن ترحل الناس ، والعاشرة نزول عيسى بن مريم ﷺ^(١) .

٢. طلوع الشمس من المغرب :

وهى من أول الآيات الكبرى الدالة على نهاية الحياة الدنيا ، وقرب قيام
الساعة يروى أبو هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال " لا تقوم الساعة حتى تطلع
الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع
نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسب فى إيمانها خيراً " ^(٢) .
وهذه الآية تحدث يوماً ولحداً فتطلع الشمس من المغرب ، وتغرب فى
المشرق ثم تعود لحالتها الطبيعية .

٣. خروج الدابة :

تخرج هذه الدابة فى آخر الزمان من مكة ، أو من غيرها يتطايير خيبرها
بين العالم بما تظهره من عجائب العلم ، وخوارق العادات لأنها تخاطب الناس ،
وتخبرهم بأحوالهم النفسية ، وتبين لهم حقيقة ما هم عليه من إيمان .
ويبدو أن خروج الدابة يكون فى يوم طلوع الشمس من المغرب ، ولا توبة
بعد خروج الدابة يقول ﷺ : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت
من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً وهى : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال
، ودابة الأرض ^(٣) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب أشراف الساعة ج ١٨ ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب ج ٢ ص ١٩٤

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ج ١٨ ص ٨٨

يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِعَآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾^(١) .

٤. خروج المسيح الدجال :

والمسيح . بالحاء . رجل دجال يجوب الأرض كلها فى أربعين يوماً ، وسمى بالمسيح لأنه يمسح الأرض كلها ، ويقطعها فى هذه المدّة القصيرة ، ولأنه ممسوح العين اليمنى ، وهو لا يسير فى الأرض صامتاً ، وإنما يحاول إضلال الناس ، وفتنتهم .

يقول أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا قال : يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة (طرقها) فينتهى إلى بعض السباخ (الأرض الملحة) التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل ، هو خير الناس ، أو من خير الناس ، فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه .

فيقول الدجال : رأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الأمر ؟
فيقولون : لا ...

فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحييه : والله ما كنت فىك قط أشد بصرأ منى الآن فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه^(٢) .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراى الناس فقال: إن الله تعالى ليس بأعور ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية^(٣) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبى إلا وقد أنذر أمته

(١) سورة النمل الآية ٨٢

(٢) صحيح مسلم باب ذكر الدجال ج٥ ص٧٩٢

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ج١٨ ص٥٩

الأعور الكذاب ألا أنه أعور، وإن ريكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه (ك) ف ر) (١) أى كافر .

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدجال أعور العين اليسرى جفال الشعر معه جنة ، ونار ، فاناره جنة ، وجنته نار " (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : وإن معه نهرين يجريان ، أحدهما رأى العين ماء أبيض ، والآخر رأى العين نار تتأجج ، فما أدركهن أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم ليطأطأ رأسه فيشرب منه ، فإنه ماء بارد ، وأن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب، وغير كاتب (٣) .

وهكذا. الدجال. رجل مفسد فى الأرض. يسبح فى جنباتها بسرعة . ويفتن الناس بما يظهر على يديه كأنزال المطر ، وإنبات الزرع ، وإخراج الكنوز. حتى أن. الأمر يصل به وياتباعه إلى محاولة رمى السماء بالسهام قتالا. لله ، ويستمرون على فتنهم حتى ينزل المسيح عليه السلام .

٥. نزول المسيح عيسى عليه السلام :

دل القرآن الكريم .، ودلت السنة النبوية على أن. سيدنا عيسى عليه السلام ينزل قرب الساعة .، ويقتل الدجال. ، ويحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .، ويمكث فى الأرض. ما شاء الله أن. يمكث ثم يموت. ويصلى عليه المسلمون .، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَرِيدًا ﴾ (٤) .

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ج ١٨ ص ٥٩

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ج ١٨ ص ٦١

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ج ١٨ ص ٦١

(٤) سورة النساء الآية ١٥٩

فمن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزلن ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقبض المال حتى لا يقبله ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا ، وما فيها ، ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ^(١) ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ ^(٢) .

ويقول سبحانه ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَّزُنَّهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ^(٣) .

والآيتان تتحدثان عن نزول عيسى عليه السلام علامة على الساعة فيؤمن به أهل الكتاب جميعاً .

وعن عروة بن مسعود الثقفي قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين : لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً ، فبيعت الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يحكم الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ^(٤) . ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبيل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير ، أو إيمان ، إلا قبضته ، حتى ولو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه ، حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس في جوف الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟

فيقولون : فما تأمرنا ؟

(١) مسند الإمام أحمد

(٢) سورة النساء الآية ١٥٩

(٣) سورة الزخرف الآية ٦١

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ج ١٨ ص ٨٠

فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دار رزقهم وحسن عيشتهم ، ثم ينفخ فى الصور فيصعق الناس ، ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل فتبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون .

ثم يقال : أخرجوا بعث النار .

فيقال : من كم ؟

فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين .

قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق^(١) .

٦. يأجوج ومأجوج :

من علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج ، وخروجهم ثابت بالكتاب والسنة ، يقول الله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ

كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾^(٢) .

ويأجوج من نسل آدم عليه السلام يخرجون من مكانهم لنشر الفساد فى الأرض، يأتون الناس من كل مرتفع ، فيملأون الأرض كلها ، وقد وردت أحاديث كثيرة تتحدث عنهم .

فعن عبد الرحمن بن جبير بن نقيير الحضرمى عن أبيه أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى يقول : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل .

فلما رجعنا إليه عرف ذلك فى وجوهنا ، فسألناه ، فقلنا يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة ، فخفضت فيه ورفعت .

(١) صحيح مسلم كتاب علامة الساعة ، باب ذكر الدجال ج ١٨ ص ٧٥ ، ٧٧

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٦

(٢٨٦)

فقال ﷺ : غير الدجال. أخوفنى عليكم ، فإن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، وأنه شاب جعد قَطَطَ عينه عنبة طافية ، وأنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وشمالاً .
يا عباد الله اثبتوا .

قلنا : يا رسول الله ما لبثه فى الأرض ؟

قال ﷺ : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يا رسول الله : فذلك اليوم كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم ، وليلة ؟
قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله فما إسراعه فى الأرض ؟

قال كالغيث استدبرته الريح فيمر بالحي ، فيدعوهم ، فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم ، وهى أطول ما كانت ذرى ، وأمدته خواصر ، وأسبغه ضروعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم ، فيردون. عليه قوله ، فتتبعه أموالهم ، فيصبحون محللين ليس لهم من أموالهم شئ ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك فتتبعه الكنوز كيعاسيب النحل .

قال ﷺ : . ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعو فيقبل إليه .

فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى بن مريم ، فينزل عند المغارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرتين ، واضعاً يديه على أجنحة ملكين فيتبعه فيدركه ، فيقتله عند باب ألد الشرقى .

فبينما هم كذلك إذا أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم ﷺ أنى قد

أخرجت عبادة من عبادة لا يدان لك بقتالهم ، فَخَوَّزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ فَبِيعَتْ
الله عز وجل يأجوج ، ومأجوج وهم كما قال الله تعالى ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ
يَنسَلُونَ ﴾^(١) .

فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله عليهم نغفاً في
رقابهم ، فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة .

فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأ زهمهم
وننتهم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم طيراً
كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

يقول جابر روى الحديث : فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب
أو غيره ، قال فتطرحهم بالمهيل :

قال جابر : فقلت يا أبا يزيد : وأين المهيل ؟

قال : مطلع الشمس .

ويرسل الله مطراً لا يكون منه مدر ولا وير أربعين يوماً ، فيغسل الأرض
حتى يتركها كالزلفة ، ويقال للأرض أنبتى ثمرك ، ودرى بركتك : فيومئذ يأكل
النفر من الرمانه فيستنظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من
الأبل لتكفي الفنام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ والشاة من الغنم
تكفي أهل البيت .

فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت
آباطهم فتقبض روح كل مسلم . أو قال مؤمن . ويبقى شرار الناس يتهارجون
تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة^(٢) .

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٦

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ج ١٨ ص ٦٣ . ٧٠

(٢٨٨)

وخرج يأجوج ليس بعيداً ، يقول رسول الله ﷺ : ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها .

فقال زينب بنت جحش رضى الله عنها : أنهلك وفينا الصالحون .
قال ﷺ : نعم إذا كثر الخبث (١) .

(١) صحيح البخارى ، كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ ويل للعرب ج ١١ ص ١٠ ط .. الأوقاف

مشتملات اليوم الآخر

يشتمل اليوم الآخر على أمور كثيرة المذكور. منها ههنا عشرة ، ولليك

بياناها بإجمالى :

١. النفخ فى الصور :

يقول الله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والشعبى ، وزيد بن أسلم ، وللحسن ، وقتادة والضحاك ، والربيع بن أنس والسدى ، ولبن زيد ﴿ الناقور ﴾ هو الصور. وهو القرن الذى ينفخ فيه عند بعث الموتى إلى المحشر ، القرن هو البوق يتخذ من القرون ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للإنشاء .
والصور ثابت فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

قال الله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢) وهنا يبين الله تعالى أن النفخة الأولى تؤدى إلى الصعق ثم الموت ، وتؤدى النفخة الثانية إلى القيام .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الصور قال : " قرن ينفخ فيه " .

والمشهور عند العلماء أن النافخ فى الصور هو إسرافيل عليه السلام

٢. البعث :

وهو إحياء الله الموتى فى قبورهم ليلقى كل منهم جزاءه الذى قدر له من

(١) سورة المدثر الآيتان ٨ ، ٩

(٢) سورة الزمر الآية ٦٨

نعيم أو عذاب ويقع ذلك بعد النفخة الثانية قال تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

وعن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال " إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه " .
وقد رد القرآن الكريم على منكرى البعث بإيجاز ، ودقة .

فعرّفهم بأن من خلق أولاً قادر على الإعادة فقال تعالى ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ﴿١٦﴾ أَوْ لَا يَذَّكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (٣) ويقول سبحانه وتعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿١٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

وعرّفهم بأن من يحيى الأرض بعد موتها قادر على إعادة خلق الإنسان يقول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

(١) سورة المؤمنون الآيتان ١٥ ، ١٦ ،

(٢) سورة المجادلة الآية ٦

(٣) سورة مريم الآيتان ٦٦ ، ٦٧ ،

(٤) سورة العنكبوت الآيتان ١٩ ، ٢٠ ،

الْتَمَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

ويقوله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا فَسُقِنَهُ إِلَى بَلَدٍ

مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿٢﴾ .

وعرفهم بكمال قدرته في الخلق والإيجاد فلقد قالوا ما حكام الله تعالى ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِيتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۗ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ﴿٣﴾ فرد عليهم بقوله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿١٨﴾ ۗ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿١٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٢٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٢٣﴾ ۗ أَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٢٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٢٨﴾ ۗ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٢٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٣١﴾ ۗ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٣٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَتْنَاهَا لِلْمُقْوِينَ ﴿٣٣﴾ ﴿٤﴾

ووضح لهم سبحانه عظيم قدرته في الأشياء كلها ليتيقنوا من البعث فقال

تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۗ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) سورة الواقعة الآيتان ٤٧ ، ٤٨

(٤) سورة الواقعة الآيات من ٥٧ إلى ٧٣

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ ۚ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٩﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠﴾ .

٣. الحشر :

وهو سوق الناس إلى مكان الحساب الذي يجتمع فيه الخلائق ، وفيه يحاسبون ، وتوزن أعمالهم ، ويعرف كل مصيره ، ويسمى هذا المكان بأرض المحشر .

قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : " يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة ، عراة ، غرلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ۚ وَعَدَّا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَعْلِيلِينَ ﴾ (٣) ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال .

(١) سورة النساء الآية ٨٧

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٣

(٣) سورة الكهف الآية ٤٧

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٤

فأقول : يا رب أصحابي .

فيقول الله تعالى : إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك .

فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ ۗ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٨﴾ ۝ (١) .

فيقال لى : إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

فأقول : سحقاً سحقاً (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يحشرون الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف، صنف مشاة ، وصنف ركبان. ، وصنف على وجوههم ، قيل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟

قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حذب ، وشوك (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلم فرفع إليه الذراع فأكله ، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الناس الأولين ، والآخريين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، منهم فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون (٤) .

(١) سورة المائدة الآية ١١٧

(٢) صحيح مسلم باب بيان الحشر يوم القيامة ج١٧ ص١٩٤

(٣) سنن الترمذى كتاب تفسير القرآن .

(٤) صحيح البخارى كتاب التفسير باب سورة بنى إسرائيل .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: .. يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ، ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ، إنهم لا يستطيعون في الأرض هرباً ، ولا يجدون من القول جدلاً ، استسلموا لما في الدنيا قد وعدوا وما في ساعتهم قد وجدوا^(١) ﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴾^(٢) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أى لا يستطيعون هرباً من أمر الله ، وقدره بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف ، من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴾ أى بأمر الله ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْكُفْرُ ﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾^(٣) .

وعن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل .
يقول المقداد : فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذى تكتحل به العين ؟ ... فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إجماماً .

(١) معارج الوصول بشرح سلم الوصول ج١ ص٢٦

(٢) سورة الرحمن الآية ٣٣

(٣) سورة القيامة الآيات من ١٠ إلى ١٢

(٢٩٥)

قال وقد أشار رسول الله ﷺ إلى فيه^(١) .

وليس المراد أن أهل الحشر يقعون جميعاً فى العرق ، ويلجمهم ذلك ، بل كل على قدر عمله فى الدنيا .

وهناك من لم يقع له شئ ، ولم يتأثر بشئ من حرارة الشمس ، لحفظ الله تعالى له بسبب منهجه الحسن فى دنياه .

عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه^(٢) .

فهؤلاء ـ أصناف سبعة من الناس ـ يقيهم الله تعالى شر ذلك اليوم العظيم وأهواله لأنـ من تعامل مع الله بإيمان ـ ، وتاجر معه بالأعمال الصالحة ، والقربات الصادقة فأمنه سبحانه وتعالى فى ذلك الموقف ، فالمؤمنون يخفف الله عليهم ذلك الموقف ويتمتعون بظل عرش الله تعالى حساباً يسيراً .

٤. الحساب :

وهو توقيف الله سبحانه وتعالى عبادة قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم أفعالاً ، وأفعالاً ، ولعقوبات خيراً أو شراً ، تفصيلاً بعد أخذهم كتبهم ووزن أعمالهم إلا من استثنى منهم^(٣) ، وكيفية الحساب أمر غيبى لم يرد ما يدل عليه .

(١) رواه مسلم فى صحيحة كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج١٨ ص ٨٩

(٢) صحيح البخارى كتاب الصلاة ، باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة ج٢

ص ٣١

(٣) لوامع الأنوار الإلهية ج٢ ص ١٧١

والناس فيه متفاوتون .

فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً ، بأن يعرض عمله عليه فيطلع الله على سيئاته سر ، بحيث لا يطلع عليها أحد ، ثم يعفو عنه ، ويأمر به إلى الجنة . ومنهم من يناقش الحساب ، بأن يسأل عن كل جزئية . ويطالب بالعدر والحجة ، فلا يجد عذراً ، ولا حجة فيهلك مع الهالكين ، ويفتضح بين الخلائق . قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٤﴾ .

وعن عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من نوقش الحساب عذب " فقلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ؟

فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك (٣) .

وعن أبي برزة الأسلمي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن عمره فيم أفناه ؟

وعن علمه فيم فعل ؟

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

(١) سورة الإنشقاق الآيات من ٧ إلى ١٢

(٢) سورة الغاشية الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٣) سنن الترمذی ، باب ما جاء في العرض جء صد ٦١٨

وعن جسمه فيما أبلاه^(١) ؟

هذا واعلم أنه سيشهد على العاصي يوم القيامة أحد عشر شاهداً .: اللسان والأيدى ، والأرجل ، والسمع ، والبصر ، والجلد ، والأرض ، والليل ، والنهار . ، والحفظة الكرام ، والمال ، فضلاً عن الشهداء من الناس ، والملائكة ، والنبى ﷺ .

قال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾^(٣) .

وعن أبى هريرة ؓ قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾^(٤)

فقال : أتدرى ما أخبارها ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمه بما عمل على ظهرها ، و تقول : عمل كذا ، وكذا يوم كذا ، وكذا قال : فهذه أخبارها^(٥) .

وعن أنس ؓ كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : هل تدرون . مم أضحك؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : من مخاطبة العبد ربه فيقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟

يقول الله تعالى : بلى .

(١) سنن الترمذى كتاب صفة الصلاة ، باب فى القيامة ج٤ ص٦١٢ وقال حديث صحيح .

(٢) سورة فصلت الآية ٢٠

(٣) سورة ق الآية ٢١

(٤) سورة الزلزلة الآية ٤

(٥) سنن الترمذى ، كتاب التفسير ج٥ ص٤٨ وهو حديث حسن صحيح

فيقول العبد : إني لا أجد اليوم على نفسي شاهداً إلا مني .
 فيقول الله : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبون شهود
 فيختم على فيه ، . ويقول لأركانها : انطقي فتنطق بأعماله ، . ثم يخلى بينه
 وبين الكلام فيقول : بعداً لكن ، وسحقاً ، فعنك كنت أناضل " (١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا المال خضرة حلوة
 ونعم هو لمن أعطى منه المسكين ، واليتيم ، وابن السبيل ، وإنه من يأخذه
 بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة (٢) .
 ويبدأ الحساب بإضاءة الأرض عند مجئ الرب سبحانه وتعالى ، والشهداء ،
 ، وحضور النبيين يقول الله تعالى ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ
 وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) وَوُفِّيتَ
 كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿ (٣) .

ويتم الحساب بعدل دقيق ، وكرم عظيم ، يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٤) .
 وتعرض كافة الأعمال جلها ودقيقها ، وظاهرها ، وخفيها يقول الله تعالى
 ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ
 تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، والرفائق ج ١٨ ص ١٠٥

(٢) مسند أحمد باب مسند المكثرين .

(٣) سورة الزمر الآيتان ٦٩ ، ٧٠ ،

(٤) سورة النساء الآية ٤٠

وفى وقت الحساب لا يستطيع الإنسان الجدل ، والمراء ، يقول الله تعالى :
 ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
 مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٢) .

ولا يتكلم أحد إلا بإذن الله يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (٣) .

وأول من يحاسب من الأمم أمة محمد ﷺ لأفضليتها فى الدنيا ، وبعدهم
 يحاسب الخلق أجمعون .

٥. صحائف الأعمال :

وهى الكتب التى كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد فى الدنيا من اعتقادات
 ، وأقوال ، وأفعال ، وهى ثابتة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع فمنكرها كافر ، وقد
 سبقت الأدلة العديد على ذلك فى الحساب ، وغيره .
 وهذه الصحف لا يأخذها الأنبياء ، وللملائكة ، ومن يدخلون الجنة بغير
 حساب ، لأنهم لا يحاسبون .

٦. الميزان :

وهو نو كفتين ولسان على كيفية لا يعلمها إلا الله تعالى توزن فيه أعمال
 العباد. بقدرة الله تعالى دفعة ولحده ، وللصنح مئاقيل المذر. وللخردل ، تحقيقاً
 لإظهار تمام العدل ، والميزان. ليس ولحداً ، بل هو عدد. كثير على الأرجح ،
 يقول الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۗ

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

(٣) سورة هود الآية ١٠٥

(٣٠٠)

وَأَنَّ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا^١ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١﴾ ،
ويذهب ابن كثير إلى أنه ميزان. ولحد ، ووروده بصيغة الجمع لتعدد الأعمال
التي توزن .

وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٧﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاٰضِيَةٍ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاٰكَ مَا هِيَ ﴿٩﴾ نَارٌ
حَامِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴿٢﴾ .

وعن الحسن عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت النار فبكت فقال
رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟

قالت : ذكرت النار فبكيك ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟

فقال رسول الله ﷺ :. أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً ، عند
الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرعوا
كتابه " وحتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه ، أم فى شماله ، أم من وراء
ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جنهم حتى يجوز^(٣) .

وعن ابن عمرو بن المعاص. ﷺ أن النبي ﷺ قال :. إن الله عز وجل
يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة
وتسعين سجلاً ، محل كل سجل مد البصر فيقول : أنتكر من هذا شيئاً ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول : أظلمك كتبتي الحافظون ؟

فيقول : لا يارب .

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧

(٢) سورة القارعة الآيات من ٦ إلى ١١

(٣) سنن أبي داود

(٣٠١)

فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول الله عز وجل : بلى إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم
فيخرج بطاقة له فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله .

فيقول الله له : احضر وزنك .

فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟

فيقول الله : إنك لن تظلم فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة
فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شئ^(١) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ،
ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله ، وبحمده ، سبحان
الله العظيم^(٢) .

ومما تقدم نعلم أنه يوزن. عمل كل من يحاسب حتى من لا حسنة له :
ليزداد خوفاً على رؤوس الأشهاد . وبالوزن. يظهر العدل. فى العذاب . وللعفو
عن الآثام كما يظهر الفضل عند النعيم ، والفوز .

٧. الصراط :

وهو جسر ممدود. على ظهر جهنم . يمر عليه الأولون. والآخرون . كل
بحسب عمله ، فمنهم من يمر كالمح البصر . ومنهم من يمر كالبرق . . ومنهم
من يمر كالريح العاصف ، وناس كالجواد ، وناس هرولة ، وناس حبواً ، وناس
زحفاً ، وناس يتساقطون فى النار ، وعلى جوانبه كلاب ، لا يعلم
عددها إلا الله ، تخطف بعض الخلائق (والكلاليب مثل الخطاطيف) .

(١) سنن الترمذى ، كتاب الإيمان .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الدعوات .

(٣٠٢)

قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧) ثُمَّ
نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (١).

وعن ابن مسعود: الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة
الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود
البهائم ، ثم يمرون ، والملائكة ، يقولون اللهم سلم سلم (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسول الله ﷺ ما الجسر ؟

قال ﷺ : دحض مزلة فيه خطاطيف ، وكلايب ، وحسك ، تكون بنجد
فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ،
وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، فجاج مسلم ، ومخدوش مرسل ،
ومكدوس في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسى
بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله
يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ،
ويصلون ، ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ،
فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه ، وإلى ركبتيه .

ثم يقولون : ربنا ، ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به .

فيقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار. من خير فأخرجوه

فيخرجون خلقاً كثيراً .

ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا .

ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة نصف دينار من خير

فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً .

(١) سورة مريم الآية ٧١

(٢) مسند أحمد

(٣٠٣)

ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً^(١) .

قال أبو سعيد : بلغنى أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف .

٨. الحوض :

يجب الإيمان بأن لكل رسول حوضاً يردّه الطائعون من أمته لقوله ﷺ إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون بهم ، أكثرهم واردة ، وإنى أرجو أن أكون أكثرهم واردة^(٢) .

وحوض النبي ﷺ : أكبرها ، وأعظمها ، طوله مسيره شهر ، مربع الشكل له ميزابان- يصبان فيه من الكوثر ، ـ ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، ـ ولحلى من العسل ، وكيزانه أكثر من نجوم السماء ، ـ من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ، ولو دخل النار من شرب منه يعذب بغير العطش ، يردّه الأخيار . وهم المؤمنون بالنبي ﷺ الآخذون بسنته ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، ويتردد عنه المكفار ، ـ وللمبتدعة فى العقيدة ، ـ وكل من تعامل بالربا ، ـ أو جار فى الأحكام ، أو أعان ظالماً ، أو جاوز حداً من حدود الله ، ـ وهو ثابت بأحاديث مشهورة تفيد المتواتر المعنوى ، ـ منها حديث ابن عمرو- أن النبي ﷺ قال : حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منه فلا يظمأ أبداً^(٣) .

وحديث ثوبان أن النبي ﷺ قال : إنى ليعقر حوضى ، أذود الناس عنه

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد

(٢) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة ج٤ ص٦٢٨

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الرقائق .

لأهل اليمن ، أضرِب بعصاى حتى يرفض عليهم ، فسئل عن عرضه فقال :
من مقامى إلى عمان ، وسئل عن شرايه فقال : أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى
من العسل يفت فيه ميزانان يمدانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من
ورق (١) .

وعن أنس ؓ قال : بينا رسول الله ﷺ فى المسجد إذ أغفى إغفاءه ثم
رفع رأسه ضاحكاً فقيل : ما أضحكك يا رسول الله ؟

قال ﷺ : نزلت على سورة أنفاً فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إِنَّا
أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (٢) فقال : أتدرون ما الكوثر ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : إنه نهر ، وعدنية ربي عز وجل ، عليه خير كثير ، وهو
حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته بعدد نجوم السماء ، فيختلج العبد
منهم فأقول : ربي أنه من أمتى فيقول : ما تدرى ما أحدث بعدك (٣) .

٩. الشفاعة :

وهى لغة الوسيلة وللطلب ، وعرفاً سؤال الخير للغير ، وهى تكون من
الأنبياء والعلماء العاملين ، والشهداء ، والصالحين .

فعن عثمان بن عفان ؓ أن النبي ﷺ قال : يشفع يوم القيامة ثلاثة :
الأنبياء ثم العلماء ، ثم الشهداء (٤) .

يشفع كل لأهل الكبائر على قدر منزلته عند الله تعالى ، وللنبي محمد ﷺ
أول من يفتح باب الشفاعة حين يشفع فى القضاء ، وهى الشفاعة العظمى

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والبخارى ، وفيه حتى يرفضوا عنه (أى ينصرفوا)

(٢) سورة الكوثر الآية ١

(٣) سبق تخريجه

(٤) سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد .

(٣٠٥)

المختصة به ، والتي يغطيه عليها الأولون ، والآخرون ، وهي المقام المحمود المذكور فى قوله تعالى ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (١) .

فعن أبى هريرة ؓ قال : .: سئل النبى ﷺ عن المقام المحمود فى الآية فقال : هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى (٢) .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم (٣) .

وعن جابر ؓ عن النبى ﷺ قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى (٤) .
وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع (٥) .

١٠. الجنة :

هى دار. المؤمنين المطيعين ، المستقيمين على الحق ، وقد أعدها الله لعباده المخلصين لتكون مقر سعادتهم ، ومأواهم الجميل فى الحياة الآخرة بعد انتهاء الحساب وتحديد مصائر الخلق .

وقد جاءت آيات عديدة ، وأحاديث كثيرة تتحدث عن الجنة ، وتفصل فيما يحدث فيها ، وتصورها بصورة تقرب حقيقتها للمكلفين .

يقول ابن القيم : ولما علم المؤمنون ما خلقوا له ، وما أريد بإيجادهم ،

(١) سورة الإسراء الآية ٧٩

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والبيهقى فى الدلائل .

(٣) صحيح البخارى كتاب الزكاة

(٤) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة باب فى الشفاعة ج٤ ص٦٢

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب فضل سيدنا محمد ﷺ ج١٥ ص٣٧

(٣٠٦)

رفعوا رءوسهم ، فاذا علم الجنة قد رفع لهم ، فشمروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبن بيع مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول ، ولا ينفد بصباية عيش ، إنما هو كأضغاث أحلام ، وكطيف زار في المنام ، مشوب بالنعص ، ممزوج بالنعص ، إن أضحك قليلاً أبكى كثيراً ، وإن سر يوماً أحن شهرراً .
آلامه تزيد على لذاته ، وأحزانه أضعاف مسراته ، أوله مخاوف وآخره متالف فيا عجباً من سفيه في صورة حلیم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، أثر الحظ الفانى الخسيس على الحظ الباقي ، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بسجن ضيق ، بين أرياب العاهات ، وللبليات ، ومساكن طيبة في جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، بأعطان ضيقة آخرها الخراب ، وللبوار ، وأبكاراً عرباً أتراباً ، كأنهن الياقوت ، والمرجان بقدرات ، دنسات ، سيئات الأخلاق ، مسافحات أو متخذات أخدان ، وهوراً مقصورات في الخيام بخبيثات مسييات . بين الأنام ، ولأنهاراً من خمر لذة للشاربين ، بشراب بخس ، مذهب للعقل ، مفسد للدنيا والدين ، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدميم ، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع ، المعازف والغناء ، والألحان ، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت ، والزيجد يوم المزيد ، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مرید ونداء المنادى يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا ، وتحياوا فلا تموتوا
وتقيموا فلا تطعنوا ، وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين^(١) .

والجنة واسعة لأصحابها : يقول الله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

(١) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٩

(٣٠٧)

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ ، وإن كان هذا عرضها فما بالك بطولها ؟

وللجنة ثمانية أبواب ، وعند كل باب توجد شجرة عظيمة ينبع من جذورها عينان تجريان أحدهما لشراب الداخلين ، والأخرى لتطهيرهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَسَقَبَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢) ، ويقول النبي ﷺ : وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان. فإذا شربوا. من إحداها جرت. في وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً (٣) .

والداخلون في الجنة يأتون إليها زمراً متتابعين ، يستقبلهم الملك "رضوان" خازن الجنة ، ومعه الملائكة الموكلون بالنعيم ولالإسعاد. وهم يبشرون. بالسلام الدائم ، والخير المطلق .

يقول الله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٤) .

ويقول تعالى ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمْ أَلْمَلَكَةُ هَذَا يَوْمَئِذٍ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٥) .

وللجنة أسماء عديدة أشهرها، الجنة، ودار. السلام، ودار. الخلد، ودار. المقامة وجنة المأوى ، وجنة عدن ، ودار الحيوان ، والفردوس ، والمقام الأمين .

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٣

(٢) سورة الإنسان الآية ٢١

(٣) الترغيب ، والترهيب ج٤ ص٤٩٤

(٤) سورة الزمر الآية ٧٣

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٣

فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿١٠٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٧﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانِ ﴿١٠٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٩﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿١١٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١١١﴾ فِيهَا مِنْ قَصِيرَاتِ الْفُرُوفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿١١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١١٣﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١١٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١١٥﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَنَيمٍ ﴿١٠٦﴾ فَيَكْبَهُنَّ بِمَا آتَاهُنَّ رَبُّهُنَّ وَيُوقَهُنَّ مِنْهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٠٧﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠٩﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آخِذِينَ بِمِيزَاتِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿١١٠﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١١١﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَغُوفٍ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ شَرٌّ مِمَّا يُكْتَبُونَ ﴿١١٢﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعْدَانٌ عِزْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُوكُمْ مَكْنُونٌ ﴿١١٣﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١١٥﴾ فَمَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿١١٦﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٠٦﴾ مُتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٠٧﴾ وَذَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٠٨﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِذَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٠٩﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا

(١) سورة الرحمن الآيات من ٤٦ إلى ٦٠

(٢) سورة الطور الآيات من ١٧ إلى ٢٨

تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيًّا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَدْتُهُمْ رُبُّمَ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٢) .

١١. النار :

النار مأوى العصاة ، والكافرين ، وبعد المحشر تبرز النار ، وتظهر للناس ، وبخاصة للعاوين المضالين . وتبقى على بروزها حتى يأتي إليها مستحقوها المعذبون .

وتنقسم النار إلى دركات متعددة بعدد منازلها السبع التي ذكرها القرآن الكريم وهي (جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير ، وسقر ، والجحيم ، والهوية) والمستحقون للنار يأتون إليها أفواجاً أفواجاً ، وحين يقتربون منها تخرج منها عنق تجذبهم إليها ، وتلتهمهم .

يقول النبي ﷺ : تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بثلاثة ، بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين ، وتساق تلك الزمر إلى جهنم

(١) سورة الإنسان الآيات من ١٢ إلى ٢٢

(٢) سورة الحجر الآيات ٤٧ ، ٤٨

حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة فتفتح لهم ، ويدفعون إليها دفعا عنيفا^(١) .

وحينئذ تحيط النار بأصحابها ، فيعيشون فى العذاب الأليم الشديد ، تحيطهم سلاسل الحديد ، والحيات ، والعقارب ، لا يأكلون إلا ما يعذبهم ، ولا يشربون إلا ما يؤلمهم .

وأهل النار يظهرون بصورة سيئة ، ومنظر قبيح ، وبكاء طويل .
ومن المعلوم أن عذاب العصاة يتفاوت بحسب معاصيهم .

١٢. وصف النار :

وقد وصف الله النار فى القرآن فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ الْجَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ سُخِّفَ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١١٤﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١١٦﴾ تَأَلَّهِ إِنَّ

(١) سنن الترمذى صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة النار ج٤ ص٧٠١

(٢) سورة النساء الآية ٥٦

(٣) سورة غافر الآيتان ٤٩ ، ٥٠

كُنَّا لَيْفَى ضَلَّلِ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ .^(١)

وقال تعالى ﴿ هَذَا وَارْتِلْ لِلطَّغْيِينِ لَشَرِّ مَقَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ
الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا
فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا
بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْفَرَارِيُّ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا عَذَابًا فَزِدْهُ
ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾
أَتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾^(٢)
وقال تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلطَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٦٥﴾ .^(٣)

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٦٦﴾ لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ
زُقُومٍ ﴿٦٧﴾ فَمَا لِعُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٨﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٦٩﴾ فَشَرِبُونَ
شُرْبَ أَهْلِيمٍ ﴿٧٠﴾ هَذَا نُزُّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧١﴾ .^(٤)

(١) سورة الشعراء الآيات من ٩١ إلى ١٠٢

(٢) سورة ص الآيات من ٥٥ إلى ٦٤

(٣) سورة الكهف الآية ٢٩

(٤) سورة الواقعة الآيات من ٥١ إلى ٥٦

المبحث السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر هو اليقين التام بأن كل شئ يقع فى الكون. يكون بقضاء الله ، وفق تقديره ، وإرادته ، والإيمان بالقضاء والقدر مرتبط ، بتوحيد الله تعالى ... فما دام الإنسان قد آمن بالربوبية فقد صدق بقدرة الله ، وآمن بقضائه النافذ فى كل سائر خلقه ، وما دام آمن بالألوهية فقد توجه إلى الخالق بكل شئ ، مستسلماً ، عابداً ، وما دام قد آمن بتوحيد الأسماء ، والصفات ، فقد نفى عن الله تعالى الشريك ، وأعلن تفرده سبحانه وتعالى فى ذاته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية تشير إلى أن كل شئ بقضاء الله ، وقدره ، لتفتح الحقيقة أمام العبيد ليؤمنوا بها ، لأنها ركن من أركان الإيمان .
يقول الله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (١) .

وقال تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (٢) .

وقال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ (٣) .

(١) سورة التغابن الآية ١١

(٢) سورة التوبة الآية ٥١

(٣) سورة الحديد الآية ٢٢

(٣١٤)

ويقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا^ط
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَعَجَزَى
الشَّكِرِينَ ﴾^(١) .

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا حَمَلُ كُلُّ أُثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ^ط
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٣) .

وأما الأحاديث فكثيرة فسئل النبي ﷺ : ما الإيمان ؟

قال ﷺ : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، اليوم الآخر ،
وتؤمن بالقدر خيره ، وشره^(٤) .

ويقول الرسول ﷺ : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له "^(٥) .

ويقول ﷺ : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن
الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن
أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا ، وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما
شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان "^(٦) .

وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : " يدخل الملك على النطفة
بعدما تستقر فى الرحم بأربعين ، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول ، يا رب
أشقى ، أو سعيد؟ ... فيكتبان .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٥

(٢) سورة الرعد الآية ٨

(٣) سورة القمر الآية ٤٩

(٤) سنن الترمذى كتاب الإيمان ج٥ ص٧

(٥) صحيح مسلم كتاب القدر ج١٦ ص١٩٧

(٦) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر ج١٦ ص٢١٥

فيقول : أى رب ذكر أو أنثى ؟ ... فيكتبان : ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص^(١) .
والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح خير حافز على السعى ، وللعمل فى طمأنينة وثبات . ، لأن المؤمن يقدم على العمل متوكلاً على الله . مستعيناً بمعونته ملتزماً بطاعته ويترك نتائج العمل لله تعالى ، فلا يبأس حين الفشل ولا يغتر إذا نجح ، ويعيش راضياً بما قدر الله . وبما قضى فيه . وشعاره فى كل ما يصيبه قول الله تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٣) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾^(٣) .

إن الإيمان بالقضاء والقدر يمنع التواكل والكسل . ويؤكد على الجهاد والعمل ، ويحقق الرجاء ، والطلب ، ويقوم الحياة شامخة بالعباد ، خاضعة لقدر الله العظيم .

ولا عبرة لمن يكسل ، ولا يعمل ، بدعوى أن القدر نازل ، وقضاء الله نافذ .. لأن ما قضى الله به غيب قبل حدوثه . ولذلك فإن المؤمن عليه أن يعمل الخير ، ويسعى بالمعروف ، ويطيع الله تعالى فى كل أعماله . ولقواله مؤمناً بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقد أمر الله تعالى بالسعى ، والعمل ، والاستقامة على منهجه سبحانه

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب خلق الأدمى فى بطن أمه ج١٦ ص١٩٣

(٢) سورة التوبة الآية ٥١

(٣) سورة الحديد الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٣١٦)

وتعالى ، يقول سبحانه ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ^ط
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .
ويقول تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيٰوةً طَيِّبَةً^ط وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) .
ويقول تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٣) .

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ...

(١) سورة التوبة الآية ١٠٥

(٢) سورة النحل الآية ٩٧

(٣) سورة الزلزلة الآية ٧ ، ٨



(३१४)

الخاتمة

المحمد لله رب العالمين ، الذى بنعمته تتم الصالحات . ، وبفضله يعطى الخيرات وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فقد أعاننى الله تعالى على إتمام هذه الدراسة فى أصول الدعوة الإسلامية ، وتمكنت بقدر استطاعتى من معايشة القرآن الكريم ، وللجنة النبوية أعرف منهما الأصل ، وأستنبط منهما منهج الوحي فى الاستدلال بما فيه من إقناع العقل ، وإشباع العواطف ، وإرضاء الوجدان ومعايشة الإنسان المخلوق حتى يتحول العلم بالأصول إلى عمل ، وتطبيق ، ويتحول المجتمع إلى كتلة من الصلاح ، تمثل خير أمة أخرجت للناس .

وقد حاولت بقدر استطاعتى أن استفيد بمنهج القرآن الكريم فى العرض ، والاستدلال ، مبتعداً فى نفس الوقت عن طريق الفلاسفة و المتكلمين لأنها تغرق العقل بالتحليل ، وتدور مع فلسفات خالية من العواطف ولذلك فخطابها عقلاى محض ، لا يشد روحاً ، ولا يثير عاطفة .

إن منهج الوحي فى الاستدلال يتميز عن سواه بأنه يخاطب الإنسان بكافة عناصره ، ولا يكتفى بمجرد الجدل ، والنقاش ، ولذلك فهو يحقق الغاية المقصودة من الخطاب . ، وقد حققه مع الأجيال الأولى التى آمنت بحق ، ولستسلمت بصدق قبل أن يوجد المتكلمون ، وقبل أن تترجم الفلسفة ... وعلى الدعاة : أن يستفيدوا من خطاب الوحي للناس ، ويستنبطوا منه العبرة ، وللعظة ، وأن يضموا إلى دقة الاستنباط سعة القراءة ، ومراعاة الواقع ، وقصد الوصول للهدف .

(٣٢٠)

وعلى الدعاة :

أن يعلموا أهمية علوم الدعوة ، فهي أسلحة فى أيديهم تمكنهم من الفوز . ،
والنجاح ... ومسئوليتهم أمامها ليست مجرد الإحاطة ... بل عليهم أن يساهموا
فى إثرائها بالبحث ، والتأليف ، والمدارسة ، والنصح .
وأخيراً ...

فهذا ما رجوته ، وما عملت للوصول إليه فإن أصبت فهو من الله ، وإن
أخطأت فهو منى ، وأستغفر الله وحسبى أنى بذلت وسعى ، والله يهدى إلى
سواء السبيل .

المؤلف ،

أ.د أحمد أحمد غلوش

(٣٢١)

فهرس الموضوعات

(३२२)

(٣٢٣)

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة

الفصل الأول

تديد المفاهيم

١٧	التمهيد
١٨	المبحث الأول : التعريف اللغوى للدعوة
٢٤	المبحث الثانى : التعريف الاصطلاحى للدعوة
٢٧	- بمعنى الإسلام
٣٠	- بمعنى النشر والبلاغ
٣٤	المبحث الثالث : المفهوم المراد من كلمة أصول
٣٧	المبحث الرابع : التعريف الاصطلاحى لأصول الدعوة الإسلامية
٣٧	- بمعنى أصول الإسلام
٤٥	- بمعنى أصول التبليغ

الفصل الثانى

الركائز الإيمانية فى الإنسان

٥١	التمهيد
٥٣	المبحث الأول : التعريف بالدين وبيان مدى الحاجة إليه

(٣٢٤)

- ٦٥ المبحث الثانى : الفطرة ركيزة إيمانية فى الإنسان
- ٧٤ المبحث الثالث : العقل ركيزة إيمانية فى الإنسان

الفصل الثالث

مميزات الدعوة الإسلامية ” الإسلام ”

- ٨٧ التمهيد :
- ٨٨ المبحث الأول : الدعوة التامة
- ٩٤ المبحث الثانى : الدعوة الخاتمة
- ١٠٢ المبحث الثالث : الدعوة العالمية

الفصل الرابع

أصول الرسالات الإلهية السابقة

- ١٢١ التمهيد
- ١٢٢ المبحث الأول : الإيمان بالله تعالى
- ١٢٢ عقيدة البشر قبيل الرسالات
- ١٣٢ مفهوم التوحيد وأدلة الرسل عليه
- ١٤٢ المبحث الثانى : إثبات الرسالة
- ١٤٥ المبحث الثالث : إثبات البعث
- ١٥٣ المبحث الرابع : إثبات أصول العبادات
- ١٦٢ المبحث الخامس : الاهتمام بمكارم الأخلاق
- ١٦٣ بدء الدعوة بالأخلاق

- ١٧١ التطبيق العملى .
١٧٧ التركيز على الرذائل المتفشية
١٧٩ بيان عاقبة الأخلاق

الفصل الخامس

أصول الدعوة الإسلامية " الإسلام "

- ١٨٣ التمهيد
١٨٥ المبحث الأول : الإيمان بالله تعالى
١٨٥ توحيد الله
١٩٠ الأدلة العقلية
١٩٠ السببية.....
١٩٤ النظام
١٩٧ العناية
١٩٨ التسخير
٢٠٢ الحدوث
٢٠٢ الإمكان
٢٠٣ الأدلة الدينية " وأهميتها "
٢٠٥ الخطاب المباشر
٢٠٦ إرسال الرسول ﷺ
٢٠٧ قيام الدعوة بالتبليغ
٢٠٨ أنواع التوحيد

- ٢٠٨ • توحيد الذات والصفات
- ٢٠٨ • توحيد الربوبية
- ٢١٠ • توحيد الألوهية
- ٢١٢ **المبحث الثاني : الإيمان بالملائكة**
- ٢١٢ . الإيمان بالملائكة
- ٢١٤ . أصل الملائكة
- ٢١٥ . تنوع الملائكة
- ٢٢٠ . من صفات الملائكة
- ٢٢٢ **الجن :**
- ٢٢٤ . أسماء الجن
- ٢٢٥ . تشكل الجن
- ٢٢٦ . مساكن الجن
- ٢٢٧ . طعام الجن
- ٢٢٧ . تكليف الجن
- ٢٢٨ . صلة الجن بالإنسان
- ٢٢٨ . الاحتراز من الجن
- ٢٣٠ **المبحث الثالث :- الإيمان - بالكتب - الإلهية**
- ٢٣١ . الكتب المتعلقة بالإيمان التفصيلي
- ٢٣٢ . القواعد العقلية لصحة الكتاب المقدس
- ٢٣٤ . تطبيق قواعد التصحيح مع مصادر اليهود ...

- ٢٣٨ . تطبيق قواعد التصحيح مع مصادر النصارى
- ٢٤٣ . تطبيق قواعد التصحيح مع القرآن الكريم ..
- ٢٤٥ المبحث الرابع : الإيمان بالرسول
- ٢٤٥ الرسول والنبى
- ٢٤٨ الحاجة إلى الرسل
- ٢٥١ معجزات الرسل
- ٢٥٤ خصوصيات محمد ﷺ
- ٢٥٧ المبحث الخامس : الإيمان باليوم الآخر
- ٢٥٩ أسماء اليوم الآخر
- ٢٦٥ الحكمة من تعدد أسماء اليوم الآخر
- ٢٦٨ أهم علامات الساعة الصغرى
- ٢٧٠ أهم علامات الساعة الكبرى :
- ٢٧١ (١) أدخـان
.....
- ٢٧٢ (٢) طلوع الشمس من المغرب
- ٢٧٢ (٣) خروج الدابة
- ٢٧٣ (٤) خروج المسيح الدجال
- ٢٧٤ (٥) نزول المسيح عيسى عليه السلام
- ٢٧٦ (٦) يأجوج ومأجوج
- ٢٨٠ مشتملات اليوم الآخر :
- ٢٨٠ (١) النفخ فى الصور

٢٨٠ (٢) البعث
٢٨٣ (٣) الحشر
٢٨٦ (٤) الحساب
٢٩٠ (٥) صحائف الأعمال
٢٩٠ (٦) الميزان
٢٩٢ (٧) الصراط
٢٩٤ (٨) الحوض
٢٩٥ (٩) الشفاعة
٢٩٦ (١٠) الجنة
٢٩٩ من صور الجنة فى القرآن الكريم
٣٠١ (١١) النار
٣٠٢ (١٢) وصف النار
٣٠٤ المبحث السادس : الإيمان بالقضاء والقدر
٣١١ الخاتمة
٣١٥ الفهرس

﴿وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين﴾